

الموسوعة التاريخية

العرب والإسلام

عبد الملك بن مبروان

تأليف

عمر أبو النصر



عبد الملك بن مروان

الموسوعة التاريخية
(العهد الاسلامي)

عبد الملك بن مروان

تأليف

محمد أبو النضر

•

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

١٩٦٢

لهذه الموسوعة

في تاريخ العرب والاسلام

هذا هو القسم الاول من الكتب التي سوف تصدر في سنة ١٩٦٢ من هذه الموسوعة :

- ١ - قصة العرب قبل الاسلام
- ٢ - سيد العرب
- ٣ - الجيش الاسلامي الاول وخالد بن الوليد
- ٤ - الخلفاء الاربعة : ابو بكر وعمر
- ٥ - عثمان وعلي
- ٦ - معاوية بن ابي سفيان وعصره - صدر -
- ٧ - عبد الملك بن مروان - صدر -
- ٨ - الايام الاخيرة للدولة الاموية

وسنعلن عن الكتب التالية وهي تحت التأليف الآن في حينها ،
واذا نحن بدأنا في نشر تاريخ الدولة الاموية قبل غيره ، فلان
الاجزاء الخاصة بهذه الدولة قد تمّ تأليفها ، وستتبعها الاجزاء
الباقية في حينها .. وهو ما سبقنا اليه كثير من علماء الغرب

حين عرضوا لأمثال هذه الموسوعات التاريخية ، يقدمون واحد
منها عن الآخر ، لاستقلال كل كتاب بموضوعاته ، حتى اذا
تمّ طبع الموسوعة ، استقامت اجزاؤها وتلاقت وتراصت ،
والفت مجموعة فريدة في التاريخ العربي ..

اذار ١٩٦٢

هذا الكتاب

هذا الكتاب لون جديد وحديث طريف ولحات في تاريخ الاسلام والعرب، وقصة صادقة تؤرخ لهؤلاء الابطال ، الذين يُقبِلون على الدنيا فاذا مولدهم مطلع عهد جديد ، ويمضون فاذا وفاتهم تاريخ .

وأحسب اني تعرضت في ماضيات ايامي لهذا النوع من التاريخ ، فتبعت تاريخ العرب والاسلام على النحو الذي رسمه الاقدمون ، فاسلست قياده ، ونظمت فصوله ، وضبطت حوادثه ، ورسمت طرائقه ، على نحو جديد ، وتقسيم وتبويب لطيف ، لاني كنت واثقاً ان هذا التاريخ القديم ، إذا ترك وشأنه ، سيفقد مع الايام تلك المقدرة على استهواء الخلف كما استهوى السلف . ثم تقطعت الايام ، ونقد ما انشأت من مؤلفاتي ، واصبحت الحاجة ملحة الى النظر فيها وتهذيبها من جديد ، لتساوق هذه اليقظة الحاضرة ، ولتساير هذا التطور السريع في كل ألوان المعرفة والحضارة .

ثم بدا لي ان ما وضعته لسنوات خلت ، يحتاج الى كثير من التعديل والتحوير والتجديد ، واني أحسن صنعا اذا عمدت الى انشائه على نحو .. إن اتصل بالماضي ، فليكن هذا الاتصال رقيقاً لطيفاً هيناً .

ثم رأيت ان خيراً من هذا كله ، ان اعود الى ما كتبتة فاقوّضه ، ثم اكتبه من جديد ، وأستيره على النحو القومي الذي يجب ان يكتب فيه تاريخ امة

جمعت بين المشرق والمغرب في سنوات ، ووصلت ما انقطع من حضارات الامم
السالفة ، فالبستها ثوباً عربياً ، ثم مهرتها بعبقريتها ، وحلتها كاملة غير منقوصة
الى الاجيال التي خلفتها ، فصدقت في الخدمة ، واحسنت في النقل وحفظت
الحضارة الانسانية أن تضيع او تذوب .

والحضارة كما يقولون بناء تقيمه الشعوب في اوطانها ، وتقيمه الانسانية في
الارض ، فاذا كان الذين ينهضون باقامة هذا البناء حذاقاً مثقفين ، كان بناؤهم
متيناً رائعاً ، واذا كانوا جهالاً مقصرين ... كان بناؤهم مضطرباً واهناً ، سيء
الشكل ، بعيداً كل البعد عن ان يلائم جمالاً او يذكر بخير ..

ولست الآن بصدد التبسط في هذا الكتاب من تاريخ العرب والاسلام ،
ولا انا في سبيل الاعلان عنه ، والزهو به ، ولكنني كاتب يسرني ان اقول
انه جدير بعناية قراء العربية جميعاً ...

عمر ابو النصر

بيروت : اذار ١٩٦٢

ظهور بني مروان ووصف الحالة السياسية في دمشق

الفترة المضطربة الجامعة :

لقت موت معاوية بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان انظار الذين يطمعون بالخلافة من بني هاشم وامية ، خصوصاً بعد ان ابي معاوية الثاني ان يستخلف احداً او يوصي باحد ، وقال :

-- ليصل بالناس حسان بن مالك بن يجدل اربعين ليلة .. وتشاوروا في امركم واستودعكم الله ..

ثم مات وحسان بن مالك على الجندين فلسطين والاردن ، والضحاك بن قيس القهري على دمشق ، والنعمان بن بشير على حمص ، وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبي ثم العليمي على قنسرين ، وعبيدالله بن زياد على العراق .. وعبدالله بن الزبير على مكة والحجاز ، قد اعلن خلافته وايدته كثير من الناس . فلما بلغ اهل الامصار ما جرى من امر معاوية بن يزيد وكيف انه رفض

استخلاف احد بعده ، وثب كل جند على عاملهم ، فوثب زفر بن الحرث على سعيد ابن مالك فاخرجه من قنسرين ، ودعا الى طاعة ابن الزبير ، فاحتمل هذا ما كان في الخزانة العامة من المال ، ولجأ الى طيء وتنوخ فاجاروه ، حتى عاد الى دمشق ، وباع النعمان بن بشير بجمص لابن الزبير ، وخلع بني امية ، واستخلف حسان بن مالك بن يمدل ، روح بن زنباع على فلسطين ولحق بالاردن ، ووثب نائل ابن قيس الجذامي فيمن تبعه من جذام ولخم ، يدعو الى ابن الزبير ، وأخرج روح بن زنباع من فلسطين ، وبقي الضحاك بن قيس بدمشق عاملاً عليها ، يقدم رجلاً ويؤخر اخرى .. يظهر طاعة بني امية ... ويدي الى هذا الحي من قيس : ان ابن الزبير اولى بالامر .. ثم هم بان يبايع لابن الزبير ... وهم مروان بن الحكم وكان شيخ بني امية ان يكون رسول الضحاك بالبيعة الى ابن الزبير ..

وكذلك نرى كيف استقبل امراء الاجناد وسكان الامصار تمزق الامر في الشام ، وكيف اخذ كل جند ومصر يفكر في الانحراف عن دمشق ، وتأييد ابن الزبير ، تأييداً كان ظاهر المنفعة ، بين الغرض ، واضح المصلحة .
ومن المؤكد ان امية قد انكرت موقف معاوية بن يزيد ، وها لها منه عدم تسمية شخص من امية يلي الامر من بعده ، وعدت عمله مروفاً عن مصلحة قومه وتقاليد شيعته ، لان امية لم توفق الى الخلافة إلا بعد عناء وتعب ودم كثير ، فانقراط الامر ، وهو لا يزال في دور الانشاء كان حدثاً خطيراً تتعرض معه مصالحها للانهار والانحلال والتفكك .

اما موقف الاقطار العربيه الاخرى من معاوية بن يزيد ، فكان على نقيض ذلك ، رقت هذه الاقطار لحالة هذا الخليفة البائس الذي يريد الاصلاح ويرغب فيه ، ثم لا يوفق الى شيء منه .. ولكنها لم تأخذ نفسها على الاستسلام لهذه العواطف الرقيقة ، فقد وجدت الموقف خطيراً والحالة جامحة ، لا بد لها من قرار سريع ، وتسوية عاجلة فكان ما كان من انحراف بعض رجالها عن امية

التي كانت ولما تستقر على خليفة ، واندفاعها لتأييد ابن الزبير الذي كان يمثل نظاماً قائماً مها يقل المؤرخون في ضعفه ، فانه كان على كل حال اثبت وافضل من الفوضى الادارية والسياسيه التي كانت تعمر الشام، ومن يؤيد امية من اهل الشام .

وزاد في ارتباك الموقف ، ان خالداً شقيق معاوية الثاني كان لا يزال شاباً يضطرب في العشرين من عمره ، والعرب تكره ان تولي امرها فتى صغيراً وغلاماً حدثاً ، ولم يكن في بني سفيان سواه ، فلم يبق والحالة هذه إلا ان تقتش امية عن امير من غير بني سفيان ، وهو ما اخذ يبحثه بعض رجالها وما اخذ يفكر به مروان بن الحكم وولده ...

ولم يكن السوريون يؤيدون عبد الله بن الزبير ، ولا كانوا يفكرون في مبايعته بالخلافة ، الا ان يُحملوا على ذلك حلاً ، وان كان امر ابن الزبير قد استفحل وفشا في طول الحجاز واطراف العربية ، فقد بايعه الحجاز والعراق ومصر وفلسطين ، واما سورية فكانت لا تزال منقسمة على نفسها ، وكانت دمشق تكره ان تذهب عاصمة الملك منها ، فيحتويها هذا الوجوم الذي يحتوي كل مدينة لا تكون قلب العربية ، ولسانها المفكر ، ولواءها الخفاق .

كان هذا رأي اكثرية السوريين ، وان كان بعضهم لا يرى كبير امر في مبايعة ابن الزبير ، بعد ان استفحل امره وفشا ، وكان هذا البعض يعتقد ان الامر سيؤول اليه حتماً ، لاجتماع كلمة اكثر الامصار العربية عليه ويرى من واجبه ومصلحته ان يعمل لابن الزبير لعله يعهد اليه بولاية الشام او يقامحه سلطانه ، خصوصاً وابن الزبير كان يكره الاقامة في الشام ويفضل البقاء في الحجاز وبين الحرم .

كان هذا رأي الضحاك بن قيس القائم باعمال الدولة بعهد من معاوية الثاني الذي كلفه تصريف الامور مع الوليد بن عتبة ، ربمّا يتفق المسلمون على الخليفة الجديد ..

واما بنو امية فكانوا يكرهون الضحاك، ويكرهون ابن الزبير، ويريدون ان تظل الخلافة فيهم ، ولو كان في ذلك انقسام الامبراطورية ، واستقلال ابن الزبير بالاقطار العربية الشرقية ، كالحجاز والعراق وفارس وخراسان .

الامرار السياسية في دمشق :

وقد لعبت السياسة السرية دوراً خطيراً في هذه الفترة المضطربة الجاهمة القلقة ، واكثر المصادر التي بين ايدينا عن الدور السياسي الذي قام بتمثيله غير واحد من رجالات امية في دمشق ، تعود بأكثرها الى مصادر عراقية ، لا تحمل في طياتها شيئاً من التحليل التاريخي للحوادث ، والاسانيد المذكورة في تاريخ (الطبري) مضطربة قلقة بعيدة عن الحيك والانسجام . ولكن الشيء المؤكد هو ان خلافة معاوية الثاني لم تنقص عن اربعين يوماً ولم تزد عن ستة اشهر ..

كما ان المؤكد ايضاً ان عبدالله بن الزبير اعلن خلافته في الحجاز ، وايدته مصر ، واما في دمشق فقد كانت الحالة مضطربة كل الاضطراب ، وكان الضحاك بن قيس يمثل ثلاثة ادوار : كان يعمل لمصلحته ، وكان يحاول التقرب من ابن الزبير ، وكان يساوس بني امية في دمشق لا يريد ان يقطع الجبل معهم ، او يظهر بمظهر الشخص الذي يريد ابعادهم عن الخلافة ..

ابن زياد في العراق :

اما في العراق ، فقد احدث خبر موت يزيد ، وما تلاه بعد ذلك من تحلي معاوية ابنه عن الخلافة ، واضطراب الامر في العاصمة الاموية ، رجة عظيمة في الاوساط الشعبية العراقية ، ووجد العراقيون الفرصة سانحة للثورة ، وتمزيق ما كان يصل بينهم وبين دمشق ، وكان عبيدالله بن زياد عامل امية في العراق بالبصرة لما بلغه موت يزيد واختلاف الناس في دمشق ، فتحير في امره ، وأسقط في يده ، ولم يكن يجهل ما يتعرض له من نقمة العراقيين عليه وسخطهم

على سياسته ، وحرصهم على الثأر منه لما بدر منه في وقعة كربلاء ، ولكنه كان لا يزال مطمئناً الى نجمه كما يظهر ، فدعا اهل البصرة الى الاجتماع في المسجد ، حيث يصار الى اعلان سياسته الجديدة ، وما يحاول اعتزازه من قرارات بصدد التطور الحاضر ، وكان المسجد في العصور الاولى مركز الحركة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، بحيث يصح ان يقال بأنه برلمان الاسلام الاول ، وكان ابن زياد في الخامسة والثلاثين من عمره في هذا العهد ، وكان يعلم الى هذا انه سيلاتي من اهل البصرة معارضة شديدة ، وان سلطانه بينهم قد اصبح ضعيفاً قلقاً ، ولكنه لم يقنط ، ولم يتوله اليأس ، مؤمناً بأن الموقف لا يزال في يده ، وانه يستطيع الاعتماد على بعض شيعة عثمان من اهل البصرة ، واما في الكوفة فكان الامر على خلاف ذلك ، لان اكثر اهلها كانوا من الشيعة الذين يكرهون ابن زياد وسياسته كرهاً شديداً ..

وكان الى هذا كله يعتمد ايضاً على ذكائه وحسن سياسته ، وما لديه من مال الامة يبذله في سبيل تألف الناس والاحزاب حوله ..

وافتح عبيدالله الاجتماع بخطبة لبقية معتدلة خلافاً لعاداته السابقة ، و اشار في خطبته هذه الى ما قامت به عائلته من خدمات في العراق عامة والبصرة خاصة ، وقال انه ابن البصرة ، ولا يرغب إلا ان يكون منهم ولهم ، يخدمهم ويحافظ على مصالحهم ، وكيف ان عدد المقاتلة في عهده قد اصبح عشرة الاف يتناول واحدهم من بيت المال في السنة ما لا يقل عن الف درهم . عدا ما كان يصيب عائلاتهم من المساعدات المختلفة ، ثم اخبرهم باختلاف الناس في دمشق ، وقال : « انتم اليوم اكثر الناس عدداً واوسعهم فناء ، فاختراروا لانفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم ، فانا اول راض من رضيتموه ، وان اجتمع اهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وان كرهتم ذلك كنتم على احد يليكم حتى تقضوا حاجتكم ، فما بكم الى احد من اهل البلدان حاجة ، ولا يستغني الناس عنكم . »

وقد سرّ أهل البصرة ما أظهره عبيدالله من ضعف واستكانة ورغبة في الاتفاق معهم ، فبايعوه على ان يلي امرهم ريثما يتفق الناس ، ولا يبعد ان يكون عبيدالله قد دفع بعض انصاره الى الدعوة له حين ينتهي من خطبته ، ولما كان أهل البصرة لم يتفقوا على احد منهم ، وكان عبيدالله قد فاجأهم ببيانه هذا فقد رضوا به ، ريثما ينالون من بيت المال ما وعدم به من عطاء ونوال .. ويقول الطبري : ان أهل البصرة قد انصرفوا من المسجد بعد البيعة وهم يقولون :

« لا يظن ابن مرجانة اننا نتقاد له في الجماعة والفرقة ، كذب والله .. ثم وثبوا عليه » .
واقام عبيدالله اميراً عليهم غير كثير ، حتى جعل سلطانه يضعف ، ويأمر بالامر فلا يقضي ، ويرى الرأي فيردّ عليه ، ويأمر بحبس الخطيء فيحال بين اعوانه وبينه .

واحسنّ عبيدالله بعد ايام بموقفه الخطر ، فرأى ان يهرب الى الشام قبل ان يستفحل الامر ، ويناله من أهل البصرة اذى او نكر .
واخيراً وثب أهل البصرة بعبيدالله ، واخرجوا الرايات ، كل قبيلة اخرجت راياتها ، فلم يبق احد إلا خرج لسوء آثار عبيدالله فيهم ، وقام سلمة بن ذؤيب الرياحي او الحنظلي في المربد فقال :

— ايها الناس من ينصر الله .. من ينصر الكعبة ، من يعين على ابن سمية — ابن زياد — .. فثار الناس لكلامه وهاجوا ..

وخرج الخوارج من السجون — ويقال ان ابن زياد حبس منهم في مدة حكمه على العراق اربعة آلاف رجل — فاجتمعوا في المسجد ، وعبيدالله في القصر قد اخذ بابوابه ، واخذت العرب بافواه السكك والدروب ، فاستجار

ابن زياد بالحرث بن قيس الازدي ، ثم بمسعود بن عمرو سيدالازد .. فأجاراه
وخرج من قصره في زي امرأة ، فسار حتى اتى مسعود بن عمرو مستجيراً
فأجاره ، ثم سيره الى الشام .

ثم اختار اهل البصرة عبدالله بن الحرث بن نوفل اميراً عليهم ، واقبلوا به
الى دار الامارة ، وذلك في جمادي الآخرة من سنة ٦٤ للهجرة .
واما اهل الكوفة فقد طردوا عاملهم واجمعوا على عامر بن مسعود ،
وكتبوا الى عبدالله بن الزبير بالبيعة فارسل اليهم العمال ..
وكذلك فعل اهل خراسان ، فانهم اخرجوا عاملهم سالم شقيق عبيدالله بن
زياد ، وكان افضل من شقيقه واصح ، ولكن سوء سياسة اخيه في العراق
اثارت الناس عليه ، وحملتهم على طرده ..

وفي هذه الفترة ايضاً دخل اهل مصر في طاعة ابن الزبير ، وانضمت
فلسطين اليه ايضاً بواسطة زفر بن الحارث القيسي نكاية ببني كلب الذين كانوا
يؤيدون ابناء يزيد بن معاوية ، لان ام يزيد كلبية ، وام خالد بن يزيد كذلك .
كما انضمت حمص الى ابن الزبير بحيث لم يبق الا اهل الشام وخدم لا
يدينون بالطاعة لابن الزبير ، ولو مشى ابن الزبير الى الشام في هذه الفترة ،
وبعد ان دانت اكثر الامصار العربية لخلافته ، لكانت الخلافة له حتمًا ، ولكنه
كان رجلاً ضعيف الايمان بنفسه ، قليل الثقة بانصاره ، فكان ضعفه هذا من
اسباب فشله .

خطأ عظيم :

وقد ارتكب ابن الزبير الى هذا خطأً كبيراً كان بعيد المصاير في تاريخ
الامبراطورية الاسلامية العربية ، وذلك باخراجه مروان بن الحكم وهو شيخ
امية ، من المدينة ، وكان مروان يقيم اكثر الوقت فيها ، فلم يكن بينه وبين
اهل الشام تألف ولا مخالطة ، وكان بنو امية من سكان الشام ينكرون عليه

تدخله في شؤونهم ، ويمدونهم بعيداً عنهم ، ثم انه كان يجد في اختلاف الامويين في الشام دليلاً جديداً على ان الخلافة لن تكون لهم ، وان ابن الزبير ، وقد استفحل امره وفشا شأنه ، لا بد واصل اليها ، غالب اهل الشام عليها .
ثم ان مروان كان اقرب الامويين الى الخلافة ، لسنه وشيخوخته ، وكان من مصلحة ابن الزبير ان تظل امية مختلفة على نفسها ، وان لا يصار الى جمعها في صعيد واحد ، بحيث تؤلف كتلة واحدة قرية ، تستطيع الاجتماع عليه ومحاربه ، وقد صار الاجلاء كما يظهر بعد موت معاوية بن يزيد ، فانه لما مال الناس الى ابن الزبير ، كتب هذا الى عبدالله بن حنظلة عامله على المدينة : « اذا جاءك كتابي هذا فاخرج بني امية من المدينة الى الشام » .

ففرع مروان الى ابنه عبد الملك فذكر له ذلك ، فقال عبد الملك :
— هذا رأي افرد به ولم يشاور اهل المشورة عنده ولو استشارهم لأشاروا عليه بغيره ، فاستفد من هذه الفرصة ..
فقال مروان : كيف وانت مريض ؟ ..
قال عبد الملك : ليس بي بأس احلوني في هودج ..

ثم لما شاور ابن الزبير اهل الرأي من انصاره ، اشاروا عليه بغير ذلك ، فكتب الى عبدالله بن حنظلة :
« اما بعد فاني كتبت في اخراج بني امية ، فاذا اتاك كتابي هذا فاقرهم على سكناتهم » .

فكتب اليه ابن حنظلة بمسير القوم ، فكتب ابن الزبير :
« من عبدالله ابي بكر امير المؤمنين الى مروان بن الحكم ، اما بعد فقد بلغني خروجك الى الشام ، وارصادك الفتنة ، فاذا جاءك كتابي هذا فارجع الى منزلك ، والا فاني اعطي الله عهداً ، اني لا ادع لك خضراء الا قطعتها ولا بيضاء إلا نسفتها » ..

فكتب اليه مروان :

« من مروان بن الحكم الى عبد الله بن الزبير ، اما بعد فقد جاءني كتابك تذكر خروجي الى الشام وارصادي الفتنسة ، وتأمرني بالرجوع الى منزلي ، وتقسم لئن لم افعل ان لا تدع لي خضراء إلا قطعتها ، ولا بيضاء إلا نسفتها ، وليس لي الا ان اقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فثلي ومثلك يا ابن الزبير ما قال حصين بن الحمام للنعمان :

فلست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلماً
وكذلك مضى مروان بن الحكم الى الشام ، كما اراده ابن الزبير ان يفعل
وكان مروان اقرب الامويين الى الخلافة ، فكأن ابن الزبير والحالة هذه قد
ارسل الى الامويين المضطربين المختلفين في دمشق ... الشخص الذي يجتمعون
حوله ، ويتفقون جميعهم عليه ..

مروان في دمشق :

ولما وصل مروان الى دمشق اقام يدرس الحالة ويبحث الموقف ، ثم
اتصل بالضحاك بن قيس ، او اتصل بالضحاك به ، وبجنا الموقف سوية ، ثم
اتفقا على ان يكون مروان رسول الضحاك الى ابن الزبير ، فيأخذ منه اكثر ما
يعطيه ، مقابل مبايعة الشاميين له بالخلافة ، فلما عرف بهذا الاجتماع وتبيخته
عمرو بن سعيد بن العاص قال لمروان :

- بينا انت المرجو ، وشيخ قريش اذ صرت رسولاً لآخي فهر - يريد
الضحاك - وما انت من الامر ببعيد .
وقال له عبد الملك ابنه :

- لست اشك مع الاختلاف الذي ارى ان الامر صاير اليك ..
فجعل مروان عند ذلك يلقي الكلام الى الرجل ، ويضرب الامثال بمثل آل
ابي سفيان وعقولهم وجودهم ويقول :

- « وبنو ابيهم منهم ومثلهم » ... ويذكر الحاد ابن الزبير واستحلاله الحرم مع جمعه الاموال ، وبخله وقلة بذله ..
ولكن موقف الضحاك في دمشق كان يجعل الموقف السياسي مثقلاً بكثير من الغموض والايهام ، فبينما تراه هوى هوى ابن الزبير ويعمل له ، تراه يتألف الامويين ويمالئهم كأنما هو يريد العمل لهم وانتخاب احدهم لمركز الخلافة ، ولكن الحقيقة انه كان مضطرب الرأي ، ممزق الاهواء ، لا يدري اين يضع قدمه ، ولا كيف يقرر مصيره ، خصوصاً بعد ان استقل بحكم دمشق والقى بالوليد بن عقبة زميله في الحكم او مجلس الوصاية .. في غياب السجين .

سياسة مروان الجديدة :

واما مروان فان حديث عمرو بن سعيد له ، وحديث ابنه معه قد اثارا في نفسه قلقاً عظيماً وطمعاً كبيراً ، وما كان يدور في خلداه ان تصل اليه الخلافة بهذه السهولة في يوم من الايام ، ولهذا قرر اتباع خطة جديدة ، فزعم المسجد ، او لزم كما يقول المؤرخون سارية في المسجد - مسجد دمشق - كما كان يفعل العلماء والفقهاء في مساجد الكوفة والبصرة ، يلزمون سارية من سواري المسجد ويجلس حولهم الناس يحاضرونهم ويعلمونهم ويحدثونهم .. واما مروان فقد لزم السارية وحده ، واخذ يتصنع ويتظاهر بالنسك والعبادة ، والناس حوله يتراوضون فيمن يستخلفون ، وكان الذين يختصمون حول من يستخلفون جماعة منهم مالك بن هبيرة ، وسعيد بن حمزة الهمداني ، وزمّل بن عمرو ، وروح بن زنباع ، وعبد الله بن عامر ، و«جنادة بن أبي امية ، وشرحبيّل بن ذي الكلاع ، وحسان بن مالك بن يحدل في عدة من وجوه الناس ، واشراف العرب .

كلوا مختلفين ، بعضهم يريد تأمير عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وطائفة تريد ابن الزبير ، واجتمعت اليانية على خالد بن يزيد بن معاوية ،

لمكانة يزيد فيهم وقرابته بهم .

ومرّ روح بن زنباع بمرّوان وهو يصلي الى تلك السارية لا يجتمع الى احد من الناس ، فدعاه مروان اليه ، ثم قال له :

- يا ابا زرعة انك من هذا الامر بصدد ، واني لا اعلمك من امري الا ما قد علمت ، انا ابن عم امير المؤمنين عثمان ، وخليفته في الدار ، والذي اوصى به بعده ، فلا تدع من ذكرنا ما انت اهله ، ومهما نسيت من شيء فلا تتسبّب ان تذكر سني ونظري وتجربتي وقرابتي بامير المؤمنين عثمان ، مع الشدة في الحدود ، والعفاف في الاسلام وبذل ذات اليد مع بخل ابن الزبير وجمعه ومنعه .

فقال روح لمرّوان : امرت بمعروف واوصيت كافياً ..

ويحدثنا روح بعد ذلك فيقول : فجلّست مجلس الملاء فاذا هم يقولون ابن عمر وابن الزبير ، فقلت : ما يمنعكم من هذا الشيخ من قريش - واشترت الى مروان - وهو ابن عم امير المؤمنين عثمان وقد أمر عشر مرات ، ونزع عشر مرات ، كل ذلك وهو لا يسخط ولا يخالف ، ولا يعدل عن خيانة .

فقالوا : ابن الزبير اصلب منه ، وابن عمر افقه .

فقال روح : اما ابن عمر فرجل قد شغلته عبادته ، واما ابن الزبير فمن اكثر منه غلظة وتجبهاً وبخلاً ، وبنو امية اسمح اخلاقاً ، واعطى لهذا المال ..

ثم مرّ روح بمرّوان بعد ذلك وهو يصلي فرماه بمحاصة فاته ، فقال مروان : - وصلك الله يا ابن اخي وجزاك خيراً ، قد بلغني ما قلت في بني امية وابن الزبير ، والله ما ابن عمر افقه مني الا انه اسنّ مني وكانت له صحبة ، وما ابن الزبير باصلب مني الا بالخلاف على الامراء وانا لا استحل ذلك .. والاستئثار بهذا المال وجمعه ومنعه اهله ، وقد علمت قريش اني اصلبها واشدها على المريب .. واغلظها في ذات الله فلا تنسين هاتين رحمتي الله ..

وكذلك يعود مروان بن الحكم الى الساحة السياسية بعد ان غادرها

وازوى في المدينة ما يقرب من ثلاثين سنة تقريباً ، الا ما كان من تكليف معاوية له ببعض الاعمال في عهده ، ومروان هذا هو الذي كان كاتباً لعثمان بن عفان في ذلك العهد المضطرب مدة خلافته - ٦٤٤ - ٦٥٦ - كما انه كان في اثناء هذه الوظيفة يسيطر على الخليفة الشيخ سيطرة كاملة كان لها اثرها في اختلاف الناس عليه و ثورة الامصار على خلافته وسياسته .

واما ما يقوله (لامنس) من ان معاوية نفسه كان يخشاه على الخلافة بعد موته فامر لم تقم عليه حجة ، وما نعرف مصدراً تاريخياً يؤكد ذلك ، كما اننا لانجد مروان يتحفز للخلافة ويفكر فيها إلا بعد ان اغراه بنو امية ، وذكروا له انه ليس بعيداً عنها ...

اتفاق الراء في دمشق

و ظهور مروان بن الحكم

الحالة في دمشق

مما يلفت النظر في امر سكان دمشق من اهل اليمن وغير اهل اليمن ، ان بعضهم كان يناصر الضحاك ويؤيده على قدر ، ولعل سبب ذلك انقطاع الصلة بين هؤلاء وبين ابي اميه بسبب موقف يزيد بن معاوية ، وتفضيله (حوارين) على دمشق ، واشتغاله بها عن العاصمة الخالدة ، ويظهر لنا في الوقت نفسه ان هذه الثورة السياسية التي تمزقت فيها دمشق ، قد عملت على تقريب الناس الى الزعماء السياسيين وتعرفهم عليهم ، وقد كان هناك من هؤلاء الزعماء ، مروان بن الحكم ، وعبيدالله بن زياد ، وابن يجدل ، والضحاك بن قيس ، وعمرو بن سعيد الذي يلقب بالاشدق ، والذي صار حاكماً على المدينة في ايام معاوية والذي كان يعيش منذ سنوات في سورية ، وقد استطاع في اثناء ذلك ان يخلق لنفسه زعامة في دمشق وانصاراً من بني اميه يؤيدونه ويناصرونه .

بين الشمال والجنوب :

ولا يجب ان ننسى في الوقت نفسه هذا الخلاف الذي كان مستقراً بين القيسيين والكلييين او اهل اليمن من سكان سورية ، اي بين الشمال والجنوب من سكان الجزيرة العربية ، فان محاولة يزيد ومعاقبة قبله التقرب من اهل اليمن والتزوج بأمرأة كلبية، كانتا من الاسباب التي آذت القيسيين وجعلتهم يعارضون سياسة آل ابي سفيان ، ويعملون على تمزيقهم ، وتأييد خصومهم ، خصوصاً بعد ان عين يزيد بن معاوية سعيد بن مالك بن يحدل على قنسرين وهو كليي وشقيق حسان بن مالك بن يحدل ، مما جعل آل يحدل يتصرفون في ثلاثة من مراكز الجند في سورية، وهو ما اغضب القيسيين الذين كانوا يؤلفون قوة لا يستهان بها في هذه الامصار، ولا يرضون ان يكون حاكمهم كليي ، ومع ذلك فان غضبهم هذا لم يتعد في ايام يزيد الاقوال ، فلما انتقل لمآبه ، وقفوا باجمعهم موقف المعارض لأحد من آله يلي الخلافة بعده .

وكان من وجوه بني قيس في قنسرين زفر بن الحارث الذي رأيناه في جيش مسلم بن عقبة لما ارسله يزيد لاقتحام المدينة ، فلما مات معاوية الثاني انقلب هذا الشخص الذي كان يؤيد اميه الى تأييد ابن الزبير نكاية ببني كلب ، كما اثار الفتنة في قنسرين التي اضطربت بين القبائل العربية من يمنية وشمالية ، وطردها عامل بني اميه منها ، وانضم اليه النعمان بن بشير عامل حمص الذي كان يكره يزيد بن معاوية الذي لم يعاقب الاخطل الشاعر النصراني الذي هجا الانصار وسبهم .

واما الضحاك بن قيس فكان يرقب من مكانه في دمشق الاضطرابات التي كانت تزداد حوله محاولاً في الوقت نفسه ان لا يقطع العلاقات بينه وبين ابن الزبير .. ولا بينه وبين الامويين في دمشق ، مستغلاً كل هذه الخصومات لمصلحته اولاً .. ولمصلحة قبيلته ثانياً ...

والخلاصة انه لم يكن هناك غير جند الاردن محافظاً على اخلاصه لبني امية، لان هذا الجند كان مؤلفاً بأكثرية من بني كلب وعلى رأسهم ابن يجدل .

سياسة بني كلب

ولقد كان لبني كلب اثر فعال في خلافة المروانيين ، وهم قبيلة عربية بدوية دانت بالنصرانية منذ عشرات السنين، وكانت تنزل قريباً من تدمر على الأرجح، وفي منتصف القرن السابع الميلادي كان زعيم بني كلب (يجدل بن انيف) الذي يختلف المؤرخون في دينه فيزعم بعضهم انه كان نصرانياً ويقول آخرون باسلامه ، ولكن المؤكد ان رياسة بني كلب في الاسلام انتقلت لبنيه من بعده وكانوا من المسلمين ^(١) وقد توارثوا هذه الرئاسة على الكلبيين اباً عن اب وجداً عن جد ، واذا احتفظ لنا التاريخ بالكثير من اخبار بني كلب ، فلأن معاوية بن ابي سفيان قد تزوج امرأة من آل بيت الزعامة والرئاسة فيهم هي ميسون ، التي ولدت له يزيداً ولي عهده من بعده ...

ونجهل فيما اذا كان (يجدل) هذا قد حارب في صفوف المسلمين عندالفتوح في سورية، او كان موجوداً في الجيش عند حصار دمشق، ولكن الذي نعرفه انه ظفر ببعض غنائم هذه الفتوح، وانهم اقطعوه بعض الاراضي الرومية التي تركها اصحابها ومن المفروض ان يكون هذا الاقطاع نتيجة مقروضة لخدمات قدمها، فاذا انتهت الفتوح واستقر الاسلام في ربوع الشام انقطعت اخبار يجدل ابن انيف ، زعيم الكلبيين ، وفي معركة صفين لم يكن يجدل حاضراً ، وانما كان بنوه يتزعمون قضاة ، ويأخذون مكانهم بين الجنود السورية الموالية لمعاوية، ومن المؤكد انه مات قبل هذا العهد ...

ولقد ورث يجدل بعد موته ابناؤه ، وكان زواج معاوية بميسون شقيقتهم

(١) نهاية الارب في معركة قباثل العرب ، محمد بن عبدالله القلقشندي .

من الاسباب التي قدمتهم في الدولة ، وجعلت لهم شأنًا منظوراً في سياستها ، خصوصاً بعد ان ولدت يزيداً ولي عهد الخليفة الاموي الاول ، ولما كانت ميسون هذه تنعم بشرف الزعامة في قبيلتها ، فقد راح بعض المؤرخين يقولون عن يزيد انه اخذ بطرفي الشرف نظراً لشرف عائلته من ابيه ، وشرف عائلته من امه ، وقد وفق معاوية ما في ذلك شك في هذا الزواج الذي خلقت له ولابنه من بعده عصبية قوية بين الكلبيين الذين كانوا من القبائل العربية القوية ، خصوصاً بعد ان اخذ معاوية يتقرب من هذه القبيلة ويستميلها اليه بالمال ، فخصّ الفين من رجالها بشرف العطاء ، اي بالفني درهم في السنة لكل واحد منهم ، وهو مبلغ كان يدفع للمقاتلة منهم ، ولكنه كان خاصاً بفئة من الناس ومن اشرف الناس طبعاً فادخال كلب بين الاشراف كان يرمي الى تقريبيهم من معاوية ، دعماً للملكة وتقوية لعصبيته في بلاد الشام .

وكان حسان بن مجدل يعتبر زعيماً لبني كلب وكان يناصره بعض اليمينية الموجودين في سورية من مؤيدي سياسة بني كلب في امر الخلافة ، وضرورة الاحتفاظ بها لبني امية ، وكان الكلبيون كما قدمنا يؤيدون آل ابي سفيان لان معاوية كان قد تزوج ميسون ابنة مجدل زعيمهم الاكبر ، وكان يزيد ابن معاوية بن ميسون الكلبي كما قدمنا ، وكان خالد بن يزيد مرتبطاً مع بني كلب بصلة من النسب لان ميسون هذه كانت جدته ، ولما توفي يزيد بن معاوية كان حسان بن مجدل عاملاً له على فلسطين ، فلما توفي معاوية بن يزيد وهو نسيبه وقريبه ، وترك الخلافة يختار لها المسلمون من يشاؤون ، غادر حسان فلسطين بعد ان عهد بولايتها الى روح بن زنباع ، وذهب الى الاردن حيث اقام بين قبيلته من بني كلب ليكون على مقربة من دمشق ، بعد ان استشعر ان الاختلاف حول الخلافة سيكون شديداً قاسياً .

واما روح بن زنباع وكيه في امارة فلسطين ، فقد طرده اهلها وباعوا ابن الزبير .

كان الموقف كما قدمنا يزداد حرجاً واضطراباً ، وابن الزبير يزداد قوة وشأناً، فكان على الامويين المخلصين لبني امية ان يقرروا موقفهم ، وكان عليهم قبل ذلك ان يستوثقوا من الضحاك بن قيس الذي كان من المقربين الى معاوية ومن يزيد ابنه بعده ، والذي كان في الوقت نفسه يسيطر في دمشق على بيت المال ومخازن السلاح وبيت الامارة، وكان كما قدمنا يستغل الموقف لمصلحته الشخصية. عندئذ اخذ حسان بن يجلد يحبس نبض جماعته من بني كلب، فلما استوتق من طاعتهم له واخلاصهم للبدء الاموي ورغبتهم الملحة في ان تظل الخلافة في بني امية وفي آل سفيان بصورة خاصة لهذه المصاهرة التي كانت بين معاوية وبين بني كلب كما قدمنا ، واستوثقوا هم بدورهم منه ان يحببهم هذين الغلامين، عبدالله وخالد ابنا يزيد وقالوا له وهم يحاورونه :

... اتنا نكره ان يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام ...

وفي هذا ما يدل على نفور العرب خصوصاً الذين لا يزالون قريبي عهد بالبداوة منهم .. من تأمير الغلمان وقبول رئاسة الصبيان ..

عندئذ قرر حسان ان يتحدث الى الزعماء بصراحة بشأن الموقف الحاضر .

واما عبيد الله بن زياد فان بعض المؤرخين كأبن سعد مثلاً يذكر لنا فوق ما ذكرناه عنه انه فيما هو في طريقه الى دمشق التقى بمرwan بن الحكم وعمرو الاشدق ، هما في طريقهما الى ابن الزبير فاقنعها بلزوم العودة الى دمشق ، وقد صار اللقاء في (اذرعات) وهي في الواقع بلد يقع على مفرق الطريق بين الشام ومكة ، وبين البصرة والشام ، وهذا يدل طبعاً على بصر ابن سعد بالجغرافيه ، ويدل في الوقت نفسه على ان دليل ابن زياد قد اخذ به في اقصر الطرق واقربها من البصرة الى الشام ، ومن المفروض ان هذا الاجتماع وقع فعلاً قبل ان اخذ مروان بالتصنع والتظاهر بالنسك، ولزوم سارية المسجد في دمشق ... كما ان ابن سعد يقول ايضاً ، انه لما وصل ابن زياد الى دمشق

أخذ يتقرب الى الضحاك ويدعوه الى مبايعة نفسه بدلاً من مبايعة ابن الزبير ليفقده نفوذه في دمشق ، وليرغمه الى ازالة الستار او القناع الذي كان يقيمه فوق وجهه ، فيظهر امام الناس بمظهره الحقيقي .

ولكن دهاء الضحاك كان ابعد غوراً من دهاء ابن زياد ، فلم يؤخذ بالحيلة ، وتولاه الشك من عودة مروان وعمرو الاشدق الى العاصمة .. فاخذ يظن بالجميع الظنون ..

عندئذ رأى حسان بن يحدل من مقره في الاردن ان يستبق الحوادث قبل ان تسبقه فكتب الى الضحاك كتاباً طلب منه ان يقرأه في المسجد بصلاة جامعة ، مذكراً اياه بما افضاه اليه بنو امية من خير وسلطان ، منتقداً فيه مبايعة ابن الزبير وتأيينه وهو الذي ناصب جميع الخلفاء الامويين العمياء ، داعياً الى تأيين بني امية .

فاحس الضحاك بالمكيدة فلم يقرأ الكتاب بعد صلاة الجمعة ، ولكن رسول ابن يحدل كان يحمل نسخة ثانية من الكتاب ، فلما رأى تناقل الضحاك وقف بين الناس وقرأ الكتاب ، فحدثت قراءته ضجة عظيمة في المسجد ، ايده قوم ، وانكره آخرون ، وحدثت مشاحنة ومنازعة بين انصار الامويين وانصار ابن الزبير ، اتخذ الضحاك منها سبباً لاستعمال الشدة .. فقبض على انصار بني امية ، ومن رفع صوته في المسجد عالياً منهم ، وزجهم في السجن فانقذهم بعض انصارهم ، وكان بين الذين صار زجهم في السجن الوليد بن عقبة الذي كان يشارك الضحاك مسؤولية الحكم بامر من معاوية الثاني قبل موته ، والذي كان الضحاك يريد ابعاده والخلص منه .

ويذكر المؤرخون فيما يذكرونه من حديث هذا الاختلاف الذي وقع في المسجد ان خالد بن يزيد بن معاوية تدخل في الامر ، ودعا الناس في المسجد

الى الهدوء والسكينة ونبذ الخلاف والشقاق (١) .
وكذلك ظهر الانقسام بين اهل الشام ظهوراً بارزاً واضحاً ، وفشا في
مختلف الاوساط والجماعات الشعبية ، فمنهم من كان يؤيد ابن الزبير لوثوقه
بنجاحه بعد ان بايعته اكثر الامصار العربية ، ومنهم من ظل موالياً لبني امية
عصبية لهم ، ونكاية بخصومهم واعدائهم .

ومما يلفت النظر في حوادث هذا اليوم ان ابن يجدل طلب من الامويين
حضور المسجد للاستماع الى كتابه ، فحضره بعضهم وتخلف البعض الآخر ،
وكان مروان بن الحكم بين المتخلفين ، فلماذا لم يحضر صلاة الجمعة في المسجد ،
ولماذا لم يظهر بين الامويين الذين رفعوا الصوت عالياً في تأييد ابن يجدل ??
هل يدل هذا على انه كان قليل الامل في نجاح الامويين ؟ ام انه كان يعلم
كره الكلبيين لبني مروان وعدم اهتمامهم بهم ، اذ كانوا يحسبونهم غريباء عن
سورية ، لان بني مروان في الواقع كانوا يقضون اكثر اوقاتهم في الحجاز .. ولا
يزورون دمشق الا نادراً ...

والذي يبدو لنا ان مروان نفسه لم يكن واثقاً من شيء في هذا العهد
المضطرب ، وكان الى ذلك صاحب مصالح واموال في الحجاز فكان يخشى
خسرتها ، كما هدده ابن الزبير بذلك لما علم بمقادرته المدينة الى دمشق ، ثم
انه كما يظهر كان يحاوله التقرب الى العلويين وغير العلويين بعد الفشل الذي
منيت به سياسته في ايام عثمان بن عفان ، وبعد ان اخذ الناس يعتبرونه مسؤولاً
عن الكارثة العثمانية .

واخيراً يظهر لنا انه كان يخشى الثورة الاهلية ، والثورة الاهلية شر عظيم
في نظر الشيوخ ، والشيوخ الى ذلك يفضلون الراحة والدعة على المراك

(١) يسمي المؤرخون هذا اليوم الذي صار فيه الاختلاف بالمسجد (بيوم غيرون)
وغيرون اسم الرقيم يقع بالقرب من الباب الشرقي للمسجد .

والحرب ، إلا ان يكرهوا على ذلك ، ثم ان مروان صرف كل حيانة في الحجاز ، فكان الامويون في دمشق يعتبرونه غريباً عنهم ، وكانت بقية الجماعات لاتعترف بفضله ، وتقابله بكثير من الفتور وعدم الاهتمام ، وهذا كله كان يجعله في كثير من الاحايين - وامام هذه الاختلافات العظيمة القائمة في دمشق - على التطلع الى ابن الزبير الذي كان نجمه يزداد تألقاً وسلطانه يعظم قوة ومثانة ..

وإذا فلا يجب ان نعجب اذا رأيناه يركب جملة فعلاً في طريقه الى الحجاز . حيث التقى بعبيد الله بن زياد في (اذرعات) فرده هذا الى دمشق ، ونفخ فيه روحاً جديدة جعلت منه رجلاً جديداً متأهباً لكل طارئ ، داعياً الى نفسه بالحيلة ، والتظاهر بالتقوى والصلاح ..

عبيد الله بن زياد :

وكان نزول عبيد الله بن زياد الى دمشق بعد كل الحوادث التي ذكرناها بدء عهد جديد ، فقد فطن عبيد الله الى ان الناس لا يدينون بالخلافة والطاعة لصبي من بني امية ، وادار نظره حوله فلم يجد غير مروان بن الحكم شيخ بني امية وكبيرهم ، والذي لم تكن له عصبية في سورية كعصبية عمرو الاشدق مثلاً تلتف حوله ، وتستولى على كل المناصب والاموال ، ثم ان ابن زياد كان يريد العمل لشخص يحفظ له هذا الصنيع ، ويقرب به اليه بعد نجاحه ، ويعتبره سبب شهرته وظهوره ، وهذه النظرية كانت نظرية اليمينية ايضاً ، فقد كانوا مثل ابن زياد يريدون الالتفاف حول شخص يظهر بهم ، ويقوم على سواعدهم ، ويكون مديوناً لهم بعرضه وخلافته .

وكذلك يتبدل الموقف السياسي تبديلاً خطيراً بظهور عبيد الله بن زياد في دمشق ، وكان ابن زياد كما يظهر لنا ، وبعد ان التقى بمروان بن الحكم في طريقه الى ابن الزبير ، قد بحث الموقف السياسي من جميع اطرافه ، وادار

رأسه في مختلف وجوهه فوجد ان الحياة لن تستقيم له مع غير بني امية ،
وانهم وحدهم الذين يقدرونه ويملون مواهبه ، ويذكرون خدماته وخدمات
والده في سبيل سلطانهم وتوطيد ملكهم ، كما ظهر له من اختلاف اهل الشام
فيما بينهم صعوبة حملهم على البيعة لابناء يزيد ، وكلهم صغير ، والعرب لا ترضى
بالامراء الاطفال .

فاجال عندئذ نظره في رجال امية ، فلم يجد بينهم غير مروان بن الحكم
فاعتمد الانضمام اليه وتأييده ، واكتساب عطفه ومودته ، وقتقت له الحيلة
رأياً يوفق به بين الخصوم ، ويجمع بين القلوب المتنافرة ، فقرر ان يدعو
لمروان بن الحكم ولخالد بالخلافة من بعده ، ومروان رجل شيخ ، لا يلبث ان
يذهب الى ربه ، ويكون خالد قد بلغ اشده ، واستوى شاباً يافعاً ، فلا يعود
هناك سبب لانكار العرب بيعته ، وتهريبهم منها ، فيجتمع بين انصار خالد
وجاعة مروان ، ويوحد في الوقت نفسه بين صفوف الجميع من امية وانصار
امية ، امام هذا الخطر الداهم الذي سيذهب بسطانهم اذا ظلوا على تنافرهم
وخصوماتهم ..

ويحدثنا المؤرخون كيف راح عبيدالله بن زياد ، بعد ان وصل الى دمشق
ودرس الحالة السياسية فيها ، واستقر رأيه على العمل لمروان .. يعاتب مروان
ويقول له :

– لقد استحييت لك مما تريد ، وانت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنع ..

فقال مروان وقد امتلأ قلبه أملاً :

– ما فات شيء ... ما فات شيء .

ثم عطف مروان فسأل عبيدالله قائلاً :

– تطلب مني ان ارشح نفسي للخلافة ، وما نصنع بخالد بن يزيد ، وعمرو

بن سعيد الاشدق ؟

فقال عبيدالله : ليس اسهل من تسوية الامر ، انا المسؤول عن قبول بني امية لخلافتك ومبايعتك ، واما خالد وعمرو بن سعيد ، فتمهد لهما بالخلافة من بعدك فيزول بذلك كل اختلاف ، وانصحك في الوقت نفسه ان تزوج ام خالد بن يزيد ، فتكسب بذلك عطف ابن يمدل والكليين وتأييدهم .

ويظهر ان ابن زياد تمكن من اقناع عمرو بن سعيد الاشدق بصحة نظريته هذه وفائدتها للجميع ، فايد الاشدق مروان ، ووعدته بتأييد اليمينية من انصاره .

وكذلك وفق ابن زياد الى تهدئة موفقة موقنة ، وتسوية مقبولة للاضطراب السيامي الذي كان قد ملك على الناس عقولهم وعواطفهم ، وتمكن بدهائه من اكتساب عطف اليمينية انصار عمرو بن سعيد الى بيعة مروان ، كما وفق في الوقت نفسه الى اكتساب عطف بني كلب للبيعة نفسها ، ولا يستبعد كما يقول بعض المؤرخين ان يكون مروان قد ذهب في هذه الاثناء الى تدمر حيث اتصل ببعض الكليين فيها ، فوعدوه بالمساعدة والنصرة .

واحس الضحاك بتبدل الرأي العام في دمشق ، واتحاد بني امية مع مروان بن الحكم ، واجتماعهم عليه ، فخشى العاقبة ، خصوصاً بعد حوادث المسجد ، وتعرض احد بني كلب له بعصاه ، واقتتال انصاره والكليين ، بسبب ذلك ، فبعث الى بني امية يعتذر لهم ، وانه لا يريد ما يكرهون ، وامرهم ان يكتبوا الى حسان بن يمدل ... فليقدم علينا ليصار الى الاتفاق بين الجميع في مكان هو (الجابية) ... حيث يبايع فيه للرجل الذي يصار الى اختياره من بني امية .

فرضي بنو امية واتباعهم وانصارهم ، وكتبوا الى حسان بن يمدل في الامر وسار الضحاك وبنو امية الى الجابية .

ولكن الضحاك عاد فعدل عن الذهاب الى الجابية وهو في طريقه اليها ،

وسبب ذلك ان انصاره انكروا عليه هذا التقلب في موقفه وقالوا له :
- كنت تؤيد ابن الزبير وتطلب منا ذلك ، والآن تذهب بنا الى تأييد
هذا الاعرابي من كلب - يريدون حسان بن مجدل - تستخلف ابن اخته خالد
بن يزيد ..

فقال الضحاك : فما الرأي ؟

قالوا : الرأي ان تظهر ما كنا نكتم .. وتدعو الى ابن الزبير .
فانحاز الضحاك الى رأي جماعته ، وانقلب عن الجابية الى مرج راهط ،
وكانت دمشق لا تزال بيده .

الافتقار في الجابية

ومعركة مرج راهط

في الجابية :

وكذلك يظهر لنا ان الضحاك بن قيس لم يكن قد استقر رأيه على امر بشأن البيعة حتى الان ، فقد كان يؤيد بن الزبير لان ابن الزبير كان اقرب الى الخلافة من غيره ، بعد ان دانت له اكثر الامصار العربية ، ولكنه لم يكن يجرأ على الدعوة لابن الزبير ، وان كان هواه معه ، في وسط مضطرب تآثر كدمشق ، فكظم ما بقلبه واخذ يراوغ ويتحايل للوصول الى غرضه ، حتى اكرمه اصحابه على اظهار رأيه ، والدعوة لابن الزبير .
وكان انصار الامويين قد اجتمعوا في الجابية^(١) يتشاورون ويقلبون وجوه الرأي فيما بينهم ، وهم ينتظرون قدوم الضحاك الذي لم يحضر اليهم والذي عاد

(١) لم تكن الجابية بلداً وانما كانت عاصمة القسطنطينية في الماضي ، وكانت في هذه الفترة عبارة عن منازل الامراء من آل غسان

ادراجه بعد خروجه من دمشق ، واستقر مع انصاره في شمالي الغوطة ، ينتظر نتيجة مؤتمر الجابية .

الضحاك:

ولكن المكان الذي نزله الضحاك لم يكن بالمكان الذي يحسن النزول فيه من الوجة العسكرية ، ولو انه نزل جنوبي دمشق لكان موقفه احسن حالاً وكان باستطاعته مراقبة المدينة ، ومراقبة ما يجري في الجابية ، لانه في الواقع لم يكن يخشى شيئاً من الجهة الشمالية ، فقد كان جنود قنسرين وحمص يناصرونه ويؤيدونه .

وعلى ذلك فقد نزل الضحاك في مرج الصقر اولاً ، واخذ يستعد كما يظهر للمراك المقبل الذي كان يعتقد انه اصبح قريباً ، وان نتائجه الاولى ستظهر بعد مقررات الجابية ، وفي المصادر التي بين ايدينا ما يؤيد انه الى هذا المكان صار ارسال النجيدات الى الضحاك من انصاره في قنسرين وحمص وغيرهما من الامصار .

والضحاك في الواقع كان يعمل لنفسه اولاً واخيراً كما يظهر ، وكان يراوغ ابن الزبير وابن الزبير يراوغه ، لان هناك ما يدل على ان ابن الزبير لما عرف بموته ، لم يأسف على فقدته ، وتكلم كلاماً يستدل منه على ان الضحاك في نظره كان يعمل لمسلحته وكان يروم امرأ فوق طاقته ..

ثم ان الضحاك نفسه كان يؤمن كما يظهر بعدم نجاح ابن الزبير في دمشق وما حولها ، وكان يعتقد ان السوريين سيحاربون ابن الزبير حتى النهاية وانهم لن يرضوا ابدأ بانتقال الخلافة من دمشق الى مكة ، ثم ان ابناء الضحاك وحفدته من بعده كانوا يتنكرون دائماً ان يكون الضحاك قد عمل لابن الزبير ، وكانوا يقولون انه كان يعمل ابدأ لنفسه .

ويذكر لنا ابو تمام في نقائض جرير والاخلطل ، انه لما نزل الضحاك في
المرج قال له اصحابه :

- غاب ابن الزبير واختلفت امية ، وانت شيخ قريش فلو دعوت
الى نفسك ؟

قال : ويحكم لا تدعنا بنوقصى .. ولا سيما بنو امية ..

فقالوا : ما انت بدون الرجلين ابن الزبير ومروان .

فلم يزالوا به حتى دعا الى نفسه والناس يومئذ يضطربون في هوايين زبيري
ويجدلي ، اي من انصار ابن يجدل .

فاذا كانت المصادر التي بين ايدينا صحيحة ، فانه استطاع القول عندئذ
بان الضحاك لم يرشح نفسه للخلافة الا بعد ان دعاه القيسيون الى ذلك نكايه
ببني كلب الذين كانوا يرشحون نسيبهم الاموي ، ولان ابن الزبير كان بعيداً
جداً، ولم يظهر الضحاك ترشيحه الا في الوقت الذي كان الامويون فيه يعقدون
مؤتمراً في الجابية ، اي في الساعة الاخيرة .

الامويون في الجابية :

اما الامويون في الجابية فقد راحوا يبحثون موقفهم بعد تناقل الضحاك
عن اللحاق بهم ، وكان حسان بن يجدل يصلي بالناس ، لم يراحمه احد منهم
على هذا المركز الرفيع الذي كان خاصاً بالزعيم الكبير ، وسبب ذلك مكانته
في بني كلب، وقربته للعائلة المالكة، وقد ظلوا على حالهم هذا اربعين يوماً ..

ولم يكن عبيدالله بن زياد بين القوم في الجابية ، ذلك ان لم يكن ممن
اشراف الشام الذين بيدم الحل والعقد، ولا كانت له عصبية يستطيع بواسطتها
ان يفرض سلطانه على الجماهير فظل في الشام يرتقب الحوادث ، حتى حانت

له فرصة خدم بها مروان اجلّ خدمة كما سنرى .

والظاهر ان القوم في الجابية ، لما ابصروا تناقل الضحاك عن اللحاق بهم ، ونزوله مع بني قيس في مرج الصفر قد ادركوا ان الحرب بينهم وبين القيسيين من انصار الضحاك واقعة لا عمالة ، فكان من المفروض عليهم والحالة هذه ان يجاموا ابن يجدل الذي كان وحده بينهم ينعم بقوة عسكرية تمده بها بنو كلب ، القبيلة القوية الشديدة المراس .

ويبدو لنا انه لما نزل القوم في الجابية او اخر رمضان من سنة ٤٦ للهجرة ، لم يكن الكلبيون قد اتفقوا على مرران بن الحكم ، وانما كانوا لا يزالون يقولون ببيعة خالد بن يزيد ، واما التسوية التي وضعها عبيد الله بن زياد فلم تصادف هوى في نفوسهم ، ويذهب ابو تمام في نقائض جرير والاخلط ، الى ان بني كلب اخذوا يفكرون في فترة من الزمن ، وبعد وفاة معاوية الثاني ، ونظراً لصغر سن خالد بن يزيد ، في تأييد حسان بن يجدل نفسه ، وترشيحه للخلافة .. ويقول ابو تمام : لما مات معاوية الثاني ادعى حسان بن مالك بن يجدل الخلافة لنفسه ، وكان خال يزيد وهو اخو ميسون بنت مالك بن يجدل ام يزيد ، فكث يدعو لنفسه اياماً ، ثم اسلمها الى بني امية ، فقال قومه من كلب :

.. ماله اخزاه الله لم ير نفسه ولا قومه لها اهلاً ..

ولم يكن بين القوم والحالة هذه اتفاق تام على كل شيء ، وانما كانوا متفقين فقط على امر واحد ، وهو الاحتفاظ بالخلافة في سورية ، وكذلك كانوا متفقين ايضاً على ان يحصلوا من الخليفة المقبل على كل ما يمكن الحصول عليه منه من الامتيازات والاموال .

والظاهر ان القوم في الجابية بحثوا مسألة الخلافة واسماء المرشحين للخلافة فيما بينهم عند نزولهم الى الجابية ، وكان اسم ابن عمر بن الخطاب يردده كثيرون منهم ، فيشيرون مثلاً الى موقفه المعتدل البعيد عن الحزبية في كل

الثورات الداخلية المنصرمة، ثم يمرضون الى علمه وفضله وشهرته كفقير كبير،
والى اسم والده الشهير الذي كان يسيطر على الامبراطورية من ادناها الى
اقصاها .

ويظهر ايضاً ان الجماعة في الجابية ذكروا اسم ابن الزبير ايضاً كأحد
المرشحين، ولو كان ابن الزبير وجنده بينهم لتبدل الموقف حتماً ، ولتمكن من
انتزاع الخلافة قبل غيره من المرشحين ، ولكنه كان بعيداً ، وقد ابى الاستماع
الى نصيحة الحصين بن نمير بالقدوم الى دمشق.. ولو فعل لكان خليفة المسلمين على
الارجح ..

ويقول ابن عساکر : ان جماعة ابن يحدل كانوا في اثناء الاجتماع يلقبونه
بالخليفة ، ولكن ترشيحه لم يصادف تأييداً عاماً ، وعارضه اليمينيون كما يظهر
معارضة شديدة ، ويظهر لنا ان ترشيح حسان بن يحدل هو الذي حمل رجال
المؤتمر في الجابية على التفكير في قريش تهريباً من الوقوع تحت سلطان بني كلب،
ولما فكروا في قريش فكروا في بني امية ، وفكروا طبعاً في ابناء يزيد بن
معاوية ، ولما كان هؤلاء يمتون الى حسان بن يحدل بصلة من النسب ، فقد
تركهم الى مروان بن الحكم .

ولما احسن الكلبيون بان حظهم او حظ زعيمهم من الخلافة ضعيف جداً
قال شاعرهم :

فإلا يكن منا الخليفة نفسه فما ناهها إلا ونحن شهود

وفي احد ايام الجابية قال مالك بن هبيرة يخاطب مروان :

- انه ليست لك في اعناقنا بيعة، ولسنا نقاتل عن عرض ودينيا، فان تكن
لنا على ما كان لنا من معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فوالله ما
قريش عندنا إلا سواء .

واشترط حسان بن مالك على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية

وابنه يزيد ، وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها ان يفرض لهم لافي رجل الفين الفين ، وان يكون لهم الامر والنهي وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد ، فمن رأي منهم ومشورة .

فرضي مروان بكل هذه الشروط ، وكان مالك بن هبيرة يمثل اليمنية ، وحسان بن مالك بن يحدل يمثل الكلبية ، ومعنى هذا ان الرجلان طلبا من مروان واشترطا عليه ان يقدم اهل اليمن من العرب .. على بني قيس من عرب الشمال .

وكان مالك بن هبيرة قد تحدث الى حصين بن نمير بشأنبيعة خالد بن يزيد، ثقة من مالك بان ولاية هذا الشاب ستمكن لليمنية في الشام، فيسيطرون على كل شيء ، ولكن حصين بن نمير قال له :

لا والله إلا مروان ، لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم؛ بصبي ...

فرد عليه مالك ان مروان وآل مروان اهل بيت من قيس ، وهم اهل بيت قد قاسوا قسوة الحجاز وشدته، والله لئن ملكوا ليحسدنك نقاء ثوبيك وجلاز سوطك .. وظل شجرة تستظل تحتها .

فقال له حصين : دعنا عنك .. اني والله لا اؤمر الصبيان ..

والواقع ان هناك جماعة من زعماء اهل الشام ، ومالك بن هبيرة منهم كانوا يخشون مروان وشدته ، ذلك انه لما كان والياً على الحجاز اظهر شدة عظيمة في اثناء حكمه ..

روح بن زنباع :

ولكن الذي اتقذ الموقف حقيقة هو روح بن زنباع الذي ولاه حسان بن يحدل على فلسطين مكانه ، ثم طرده اهلها ، ويايعوا ابن الزبير ، فان هذا الرجل النابه الخطيب ، جاء الى الجابية ومعه جماعة من قومه ، فخطب في

الناس خطبة عرض فيه لابن عمر وصلاحه وتقواه ، وكيف انه رجل شغلته العبادة ، ولا يصلح للخلافة ، ثم عرض لابن الزبير ونسبه الكريم وصلاته وتقواه ، ثم ذكر بخله وكيف ان مثله لا يصلح للحكم ، خصوصاً بعد ان حارب الخلفاء ، ومزق المسلمين ، ولما اتى على ذكر مروان امتدحه وذكر كيف انه ضحى بنفسه يوم الدار في سبيل عثمان ، وكيف حارب علياً يوم الجمل ، وكيف انه اليوم شيخ بني امية وهو اصلح من سواه للحكم والخلافة ، وافضل من ترشيح فتى للخلافة لم تظهر له تجرية ، ولا كانت له سابقة في حكم ولا ادارة ..

تلقى المجتمعون خصوصاً انصار روح بن زنباع كلام روح بالتصفيق والتأييد ، فلم يبق امام الزعماء والحالة هذه الا الاعتراف بالامر الواقع ، والاتفاق مع مروان بن الحكم على الامتيازات التي يطلبها كل منهم ، والتي اشرنا اليها في مكان آخر من هذا الفصل ، وكذلك استقر الرأي بعد اجتماع دام اربعين يوماً على المبايعة لمروان بن الحكم ثم لخالد بن يزيد ثم لعمر بن سعيد العاص ، وانتهى المؤتمر في الثالث من ذي القعدة سنة ٤٦ هجرية ، ٢٢ حزيران ٦٨٤ ، وبهذه الطريقة صار ارضاء جميع الذين يتطلعون للخلافة ، ومن ثم اتحدت كلمة اليمينية من بني كلب .

ولكن الاعتراف رسمياً بخلافة مروان لم يحصل الا بعد شهرين من هذا التاريخ ، وفي شهر محرم سنة ٦٥ للهجرة .

ويظهر ان مروان وعد ابن يجدل ليس فقط في ان يكون خالد بن يزيد ولياً للعهد بعده ، وانما بان يعهد اليه بولاية حمص ايضاً ، كما اشترط ابن يجدل ايضاً بانه اذا مات هو ، قام ابنه او ابن عمه مكانه ، ونعم بالشرف والاموال التي كان يتمتع بها حسان بن يجدل قبلاً .. اما عمرو بن سعيد الاشدق فقد طلب ولاية الشام حالاً ، ثم الخلافة بعد خالد كما قدمنا ..

ولكن هذا الاتفاق الذي بسطنا تفاصيله ، والذي تمّ بعد صعوبات وشروط كثيرة ، كان سبباً كبيراً في تمزق الوحدة العربية ، اذ جعل الخلاف امراً واقعاً بين اليمنية والقيسية ، هذا الخلاف الذي كان سبباً من اسباب انهيار الدولة الاموية بعد ذلك .

معركة موج واهط :

بينما كان الامويون في مؤتمر الجابية يقررون مصيرهم ، كان الضحّاك بن قيس وجماعة من بني قيس يستعدون للكفاح المقبل ، كما بعث الضحّاك يستنفر احلافه من الزبيريين في حمص وفلسطين وقنسرين ويطلب منهم ان يمدوه بالسلاح والرجال ، فوجه اليه نائل بن قيس الجذامي ابنه في الفين من اهل فلسطين ، ووجه اليه النعمان بن بشير الفين من اهل حمص ، وامتدّه زفر بن الحرث بالفين ايضاً ، واختلف المؤرخون في عدد جيش الضحّاك فقال ابن عبد ربه في العقد الفريد : انه كان في ستين الفا ، وهذا العدد مبالغ به كما يظهر ، واما ابن سعد فيقول : انه كان في ثلاثين الفا ، واما مروان بن الحكم فكان في ثلاثة عشر الفا . وكان اكثر جند مروان من بني كلب ، ومن بعض العناصر المؤيدة لبني امية من اهل الاردن ، ومن بني كندة وتنوخ وطبي ، وبني تغلب وبعض الغساسنة .

ولقد اخطأ الضحّاك خطأ عظيماً في اخلائه دمشق من كل حامية للمحافظة عليها وكان عبيدالله بن زياد لا يزال فيها ، والظاهر انه لما عرف بمقررات الجابية اثار الناس على عامل الضحّاك وتمكن من طرده من العاصمة واستولى عليها واخذ يمد مروان بن الحكم بالجند والسلاح والاموال^(١) .

وعندئذ وجد الضحّاك نفسه في مركز صعب ، فاضطر الى مغادرة مرج الصقر حتى لا يقع بين نارين ، نار خصومه في دمشق ، ونار جند مروان بن الحكم الذي كان يتقدم نحوه من حوران ، فنزل في مرج راهط حيث صار

(١) جاء في تاريخ ابن الاثير ان الذي فعل ذلك غيره ..

بإمكانه الاتصال مع انصاره الزبيريين في قنسرين وحصص .
ويظهر لنا انه وقع بين الضحاك وجماعة مروان مناوشة فشل فيها الضحاك
قبل مرج راهط ، وتغنى بها الاخطل في شعره ، وذكرها غيره من الشعراء الذين
تغنوا بانتصارات اليمينية على القيسية .

ولما اتصل الجيشان في مرج راهط على اميال من دمشق بدأت الحرب سجالات
بين الفريقين ، والمفروض انها بدأت بالمبارزات الفردية كما هي عادة العرب ،
ثم حدثت الواقعة الكبرى التي دامت يومين (١) وانتهت بهزيمة الضحاك وجنده
هزيمة منكرة ، وبسقوط الضحاك نفسه في المعركة قتيلًا ، وسقوط ثمانين من
اشراف القيسيين الذين كانوا يتناولون العطاء ، وكانت الهزيمة شنيعة على القيسيين
بحيث ان أحداً بعد هذه المعركة منهم لم تعد تظهر الابتسامة على وجهه ،
لكثرة من سقط من قيس قتيلًا او جريحًا ، ولاغراق الكلبيين واحلافهم في
القتل والتفطيع بهم .

اما قتلى القيسية فيقول ابو تمام في نقائض جرير والاختل انهم يعدون
تسعة آلاف .. ومن اليمن انصار مروان بن الحكم الف وثلاثمائة ، واما بقية
المؤرخين فيرون ان هذا الرقم مبالغه منكرة ، لان ابن عساكر لا يذكر من
قتلى القيسية غير ثلاثة آلاف ، وغيره يقول اقل من ذلك ..
وكان بين انصار الضحاك جماعة من اليمينية ، ولكن القتلى فيهم كانوا قليلي العدد
لان رجال مروان من اهل اليمن لم يصبوا سيوفهم ورماسهم إلا الى بني
قيس فقط ، ولما انتهت المعركة بسقوط الضحاك وانهم انصاره امر مروان
جنده بان لا يتبعوا المنهزمين حقناً للدماء ، وخوفاً من النتائج المنكرة التي قد
يسفر عنها مثل هذا الاغراق في السفك بين قيس وبين .

ولما وضعوا امام مروان رأس الضحاك بن قيس ظهر الاضطراب على وجهه

(١) كما يؤكد الاخطل في شعره (يوما راهط)

واسف لهذه المعركة التي افنت دماء انصاره وخصومه وهو في اواخر ايامه ، بحيث اضطر ابنه عبد العزيز الى التدخل ، ونصحه بضبط عواطفه تقوية لمعنويات انصاره .

ومن المؤكد ان امم حادث في هذه المعركة كان موت الضحاك بن قيس الذي كان من الاشخاص الاوائل الذين خدموا امية في انشاء هذا الملك ، وكانوا من القلائل المقربين لدى معاوية ويزيد ابنه ، وقد هلك الضحاك وهو في الستين من العمر على الاكثر والارجح ، وابن حنبل يعده من الصحابة .

ولقد كان من اثر هذا الصراع بين القبائل الجنوبية والشمالية في مرج راهط ان امتد الى اكثر الامصار الغربية ، وكذلك اذكت هذه الموقعة (مرج راهط) نار العصبية من جديد ليس في الشام فقط ، بل في سائر الولايات الاسلامية ، وخاصة في خراسان ، فظهر العداء بين اليمينية والمضرية في صورة نزاع متواصل بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، وامتد لهيب العصبية الى اقاصي البلاد التي وصلت اليها الفتوح العربية ..

مروان وبني كلب :

ومن المؤكد اليوم وقد تمّ لمروان بن الحكم الانتصار على الضحاك بن قيس وانصاره بواسطة سيوف الكلبيين وانصارهم ، ان يستقر في اعماق قلبه بانه قد اصبح اسير هذه القبيلة التي لم تؤيده الا بعد ان فرضت عليه شروطاً ثقيلة ، كان من الصعب عليه اقرارها ، دون التعرض لمخاطر عظيمة اهمها ان يظل قسم من العرب ناقماً على سياسته ينتظر الفرصة للاخذ بالثأر وشق عصا الطاعة . وزاد الموقف حرجاً ان الكلبيين راحوا يستغلون الموقعة استفلاً قبيحاً ، فعدوا وانتصارهم يوماً من ايام العرب في الجاهلية ، وقالوا الاشعار يفتخرون بانتصارهم ويعيرون القيسيين باخذاهم ، وقيس لم تكن قبيلة حقيرة ، وانما كانت قبيلة عظيمة ، ووراءها كل قبائل الشمال تؤيدها وتناصرها ضد عرب الجنوب الذين كان الكلبيون منهم .

ومن المفروض في كل سلطان جديد ان يعمل على تهدئة الخواطر لا على اثارها وتقويتها ، لأن في الاولى سلامة ملكه ، وفي الثانية تعرض هذا الملك لاشد انواع المخاطر وارذل المفاسد .

ومن المؤكد ان هذا الشعر ، وهذه الامتيازات التي اخذ يطالب بها الكليبيون من اهل اليمن ، وهذا الفرور الذي تجلى في وجه كل منهم ، وظهر في اقوالهم واشعارهم ، بأنه لولاهم ولولا سيوفهم لما قامت لمروان قائمة ، ولا حصل على الخلافة ، قد اثار حنق مروان وعائلته ، اذ جعلهم في مركز حرج ، ووضعية دقيقة ، لان معركة مرج راهط اذا كانت قد مكنتهم من الملك ، فهي في الوقت نفسه قد اثارت حفيظة القبائل العربية كأشد ما كانت عليه في ايام الجاهلية ، وهذه حالة لا تبشر بخير ، ولا يستقيم معها معك ، ولا ينتظم سلطان ، خصوصاً ومروان كان لا يزال بحاجة الى الانصار يقاوم بهم عدوه ابن الزبير . الذي كان لا يزال يسيطر على اكثر امصار الدولة العربية .

ومروان مع اخطائه السالفة يوم كان كاتباً لعثمان بن عفان لم يكن بالرجل الذي يجهل مثل هذا الخطر الذي يهدده ويهدد عائلته اذا ظلت هذه العداوة قائمة بين القبائل العربية ، ولعل هذا من الاسباب التي حملته بعد انتهاء المعركة على امر انصاره بعدم مطاردة المنهزمين حقناً للدماء ، وصلة للرحم ، ومحاولة اولى لوصل ما انقطع بين القبائل .

والواقع ان الكليبيين قد اغرقوا في التدليل على انتصاراتهم ، والاشارة الى قوتهم ، والاشادة بسيوفهم ، ولا ادل على ذلك من هذا الشعر الذي هو واحد من كثير من مثله .

قال جواس الكليبي :

كم من امير قبل مروان وابنه كشفنا غطاء الموت عنه فابصرا
اذا فاخر القيسي فاذا ذكر بلاه برزاعة الضعك شرقي جوبرا

وفي هذا البيت تعريض قبيح بانكسار قيس في معركة مرج راهط ، لان (جوير) قرية في الغوطة تبعد نحو ساعة عن دمشق في الشرق الشبالي ، ويسكنها في ايامنا بعض اليهود .

وهذا الشعر وغيره كان مما يسيء الى مروان واهله ، لان المروانيين في الواقع لم يكونوا اصحاب علاقات قوية في سورية ، ولا كانت لهم اتصالات وصدقات مع اجزائها ، واذا نزلوا سورية مرة فقد كانوا ينزلونها مطرودين من المدينة ، حتى ان الكلبيين في اول الامر كانوا يقولون انهم من القيسيين ، ويعتبرونهم من اعدائهم ..

ولما اتصل المروانيون بالشام للمرة الاخيرة ، غرم شعور من الالم والغضب ، لما شاهدوه في الجابية من الوان التزاحم على المصالح الخاصة والاغراض الشخصية ، وانكروا موقف الزعماء منهم ، وكيف انهم لم يؤيدوه الا بعد ان اخذوا منهم العهود والمواثيق على ان يدفعوا لهم ثمن هذا التأيد ، خصوصا عرب اليمن الذين فرضوا سلطانهم على المروانيين ، وما ناصرهم إلا بعد ان وعدم هؤلاء بأن يقدموهم على غيرهم من قبائل العرب في الديوان والادارة والعطاء والقيادات والولايات ..

حفظ التوازن :

ولذلك كانت سياسة المروانيين في الايام المقبلة العمل على اقامة التوازن بين القبائل العربية ، ولحفظ هذا التوازن اضطر الخلفاء الى تأييد عرب الشمال تارة وعرب الجنوب تارة اخرى ، بخلاف سياسة عبد الملك بن مروان الذي كان من سياسته حفظ التوازن ، دون تقديم جماعة على جماعة ، وهذه السياسة التي كان سببها مرج راهط ، كانت من الاسباب التي عجلت في انهيار امية كما سترى في كتابنا (الايام الاخيرة للدولة الاموية) .

ويبدو لنا ان معركة مرج راهط وقعت في شهر تموز من سنة ٦٨٥ ميلادية ،

وفي شهر آب من السنة نفسها كان مروان بن الحكم في دمشق ، (محرم ٦٥ هـ) حيث بويع له بالخلافة رسمياً ، بعد ان القى الخطبة المقررة في مثل هذه الاحوال في مسجد دمشق .

ومن المؤكد انه تزوج بعد البيعة بفاطمة ام خالد بن يزيد ، وكان غرضه من هذا الزواج توثيق الاواصر بينه وبين البيت الاموي المالك السابق من آل ابي سفيان ، واما القول بانه فعل ذلك ادلالاً لخالد بن يزيد ، فقول فيه نظر .
ويظهر مروان بن الحكم اخذ الناس يقتاسون مع الايام آل ابي سفيان ، ويتحدثون عن بني مروان ، كما ظهر في الوقت نفسه على مسرح السياسة الاموية عدد جديد من الموظفين ، مثل حصين بن نمير ، وروح بن زنباع ، وسفيان بن الابرذ ، وعبيدالله بن زياد الذي قتل في العراق بعد ذلك بقليل ، كما احتفظ مروان بابن سرغون النصراني في المالية ، وكان من الموظفين في العهد السابق .

مروان بن الحكم

خلافته ونهايته

خطا عبدالله بن الزبير

اشتهر مروان بن الحكم بين بني اميه ، بانه من اصحاب الرأي والفصاحة ولا ندرى كيف يكون من اصحاب الرأي وقد اودي بعثمان رضي الله عنه ، على ما بسطناه في كتابنا « عثمان بن عفان » ، وكيف يكون من اصحاب السياسة وقد مزق العرب في عهده ، وكان لارائه اكبر الاثر في تعجيل الفتنة وتمزيق العربية ...

هذا هو الرأي الحق فيه ، فان ذهب قوم يتلطفون في التأريخ له ، والاعتذار لسياسته فهذا شأنهم ، ولكن ما لدينا من المصادر التاريخية التي تنفض لنا اخباره ، وتروي اعماله ، وتحدثنا عن سياسته لا يدل على بعد رأي ، ودقة نظر ، وحسن تصريف للامور ومختلف السياسات .

والواقع انه ليس يهمننا ان نعرض لمروان وما عمل وما اقترح إلا على قدر ، فقد قاتل علياً في معركة الجمل ، ورفع السيف في وجهه ، وكان علي خليفة المسلمين ، رضي مروان ام انكر ، وكان من حق مروان اذ كان من اصحاب

الرأي حقاً ان يعلم ان مثل هذا العمل ممزق للوحدة الاسلامية ، وانسه نذير
بفتنة لا يعلم الا الله ما يكون مصيرها على العرب والاسلام .

وتمضي الايام في سبيلها وينتقل علي الى ربه ، ويتولى معاوية الخلافة ، فيقبع
مروان في داره ، لا يحرك ساكناً إلا ان يكلفه معاوية عملاً كولاية المدينة
مثلاً حتى وفاة يزيد بن معاوية ، ومقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ،
فيأخذ عندئذ عبدالله بن الزبير بني امية بالشدة ، بعد ان استقل بالحجاز
والعراق ، وينذرهم بالخروج من الحجاز الى الشام ، فيغادر مروان الحجاز الى
دمشق ، ويأتيها في فرصة موفقة حقاً ، وحين يكون القوم فيها على اختلاف
فيمن يولونه الخلافة من بني امية ، وكذلك يكون عبد الله بن الزبير قد جعل
مرواناً خليفة ، ومكنه من الملك والسلطان ، واعطاه الجند والسلاح ،
يحاربه به ويستلب الملك منه .

وكذلك يشأ القدر ان يخطيء عبدالله بن الزبير هذه الخطيئة التي اودت
بملكه ؛ فلولاً اخراجه مروان واهله من المدينة ، لما آلت الخلافة الى مروان
وولده ، ولظل اهل الشام يختلفون فيما بينهم هذا الاختلاف المفجع الذي
مزقهم ، واثار حفيظة كل جماعة منهم على الاخرى ..

والواقع انه لو كان عبدالله ابن الزبير بعيد النظر ، صادق الرأي لاحتبس
مروان بن الحكم عنده ، حتى يستقيم ملكه ، وتتوطد بيعته ، ولكنه دفع
عن خطاه هذا غالباً وضحى نفسه وملكه ..

فجاح مروان

من المؤكد ان معركة (مرج راهط) .. مكنت مرواناً من الحكم
والسلطان ، فبمقتل الضحاك وانصاره استتب الامر لسلطان مروان في سورية
كلها ، وبايعه جند قنسرين بعد المعركة ، وكان على قنسرين زفر بن الحارث
فلما بلغته الهزيمة هرب فلاحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها ، واجتمعت

اليه قيس، وقد صحبه في هزيمته شابان من بني ثميم، فلما جاءت خيل مروان في طلبه، قال الشابان لزفر:

— انج بنفسك، فانا نرد عنك الخيل.

فمضى وتركها فقتلا.. وقال زفر في ذلك ابياتاً تعد من اروع الشعر العربي^(١) كما انها تمثل في الوقت نفسه هذا الحقد الذي اخذ يغمر كل قيسي ضد كلب واحلافها.

ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير وهو في حمص، فرّ هارباً، فقبه بعض اهلها وقتلوه، وبايعت حمص لمروان ونزلت تحت سلطانه.

ودخل مروان الشام في يوم رائع، واستقبله الامويون من انصاره واحلافهم استقبالا رائعا في طريقه الى قصر الحضرة، ابتهاجاً بنجاحهم وفوزهم، واشتركت في هذا الاستقبال جميع عناصر المدينة التي كانت تحرص كل الحرص على ان تظل دمشق عاصمة العربية وموطن الحضارة الاسلامية^(٢).

ارى الحرب لا تزداد الا تماديا	(١) اربني لابي لا اهلك اني
مقيد دمي اوقطع من لسانيا	اناني عن مروان بالقيب انه
اذا نحن رفعنا لمن المباييا	ففي العيس منجاة وفي الارض هرب
ولا تفرحوا ان جشتم بلفانيا	فلا تحسبوني ان تقيت غافلا
وتبقى حزازات النفوس كما هيا	فقد ينبت المرعى على دمن الثرى
لحان صدعا بيننا متباييا	لعمري لقد اوقت وقية راط
بصالح ايامي وحسن بلائيا	ايذهب يوم واحد ان اسائه
وتثار من نوان كلب نسايا	فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا

(٢) مروان بن الحكم بن ابي العاصي بن امية، وامه آمنة بنت علقمة بن صفون الكناني، ولد في السنة الثانية للهجرة، واسلم ابوه الحكم يوم الفتح، فنشأ مروان مسلماً، وكان في عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومديراً لادارته، ولي لمعاوية المدينة غير مرة، ولما مات يزيد اوشك ان يذهب الى ابن الزبير ليبايعه لولا عبيد الله بن زياد الذي نصحه ان يطلب الخلافة لنفسه لانه شيخ بني امية، فاستشرق للرأي ووجد من ينصره على ذلك. وتم له الامر بعد موقعة «مرج راط» وكان امره في الشام ومصر.. لم يتجاوزها حتى مات.

الموقف في البلاد العربية

واطلق الان مروان نظره الى الامصار العربية فاذا به يجد نفسه مهدداً من ثلاثة مواطن : الحجاز ، والعراق ، ومصر ، اذا استثنينا الابهراطورية البيزنطية التي كانت العدو الاكبر للامبراطورية العربية .

وكان العراق في هذه الفترة يعج بالخصومات والاضطرابات الداخلية ، وكان اهله في شاغل بانفسهم عن غيرهم وسواهم ، فلم يكن والحالة هذه من خطر عاجل منهم ، كما ان الزبير في مكة لم يكن يحرك ساكناً ، واما مصر فكانت مضطربة غير مستقرة ، وكان حاكم ابن الزبير فيها غير موفق في تهدئة الحال ، وتأمين السلام ..

فقرر مروان عندئذ ان يبدأ بمصر ، كما فعل معاوية بعد معركة صفين ، ولكي يطمئن من الغارات الخارجية على دمشق وسورية في غيابه ، ارسل ابنه محمداً الى اطراف العراق وحدوده حتى لا يمكن احداً من العراقيين من اجتياز هذه الحدود وتهديد دمشق ، واوصاه بمراقبة القيسيين الذين كانوا بعد معركة مرج راهط قد غادروا سوريا وفلسطين الى حيث استقروا مع زفر بن الحارث في قرقيسيا .

وارسل في الوقت نفسه قوة الى الحجاز لتهاجم ابن الزبير في ارضه وتشغله عن مهاجمة دمشق في غياب مروان في مصر ، ولكن هذه الحملة الحجازية فشلت فشلاً مريعاً ، ووقعت بين قوتين قوة خرجت اليها من مكة ، واخرى من البصرة ، فتمزقت وتشتت رجالها ، ولم ينج منها الا القليل ، وبينهم الحجاج بن يوسف الذي اخذ بالظهور على مسرح السياسة العربية .

وكان مروان في الوقت نفسه قد مشى الى مصر ، ومعه كثير من الزعماء كحسان بن يحدل ، وعمرو بن سعيد الاشدق ، وخالد ولي العهد وقد خشى مروان ان هو ترك هؤلاء الثلاثة في العاصمة ان يثيروا عليه فتنة جديدة ، فرأى من الحكمة اصطحابهم معه الى مصر ، وهذا دليل على انه كان قليل الثقة بهم جميعهم ،

وترك خلفه عبيد الله بن زياد والحسين بن نير ليتقدما بقوة من الجند الى الحدود العراقية .

ومشى مروان يبيشه الى مصر لطرده عبد الرحمن بن جحدم عامل عبد الله ابن الزبير ، وسار ابنه عبد العزيز في الجيش الى (ايلة) ومنها الى العقبة (١) ، ونشط ابن جحدم لحربه ، وأشار عليه بعض رجاله ان يحفر خندقاً (٢) ، فتم في شهر واحد ، وبعث بالجيش والمراكب (٣) لحرب مروان وابنه ، فانهمزمت جيوشه ولم توفق ، ولم ينفعه خندقه ، ودخل مروان عين شمس ، ثم الفسطاط في اول جمادي الاولى سنة ٦٥ للهجرة ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقراً له وبيعه الناس الا نفرأ ، ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير فضرب اعناقهم ، وكانوا ثمانين رجلاً من المعافر ، وقتل ايضاً سيد لحم - الاكدر ابن حمام ابن عامر ابن صععب - فأتى ثلاثون الفا من لحم وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان نائرين ، فتوسط بعضهم في الصلح فانصرفوا ، وصادف ان توفي عبد الله بن عمرو بن العاص في اليوم الذي قتل فيه الاكدر (١٥ جمادي الآخرة سنة ٦٥) فلم يستطع القوم ان يخرجوا يجنازته لتألب الجند على مروان فدفن في داره (٤)

عمرو بن سعيد الأشدق :

وتشجع ابن الزبير في هذه الفترة ، وبعد فشل الحملة الروانية على الحجاز التي عدها تعويضاً عن فشله في مصر فارسل قوة بقيادة شقيقه لاقتحام سوريا ، ولكن مروان ارسل اليه قوة بقيادة عمرو بن سعيد الأشدق فردته فاشلا رغم البسالة

«١» عند العقبة

«٢» موقعه الان بحجة القرافة

«٣» بعث ابن جحدم بالمراكب الحربية الى مراقي سورية ، ولكن العاصفة مزقت هذه المراكب واغرقت اكثرها .. الكندي -

«٤» الكندي ص ٤٥ - ٤٦

العظيمة التي ابداهما مصعب شقيق ابن الزبير في المعركة (رجب) ٦٥ هجرية ،
وعندئذ فكر مروان في الراحة قليلا فقد اصبحت سوريا تحت حكمه ،
وخضعت له مصر ، ودانت له فلسطين والاردن ، ويقال انه قرر البقاء في
طبرية قليلا ، ولكن دسائس عمرو الاشدق... اثارته شكوكه فعماد الى
دمشق مسرعاً ..

ويظهر لنا ان انتصار عمرو بن سعيد الاشدق على مصعب بن الزبير قد شجعه على
التفكير جدياً في ان يكون الخليفة بعد مروان ، فذهب يتحدث بهذه الفكرة
الى بعض اخصائه ، ويقول : ان مروان نفسه قد وعده بذلك ، وكان مروان
قد وعده عمرو بن سعيد الاشدق بكثير من الامور كما وعده غيره ، واما انه
وعده بالخلافة فهذا ما لا نعتقد به .

وكان عمرو بن سعيد الاشدق رجلاً من زعماء بني امية ، كريماً شجاعاً
يحب الناس اليه ، ويعلمهم يتقربون منه ، كما انه في الوقت نفسه كان زعماً
للقبائل اليمنية في سورية ، الذين كانوا يحبونه ويحترمونه ، ولا يرون كبير امر
في التضحية في سبيله .

كان مروان بن الحكم لا يحبل الشهرة التي ينعم بها زميله ، وكان هذا مما
يشغل فكره ، ويقض من مضجعه ، خوفاً من مطامع الاشدق في المستقبل ،
وما قد يكون لها من الخطر على ولده بعده .

ومن المؤكد ان الاشدق قد افضى الى مروان بكثير من الخدمات ، ولولاه ،
ولولا خدماته العسكرية لمروان في مرج راهط وفي مصر لكان من الصعب على
مروان النجاح كل النجاح ، ففي مرج راهط كان الاشدق يقود احد جناحي
الجيش المرواني ، كما ان جرأته وبسالته في مصر وفلسطين هي التي مكنت
مروان من استعادة هذين القطرين . وكان الاشدق نفسه يعرف ذلك ويقدر
خدماته حق تقديرها للعائلة المروانية الجديدة .

ولكن فضيلة التقدير وحفظ الجميل ليسا من الفضائل المفروضة في رجال السياسة، ومروان مع كل تقديره لخدمات الأشدق له كان يحاول ازاحته من مركزه في البيعة التي كانت تجعله ولي عهد خالد بن يزيد بعد وفاة مروان نفسه .
والظاهر انه لما عاد الأشدق من فلسطين منتصراً على مصعب بن الزبير اخذ يفكر تفكيراً جدياً في مسألة الخلافة ، واخذ يقول ان مروان بن الحكم نفسه قد وعده ، بان يجعله خليفته مكان خالد بن يزيد ، وسواء اكان مروان قد وعده بهذا او لم يعده ، وليس في المصادر التي بين ايدينا ما يؤيد ذلك او ينفيه ، فان اعلان الأشدق لرغبته هذه اثارت بعض الاحزاب عليه ، خصوصاً آل ابي سفيان والمروانيين انفسهم ، وابن يحدل نفسه ... الذي لم يكن يحبه ولا يطلب له خيراً .

وكان حسان بن يحدل يعرف كل المعرفة الخطر الذي يتعرض له نسيبه خالد بن يزيد اذا مات مروان فجأة ، فان خالداً كان ولا يزال صغيراً ، واذا فان الأشدق سيحل محله دون ما شك ولا ريب ، وهذا ما كان ينغص عليه عيشه ، ويقض مضجعه .

مسألة الخلافة :

ومن المؤكد ان مروان بعد ان دانت له اكثر الامصار العربية قد اخذ يفكر جدياً بمسألة الخلافة ، وبخالد بن يزيد ولي العهد ، ذلك ان مروان كان كثير الولد ، وكان كل ولده من ذوي المقدرة والنشاط ، وقد وجد نفسه في أواخر ايامه يتحمل المشاق ليوطد الملك لغيره ، كما راح يخشى ان ينتزع الأشدق نفسه الخلافة من خالد الصغير ، وهو ما كان يفكر به ابن يحدل كما قدمنا ، فتذهب الخلافة والحالة هذه من المروانيين وآل ابي سفيان على السواء ، فتحدث بذلك الى حسان بن يحدل زعيم كلب ، ونفض اليه نوايا عمرو بن سعيد الأشدق واعلن له عن رغبته في تولية عبد الملك ابنه مكانه ، فأيده حسان في ذلك

وشجعه عليه ، فتقض عندئذ مروان اول بند من بنود مؤتمر الجابية ، وعزل خالداً من ولاية العهد ، وعين عبد الملك مكانه ، ثم عبد العزيز ابنه من بعده . وصار اعلان ذلك للناس في الجامع فظهرت عليهم الدهشة اولاً ، ثم اقبلوا يبايعون الاميرين الجديدين ويهنئونهما ، ويقول (السعودي) ان البيعة صارت في الصبرة من ارض فلسطين والاول الارجح ، واما الاشدق فقد سكت على مضض كما يظهر بعد ان رأى اجماع الناس على البيعة .

وكان عبيد الله بن زياد في هذه الفترة يهيء الجند ويستعد لاقتحام العراق ، فلما انتهى مروان من ولاية العهد اصدر امره اليه بالتقدم ، وعينه حاكماً لكل المنطقة ؛ كما نصحه قائلاً : اياك والفرار كعادتك ... (ابن عساكر).

وكان اهل الكوفة قد جهزوا جيشاً منهم ، اطلقوا عليه اسم (التوابين) لانهم خذلوا الحسين لما قدم اليهم من مكة ، وارادوا في تسيير هذا الجيش التوبة عن تقصيرهم والتعويض عما فاتهم . ولكنهم لم يوقفوا في المعركة التي دارت بينهم وبين رجال عبيد الله بن زياد ... ولم يعمر مروان كثيراً فقد مات بعد ستة اشهر من ولايته ٢٧ رمضان ٦٥ هجرية .

وكذلك نرى ان مروان بن الحكم لم يتقيد بمقررات مؤتمر (الجابية) الذي اقرّ الخلافة لمروان بن الحكم اولاً ، ثم لخالد بن يزيد ثم لسعيد بن العاص .

كيف مات مروان :

ويروي لنا المؤرخون قصة تتعلق باخلاق مروان وتصوره كل التصوير ، فقد تزوج بعد البيعة (فاختة) ام خالد بن يزيد ولي عهده وفاقاً لمقررات مؤتمر الجابية توطيداً لمركزه ، واكتساباً لعطف انصار خالد من بني كلب وغيرهم ، ولكنه لما احس بشبات ملكه ، اخذ يحاول خلع خالد بن يزيد وتولية ولديه مكانه ، وللوصول الى غرضه هذا ، عمد الى تحقير خالد ما كان الى ذلك سبيل في

بجالسه المختلفة امام اهل الشام ليحملهم على النفرة منه ، وعدم الاكتراث به ،
وقد حدث يوماً ان دخل خالد على مروان ، فشمته مروان ووصفه بالحق ، فخبجل
خالد من نفسه ، ودخل على امه باكياً واقضى اليه بالخبر ، فقالت له :
- لا يعرفن احد ذلك منك ، واسكت فاني اكفيكه (١) .

فلما دخل عليها مروان في ليلة من الليالي وضعت على وجهه وسادة وجلست
هي وجواربها عليها حتى مات .. فلما علم بذلك عبد الملك بن مروان اراد
قتلها ، فأشير عليه بالعدول عن ذلك حتى لا يتحدث الناس ... ان امرأة
قتلت اباه فيلحق به العار ، وتتناقل الخبر الشعراء في مختلف الامصار .

ويقول المسعودي في صدد هذه القصة ، انها وضعت على نفسه وسادة
وقعدت فوقها مع جواربها حتى مات ، ومنهم من رأى انها اعدت له لبناً
مسموماً ، فلما دخل عليها ناولته اياه ، فشرب ، فلما استقر في جوفه وقع
يحيود بنفسه ، وامسك لسانه ، فحضر عبد الملك وغيره من ولده فجعل
مروان يشير الى ام خالد يخبرهم انها قتلته ، وام خالد تقول :

- بابي انت حتى النزاع لم يشغلك عني ، انه يوصيكم بي ... حتى هلك .
فكانت ايامه تسعة اشهر واياماً قلائل وقيل ثمانية اشهر وقيل غير ذلك ،
ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ...

الحكم على مروان :

وإذا نحن انكرنا حسن الادارة على مروان فليس يعني هذا اننا فنكر
عليه الدهاء وحسن السياسة ورجحان العقل فيما ظهر منه عهد خلافته . ومن
المؤكد لدينا الان ان حكمتنا الاول يصدق عليه يوم كان كاتباً عند عثمان بن
عفان فكان في هذا المهدي اكثر انقياداً لشهواته وعواطفه منه الى عقله ، ولكن

(١) الطبري ج ٧ ص ٨٣ ، امانولسكي المشرق الالماني وصاحب الاغاني فينكر ان هذا
الخبر .. ويقول غيرم انه مات بالطاعون .

الايام احسكت توازنه ، وغلبت عواطفه ، فتبدل شخصاً اخر بعد مرور ثلاثين سنة على العهد الاول ، وآية ذلك ما يرويهِ الكندي له (١) وكان مروان لما ولي الخلافة قد جاء الى مصر كما قدمنا ، فاقام بها شهرين ، ثم جعل ولايتها الى ابنه عبد العزيز ، كما جعل اليه صلاتها وخراجها فقال عبد العزيز :

- يا امير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به احد من بني ابي ؟
فقال مروان : يا بني عمهم باحسانك يَكُونُوا كلهم بني ابيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وواقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه اليك ، وقد جعلت اخاك بشر مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني ان تكون باقصى الارض ، أليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في بيتك ؟
وكذلك نرى كيف دبر مروان ابنه ليخرجه في الادارة ويعلمه حكم الناس ، جعل له موسى بن نصير وزيراً ، وهو ما هو يعلمه وعقله وحسن سياسته ، وقد فارق موسى اميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً الى افريقية والمغرب ففضى على البربر والرومان ، ثم فتح الاندلس مع طارق بن زياد .

ويجمع بعض المؤرخين على ان مروان في اواخر ايامه كان سريعاً في اقرار ما يستقر عليه رأيه ؛ شديد في معاملاته وحديثه مع الناس ، بحيث ذهب بعضهم الى القول باضطراب خلقه في اواخر ايامه كما هو شأن الشيوخ ، وانه كان فاحشاً في اقواله كمادة العرب الجفاة ، وينقم عليه المؤرخون انه لما وجه عبيد الله بن زياد الى العراق ، امره باباحة الكوفة لجنده بعد اقتحامها كما فعل يزيد بالمدينة .
اما بشر بن مروان مؤنس اخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولا بن عبدل في بشر بن مروان :

(١) تاريخ الولاة .

ولو شاه بشر كان من دون يابه طباطم سود او صقالبة حمر
ولكن بشراً أسهل الباب التي يكون لبشر عندها الحمد والاجر

وقد استعمل عبد الملك لما ولي الخلافة بشراً وأمره بالشدة والغلظة على اهل المعصية^(١)
وباللين على اهل الطاعة ، وخلف معه اربعة آلاف من اهل الشام منهم روح بن
زقباغ ورجاء بن حيوة الكندي ، وهما من امثل رجال بني امية واعلمهم
وأوسوسهم ، وكان من سياسة (بشر) أو من سياسة دولته عامة انه اذا ضرب
البعث على احد من جنده ثم وجده اخلاً بمركزه اقامه على كرسي ثم سمر يديه
في الحائط ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه فلا يزال يتخبط حتى يموت ،
وهذه الشدة على الجند لم تحدث احداً نفسه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش
امية اطوع جيش عربي ، ولا يستغرن احد هذه الشدة فجزاء الفار من الجندي
في يومنا هذا القتل .

ولقد رأينا عبد العزيز بن مروان امير مصر وما كان من نصيحة ابيه له في
سياسة الرؤساء ليسلس له قيادة المرؤوسين ، وكيف لقنه ابوه اقرب الطرق
الى استالة القلوب ، وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز تابعة في ادارته ،
عمرت مصر في ايامه عمراناً ليس مثله ، وبنى في حلوان الدور والمساجد
وغيرها احسن عمارة وأحكما ، وغرس نخلها وكرمها ، وكان له الف جفنة^(٢)
كل يوم تنصب حول داره ، ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل
الى قبائل مصر .

ولي عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها اليه ، فلم يوجد له مال
يوم موته الا سبعة الاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة
اشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبدالله بن عبد الملك بن مروان

(١) تاريخ دمشق لابن عساکر .

(٢) الجفنة القصة الكبرى من الطعام تقدم للناس .

وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مداً من الذهب ، وتقدم اليه ابوه أن يعفي آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد، فاستبدل بالعمال عمالاً ، وبالأصحاب اصحاباً ، ذلك لان عبد العزيز لم يرض ان ينزل عن ولاية العهد لابن اخيه في حياته ، وعبد العزيز هو والد امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي العادل ..

حياة مروان :

والخلاصة ان مروان كان فاحشاً في اقواله ، شديداً في معاملته ، وكان كبير الرأس دقيق العنق ، طويل القامة .

ويقول المسعودي: انه كان رجلاً بعيد الشعور ، وكان اصدق من معاوية في معتقداته السياسية ، فبينما كان معاوية يتخذ من قتل عثمان بن عفان حجة للوصول الى اغراضه ، كان مروان عظيم الايمان بحق عثمان ومقتله ظالماً .. وكان ذكياً فظناً ، ملماً بالحديث ، متفرغاً للبحث فيه ، يقصده اهل المدينة لما كان فيها لاخذ رأيه .

ويقول ابن عساكر : « انه كان سيد شباب قریش ، القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله . »

ويجمع المؤرخون على ان مروان ولد في السنة الثانية للهجرة وانه توفي وله من العمر ٦٣ سنة ، ولكن (لامنس) يقول انه ولد قبل ذلك ، بسنوات قليلة ، ويقال انه ولد في الطائف ، وانه كان لاهله فيها مزارع ومال ، وحجة القائلين بكبر سنه ما كان يقوله مروان نفسه في معركة مرج راهط عن كبر سنه ، وانه اصبح شيخاً كبيراً ، واذا كان هذا حقاً فمن المؤكد ان مروان مات بعد عمر يزيد عن السبعين ، وانه عاش حياة مضطربة قلقة ، حوصرت مرتين وهو في

منزله بالمدينة اثناء الثورة في عهد عثمان بن عفان ، كما أجبر مرتين على مغادرة المدينة ، الاولى لما طرده اهل المدينة في عهد يزيد ، والثانية لما طرده عامل ابن الزبير من المدينة ايضاً وكان ابنه عبد الملك مريضاً ، كما شهد موقعة (الحرّة) واقتحام المدينة ، ومؤتمر الجابية ، ومعركة مرج راهط والمعارك التي حدثت في مصر بعد ذلك .

ويقول (لامنس) في تعليقه على حياة مروان ان هذه الحياة المضطربة القلقة التي قضاها مروان زادت في انحطاط صحته ، وضعف جسمه ، ويذكر (ابن عساكر) : ان مروان كان يشكو من جراح اصابته في معركة الجمل ، وجراح مثلها لما كان اهل الامصار يحاصرون عثمان في داره بالمدينة .

وهذا الضعف الذي نزل به من جراء هذه المشقات التي تولته في حياته الطويلة ، جعلته اكثر تعرضاً للأمراض الوبائية التي كانت عامة في البلاد العربية في ذلك العهد ، وكانت طواعين الشام تفرض على خلفاء امية الهرب من الشام الى البادية ، ومن المؤكد ان نزول مروان الصبرة من فلسطين اثناء عودته من مصر ، يدل على انه كان هارباً من احد الطواعين .

وكان الطاعون في سنة ٦٥ للهجرة قد ظهر في العراق ، وكان شديداً قاسياً هلك فيه كثير من الناس ، ومساءتم ان قطع الفرات ، ووصل الى الشام ، فهلك فيه الوليد بن عقبة زميل الضحاك بن قيس في الحكم ، وتبعه مروان بعد ذلك بقليل .

ويعز والمؤرخون سبب انتشار هذه الطواعين الى كثرة الحروب والثورات وتكدس القتلى على الارض ، وعلى مقربة من الانهر والابار وانتشار الجرائم بسببها مما كان يجعلها مهداً خصباً لامثال هذه الوبئة ، هذا الى عدم عناية الناس في ذلك العهد بالماء الذي يشربونه والذي كان مليئاً بالجراثيم ، وكان يصعب عليهم تنقيته لجلبهم الامور الصحية .

ويقول (المسعودي) عن مروان وهو من الذين يكرهونه في كتاب التنبيه والاشراف : « انه كان رجلاً بعيد الغور ، حكم الحجاز ، وكان اميراً للحج وقد وصل الى الخلافة في عهد كان سنه يجعله زاهداً في الدنيا متطوعاً الى الآخرة ، بحيث استطاع ان يقال انه لم يسع الى الخلافة بل حمله اليها انصاره وحسين ارتبطت مصلحتهم بمصلحته ، ولكنه ما كاد يصل الى الخلافة حتى اصبح شخصاً ثانياً وعادت اليه فطنته وذكأؤه ، ومقدرته على تصريف الامور . وقد ظل على العرش الوقت الكافي لتوطيد الملك لابنيه من بعده ، ومن غريب امر الاقدار ان مروان الخليفة الوحيد الذي افضى بالملك الى اربعة من اولاده بعده .

نظام البيعة في عهد معاوية ومروان :

وقد بسطنا في كتابنا (معاوية بن ابي سفيان وعصره) شيئاً عن نظام البيعة في الاسلام وكيف ان هذا النظام كان ديموقراطياً صرفاً ، يختار فيه المسلمون افضلهم واحسنهم ، واقدروهم على تقلد الخلافة ، فلما كان الامر لمعاوية بعد مقتل علي رضي الله عنه اتبع في نظام البيعة سبيلاً جديداً لم يؤيده احد ، ولم يقبله الا شيعة وانصاره ، بايع لابنه يزيد في الخلافة من بعده ، واخذ له البيعة في حياته قسراً على النحو الذي وصفناه ، ولو كان يزيد اهلاً للخلافة لما كان لنا ما نقوله ، ولكنه لم يكن لهذا المنصب العظيم اهلاً ولا للحكم صالحاً ، وكان الناس يعرفون ذلك ، فلما ولي الخلافة ثار الحجاز ، وخرج الحسين بن علي الى العراق ، وكثرت الثورات في عهده ، وزاد الاضطراب وعمت الفوضى ، وليس ادل على انكار العرب لخلافة يزيد من قول الاحنف بن قيس لمعاوية يوم طلب منه البيعة لابنه :

— نخافكم ان صدقنا ، ونخاف الله ان كذبنا ، وانت يا امير المؤمنين اعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه للامة رضى ، فلا تشاور فيه ، وان كنت تعلم فيه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا وانت صائر الى الآخرة ، واتما علينا ان نقول سمعنا واطعنا ..

ولقد كان من اثر تولية معاوية ليزيد ان اتبع يزيد خطة ازهدت الناس في ولايته ، وحملت المسلمين على بغضه ، فقد قتل الحسين او قتل احد عماله الحسين ، وابع المدينة لجنده ، بعد اقتحامها ، وكثر السفك والدم فيها ، وهذه خطة خاسرة وسياسة بغیضة ، ولو كان عاقلاً بعيد النظر ، لأخذ اهل المدينة بالتي هي احسن لا بالتي هي اقبیح ، ثم لعاملهم بما يجب ان يعاملهم به خليفة يريد المحافظة على ملكه وعرشه ، وزاد في كره الناس له مقتل الحسين بن علي في عهده ، والطريقة التي جرى فيها القتل ، وكان من حسن السياسة امره لا قتله ، فلم تدم ولايته كثيراً ، وقام بالامر بعده ابنه معاوية ، فلم يتمتع بالملك لمرضه وزهده في الدنيا ، قيل لم يزد عهده عن اربعين يوماً وقيل اكثر ، ثم ترك الخلافة لشأنها ، فلم ينتخب احداً ولم يوصى باحد ، فانتقلت الخلافة من آل ابي سفيان الى بني مروان ، وكذلك نرى ان الطريقة التي اتبعها معاوية في نظام البيعة لم تعش بعده اكثر من اربع سنوات وعدة اشهر ، ثم انتقلت الخلافة الى عائلة ثانية لم يكن يظن معاوية في حال من الاحوال انها ستكون لها ، وان سعيه هذا سيكون لغیر اولاده من بعده .

طريقة جديدة :

فلما ولي مروان بن الحكم الخلافة بعد معاوية بن يزيد خرج في نظام البيعة بنظام جديد لم يسبق له مثيل ، فذهب يولي عهده لاثنين من اولاده ، يلي احدهما الاخر ، وكانت هذه الطريقة من اكبر المصائب التي نزلت بالبيت المالك الاموي ، بذرت بذور الشقاق والبغضاء بين افراد البيت ، واورثت بينهم الحقد والكراهية ، وسبب ذلك انه لم يكن يتم الامر لاولهما حتى يعمل لاقضاء الثاني من ولاية العهد ، واحلال احديهما مكانه ، ولم يقتصر النزاع بين افراد البيت المالك ، بل تعداهم الى القواد والعمال ، فانه لم يكن يتم الامر لثانيهما بعد وفاة شقيقه ، الذي حاول غصبه عن حقه ولم يوفق ، حتى نراه

ينتقم من ظاهر شقيقه وايداه على عزله من ولاية العهد من القواد والعمال .
ولى مروان ابن الحكم عهده لابنيه من بعده ، عبد الملك ثم عبد العزيز فلما
تسلم عبد الملك بن مروان الخلافة ، طلب من شقيقه عبد العزيز ان يتنازل عن
ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان ، فرفض عبد العزيز ذلك ، فاراد ان
يعزله ، واستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك ، فاستشار روح بن زنباع
فقال له :

— لو خلعت ما انتطح فيه عنزان .

فبينما هو على ذلك اذ جاء الخبر بوفاة عبد العزيز ، فقال عبد الملك لروح :

— كفانا الله يا ابا زرعة ما كنا فيه ، وما اجعنا عليه .

وعهد الى ابنه الوليد ثم بعده لسليمان ، وكتب ببيعتهم الى البلدان فبايع
الناس خوفاً وفرعاً ، وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب احد التابعين وكبير
فقهاء المدينة ، فضربه امير المدينة وطاف به وحبسه .

ولو لم يميت عبد العزيز لوقع الاختلاف فعلاً ، ولاستقل عبد العزيز بمصر ،
وحارب شقيقه ومن والاه في سبيل الخلافة ، ولتمزقت كلمة العرب
مرة اخرى في سبيل الخلافة والسلطان ..

عبد الله ابن الزبير

نشأته وحياته الاولى

الزبير بن العوام :

نعم عبد الله بن الزبير بكثير من الشرف منذ فجر الاسلام ، فقد كان ابوه الزبير بن العوام من صحابة رسول الله المقربين ، ومن انساب الرسول الاقربين ، وكانت له يد مشكورة في الدفاع عن الرسول والاسلام ، ثم كانت له ايد في الفتوحات الاسلامية الاولى بعد وفاة رسول الله ، ارسله عمر بن الخطاب نجدة لعمر بن العاص لما كان بمصر يحاول اقتحام حصونها وقلاعها ، وقال له :
- اني ارسلت لك رجلا بالف ..

وكان الزبير الى هذا كله من اصحاب الثروات الضخمة . وكان من الستة اهل الشورى الذين عهد اليهم عمر بن الخطاب اختيار الخليفة من بعده .. وكان

الزبير يكنى ابا عبد الله (١) واما صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمه رسول الله ، وهو الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزي بن قصي القرشي الاسدي .

وتقول بعض المصادر ان الزبير اسلم وهو ابن خمس عشرة سنة .. (٢)
ومما يذكر ان علياً والزبير وطلحة وسعد بن ابي وقاص ولدوا في عام واحد .. فاعجب للثلاثة الاول يختافون فيما بينهم بشأن الخلافة لما آلت الى علي رضي الله عنه ، حتى يقتلوا ثلاثهم في سبيلها ايضاً ..
ولم يتخلف الزبير عن غزوة غزاها رسول الله ، وآخى رسول الله بينه وبين عبدالله بن مسعود حين آخى بين المهاجرين بمكة ، فلما قدم المدينة وآخى بين المهاجرين والانصار .. آخى بين الزبير وبين سلمة بن سلامة ..
وكان له من الولد عشرة ، وكان اول من سل سيفاً في سبيل الله .
ويقول الواقدي : كان الزبير رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير ، خفيف اللحية اسمر اللون ، وكان لا يغير شبيهه ..

وروى عن هشام بن عروة عن ابيه ان الزبير كان طويلًا تنخط رجلاه الارض !! اذا ركب دابة .. ازرق الشعر (٣) ..

ويقول صاحب الاستيعاب : كان الزبير اسمر ربعة معتدل اللحم خفيف اللحية وكان الزبير تاجراً موفقاً في التجارة ، وقيل له يوماً : هم ادركت في التجارة ما ادركت ؟

فقال : اني لم اشتر عيناً ولم ارد رجلاً ... والله يبارك لمن يشاء ..

وكان للزبير الف مملوك يؤدون له الخراج ..

واختلف الزبير مع علي بن ابي طالب بعد مبايعته له بالخلافة ، وفارقه هو وطلحة وانضوا الى عائشة زوج رسول الله ، حيث حشدوا جيشاً في البصرة

(١) الاستيعاب ... وفي المعارف لابن قتيبة ا « ابا عبيد الله » .

(٢) هناك اختلاف عظيم في سنة يوم اسلامه ، وهذه الرواية اصح من سواها ..

(٣) المعارف لابن قتيبة ..

فتبعهم علي وقاتلهم فغلبهم ، وقتل طلحة في المعركة ، وغادر الزبير المعركة قبل انتهائها نادماً فلحقه ابن جرموز في جماعة من بني تميم فقتلوه .. وكان سن الزبير يوم قتل سبعاً وستين سنة ، وقيل ستاً وستين ..

عبدالله بن الزبير :

وكانت ام عبدالله اسماء بنت ابي بكر الصديق ، اخت عائشة زوج رسول الله ، وكانت من ذوات الحزم والرأي .. ابية النفس شجاعة الى اقصى درجات الشجاعة ..

وكان عبدالله اول مولود للمهاجرين بالمدينة عام الهجرة ، ولما ولدته امه ، اتت به رسول الله فوضعت في حجره ، فدعا بشمرة فمضعها ، ثم تفل في فيه فكان اول شيء دخل جوفه ريق رسول الله .. وفرح المهاجرون بولادته وكتبوا ، وذلك انه قيل لهم ان اليهود قد سحرتهم فلا يولد لهم ..

ونشأ عبدالله في المدينة وتربى فيها ، ونال من التعليم المعروف في عصره ، قدراً حسناً ، فعرف القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، وروى الاحاديث ، وقرأ كثيراً من الشعر على ما يظهر ، وعاش حياته الاولى يخالط كبار الصحابة فاقتر هذا تأثيراً عظيماً في اخلاقه ، وجعله يكثر من العبادة والتهجد وذكر الله ، وساعدته هذه البيئة الروحية ايضاً على تعزيز خلال جميلة كانت مستقرة في نفسه ، فظهر للناس بطلاً شجاعاً وخطيباً بارعاً حتى قال فيه ابو عبيد : « ان عبدالله بن الزبير كان لا ينازع في ثلاث : شجاعة ، وبلاغة ، وعبادة . » ولكن هذه الصفات لم تكن كافية للحياة الدنيا ، بحيث تمكن لصاحبها من اقامة الدول ، وتأسيس العروش ، وبناء الممالك ، فقد كان ينقص عبدالله ابن الزبير بعد النظر السيامي ، وحسن السياسة ، وشدة التأثير على الجماعات والبذل في سبيل العرش ، والاحسان الى الناس ليكسب تأييدهم ،

ويحببهم الى شخصه ، ليحاربوا في سبيله ، ويتفانوا في اقرار اغراضه ..
ويذكر المؤرخون في وصفه انه كان عنيداً معتداً بنفسه وقوته، منذ صغره،
فقد كان ذات يوم يلعب مع صبيان المدينة ، فمر بهم رجل فصاح بهم ، قفروا
ومشى عبدالله القهقري ثم قال :

- يا صبيان اجعلوني اميركم وشدوا بنا عليه ... ففعلوا ..
ومر به عمر بن الخطاب يوماً وكان عبدالله مع صبيان يلعبون ، ففرالصبيان
وبقي عبدالله في مكانه ، فقال له عمر :
- لماذا لم تفر مع رفاقك ؟

فاجابه : لم اجرم فاخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فافسح لك (١)
ولما بلغ اشده كان لا يترك السيف من يده ، فكان والده الزبير يقول له :
- والله ليكونن لك منه يوم وايام ..

فلما بلغ الشباب صحب الجيوس الغازية اول الفتوح ، وكان له بلاء محمود في
المعارك .

روى الزبير بن بكار: « انه -عبدالله- قتل بيده في فتح افريقية امير
جيوش الروم ، فارسله عبد الله بن ابي سرح (وكان قائد جيش المسلمين)
بشيراً الى امير المؤمنين عثمان ، فلما سمع بشارته أعجبه كلامه وشجاعة قلبه ،
ثم سأله :

« أيمكنه أن يخاطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ »
فاجابه : وما يمنعني من ذلك ؟

ثم قام خطيباً ، وتدقت من فيه آيات البلاغة ، وأطنب في وصف الفتوح،
وفصل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته
وقوة عبارته ، وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام ابوه وقبله بين عينيه ،

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٩ ..

وانقض الجمع ، وليس فيهم إلا معجب ببيانه ، مشن على شجاعته .
ولم اطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول ابي عمرو
بن عبيد :

« كان عبد الله شهياً ذكراً ذا انفة ، وكان له لسن وقصاحة ، وكان كثير
الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والامهات والخالات .
بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير ان يكون في الطبقة العالية
بين رجال عصره ، وما فتى عثمان يتفرس في نخايه قوة الشكيمة ، وفرط
النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحب والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه
عليها قبيل مصرعه (١) »

ومن ثم دب الطمع الى قلبه في طلب الخلافة لنفسه ، وابقى ذلك صراً
مكتوماً ، ولكنه لم يأل جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل الذي يلائم طبيعته
ويشبع رغباته الكامنة ، ولم لا يكون خليفة وقد استخلفه امير المؤمنين عثمان
على داره التي هي دار الخلافة ؟

ولم لا يكون خليفة .. وجده ابو بكر اول الخلفاء وابوه احد العشرة ؟
يمثل هذا تحدث الى نفسه ، ولكن أتى له هذا ، وفي القوم من هو اقرب
منها اليه ، وابعد تأثيراً واثراً في جبهة المسلمين !!!

والواقع اننا لا نؤمن بان عبد الله بن الزبير فكّر في الخلافة عهد علي بن ابي
طالب ، وقد كان ابوه لا يزال حياً ، فاما بعد موت ابيه وعلي من بعده ،
فليس بمستبعد ان يكون تحدث الى نفسه بامرها ، خصوصاً بعد ان وليها معاوية ،
وعهد بها الى يزيد ابنه من بعده .. وعبد الله كان ما في ذلك شك افضل من
يزيد اخلاقاً ، واثق اسباباً ..

ومن المؤكد عندنا ان عبد الله بايع علياً كما بايع ابوه وطلحة ، ولكن عبد

(١) المقدم الفريد .

الله بما يظهر لنا كان شديد الاتصال بعائشة زوج رسول الله ، التي كانت تحقد على (علي) كلمة قالها في عهد رسول الله يوم نصحه بتطبيقها والتزوج بسواها ، فلما ولي علي لم تبايعه ، واخذت تؤلب الناس عليه ، متهمة اياه بالسكوت وعدم المبالاة في شأن عثمان ، ويذهب بعض المؤرخين الى ان عبدالله نفسه هو الذي اثار حفيظتها ، بعد ان راح يتحدث لها بفضاعة الجريمة التي ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وما كان من امر علي معها ، وكيف انه قد تجاهل مكاتبتها حين اصبح الامر له .. فاستجابت لما ألقى اليها من دواعي الاغراء ، وقد ظنت انها موفقة الى جمع الناس حولها ، وقامت تحطّب المسلمين ، وتحرضهم على الانتقام لعثمان بن عفان ، فاستجاب لها عدد قليل حاربت بهم علياً في وقعة الجمل ، وكان الزبير وطلحة وعبدالله ابن الزبير في الجيش معها ، وقد سحق علي انصار عائشة ومزقهم ، وقتل طلحة في المعركة (١) وقتل الزبير بعد ان غادوها كما قدّمنا ، وردّ علي عائشة مكرمة الى مكة ..

ويقول لنا ابن الاثير : لما التقى الجمعان في وقعة الجمل خرج الزبير على فرس عليه سلاح ، فقيل لعلي : هذا الزبير ..
وخرج طلحة فخرج لها علي ، واخذ يناقشها ويعاتبها على خروجها عليه وذكر للزبير كيف ان رسول الله قال له يوماً : لتقاتلنه وانت ظالم له .
وقال له علي : قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففترق بيننا ..

فلما سمع الزبير منه ذلك قال له :
والله لاقاتلك ابدأ ولو ذكرت ما ذكرته لي الآن ما سرت سيرتي هذا ..
ولما علم عبدالله بن الزبير ان اياه سيترك القتال ويفادهم عتب عليه ، واتهمه بالجلين ، وفي هذا ما يدل على ان عبدالله كان صاحب تأثير كبير في معركة الجمل (١) يقال ان الذي قتله مروان بن الحكم وكان في جيش عائشة رماه بهم لحقده عليه موقفه من عثمان واثارته الناس عليه ..

حتى انه ردّ اباه الى المعركة فحارب فيها ، فلما باه اصحابه بالفشل غادرها ..
فقتل على نحو ما ذكرناه قبلا ..

وفي معركة الجمل وقف عبدالله بن الزبير بازاء جمل عائشة يدافع عنها ،
فانتهى اليه الاشر من اصحاب علي ، فاقتتلا فضربه الاشر على رأسه فجرحه
جرحاً شديداً ، وضربه عبدالله ضربة خفيفة ، واعتنق كل رجل منهما صاحبه
وسقطا الى الارض يعتركان فقال ابن الزبير :

– إقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي ...

وحمل اصحاب علي وعائشة فخلعوهما ..

ويقول ابن الاثير : وجرح عبدالله بن الزبير سبعا وثلاثين جرحاً من طعنة
ورمية ... ونزل في البصرة بعد المعركة بدار رجل من الازد اجاراه ، ثم
ذهب الى مكة ..

ويقول المسعودي : ان عائشة قالت يوماً : اذا مرّ ابن عمر فارونيه .

فلما مرّ قالوا : ابن عمر ؟ فقالت :

– يا ابا عبد الرحمن ، ما منعك ان تنهاني عن مسيري الى العراق ؟

قال : رأيت رجلاً قد غلب عليك ، ورأيتك لا تحالفينه !! (يعني عبد

الله بن الزبير) ..

ويؤخذ من هذا ومن قول الرواة... أن عبد الله كان المحرك الحفي لجيش
عائشة على علي ، وانه كان قطب الرجا يوم الجمل ، والدافع له الى هذا انما هي
نيته المستورة ، ورغبته المكبوتة في امر الخلافة ..

عبدالله ومعاوية :

ثم تجري الامور على قدر ، ويتولى معاوية الامر بعد مقتل علي ، فيتمنى
عبدالله ان لو كان معه جند يشد ازره أمام الخليفة الجديد ! ولكن انى له ذلك
الآن ! وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة احدهما بزعامة معاوية ،

وخذلت الاخرى بصرع بن ابي طالب ، فلم يبق الا الاذعان للواقع ، والحزم اذن في المداورة لمن يبغى أمراً جلاً كهذا ، ولا بد حينئذ من المبايعة ، مع الترقب من جديد لفرصة اخرى امثل من هذه .

ولم يكن معاوية من الرجال الذين يجهلون مطامع عبدالله ومكنونات صدره ، ولكنه لم يكن يخشاه على نفسه ، وانما كان يخافه على ولده .. لانه كان يعلم ان عبدالله لن يثور عليه ، ولن ينقلب الى خلافه ، وتحدثنا بعض المصادر ان معاوية حج سنة ، ثم قفل الى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبدالله بن الزبير .. فقفا اثره على فرس ، حتى ادركه ، ومعاوية نائم في هودجه ، فانتبه على وقع الحافر وقال :

.. من صاحب الفرس ؟

فقال : انا عبدالله .. لو شئت يامعاوية قتلتك الان ..
(يمازحه بهذه الكلمة ما في ذلك شك) .

فقال معاوية : لست هناك ..

ثم دار بينها حوار طويل .. وكان مما قاله عبدالله :

— افعلتها يامعاوية ! — يعرض ببسطة معاوية ليزيد —

« اما انا قد اعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به ما دمت حياً ، ولكن ليعلمن من بعدك .. »

وفي هذا التهديد ما فيه ، وفيه ترميض صريح بانه اي عبدالله نأثر على الخليفة الجديد بعد معاوية ..

وطالت خلافة معاوية زهاء عشرين سنة ، كان في اثنائها يزوره عبدالله بن الزبير في دمشق ، فيغمر عليه معاوية عمرو بن العاص ليحرجه ، ويخرجه ، فيشتد بينها الجدل ، ويتأكد النزاع والخلاف ، وفي ذات مرة قال عبدالله لعمر بن العاص :

- يا ابن العاص انما طال بي الى الذري^٢ ما لا يطول بك مثله ، أنف هي ،
وقلب ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليد فارغ ، وطريف مانع ..

وكان معاوية في الواقع لا يخشى غيره على خليفته من بعده ، فقد كان يعد
خطر الحسين هيناً لينا ، وكان يعد امر عبدالله بن عمر ، اكثر بساطة لانه
رجل وقذته العبادة ، وانصرف الى الصلاة والتقوى ، واما ابن الزبير فمع
تقواه وصلاحه ، كان طموحاً ، عنيداً ، ماكرأ ، يخشى شره ، ويحسب حسابه .
وقال معاوية لابنه وهو يوصيه : اياك منه .. - ابن الزبير - انه الثعلب
الماكر ، والليث يصول بالجرأة عند اطلاقه ، فوجه اليه كل جدك وحزمك ،
واما ما بعد ذلك فقد وطأت لك الاسم وذلت لك اعناق المنابر ..

ويقال ان الاسباب التي دعت الى معركة الجمل ونقمة الزبير وطلحة على علي
بن ابي طالب ، ان الزبير كان يطمع بولاية العسراق وطلحة في ولاية اليمن
فلما ارسل علي الولاة ، ولم يكن لهما حظ في الولاية تقما عليه وتكلمها في شأنه ،
وندما على بيعتها له وعزما على الخروج ، فاستأذنا علياً في الخروج الى مكة
لاداء العمرة ، فلم يخف عليه امرها ، وقال :

- والله ما العمرة تريدان ؟

ولكن المؤكد عندنا ان طلحة والزبير كانا يطلبان حظاً في الدنيا مثل
حظ علي ، وليس بعيداً ان يكونا قد فكرا في الخلافة ايضاً ، وقد قيل ان
مروان بن الحكم قال لهما بعد خروجهما :

- على ايكما استلم بالامرة واؤذن بالصلاة؟

فقال عبدالله بن الزبير : على ابي .. - يعني الزبير بن العوام -

وقال محمد بن طلحة : على ابي طلحة ..

وكان هوى عائشة مع ابن اختها عبدالله بن الزبير... فأرسلت الى مروان

تقول له :

– تريد ان تفرق امرنا .. ؟ فليصل بالناس ابن اختي – تريد عبد الله
بن الزبير .. –

معاوية وحزب المعارضة :

ويجمع المؤرخون على ان معاوية لما تمت له بيعة يزيد عند اهل الشام والمراق
ذهب الى المدينة لاخذ البيعة لابنه ، وكان ممن اعترض على بيعته عبد الرحمن بن
ابي بكر ، والحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير ، وكان ابن الزبير اشد
اعتراضاً وانكاراً ، فشكاهم معاوية الى عائشة وهدد بقتلهم ، فنصحته بالرفق
والاحسان ، فاجتمع اليهم وتكلم معهم بشأن البيعة ، فقال ابن الزبير :

– نخيرك بين ثلاث خصال .

قال معاوية : اعرضهن ..

قال ابن الزبير : تصنع كما صنع رسول الله ﷺ ، او كما صنع ابو بكر ، او
كما صنع عمر ..

قال : ما صنعوا .. !

قال ابن الزبير : قبض رسول الله عليه السلام ولم يستخلف احداً فارتضى
الناس ابا بكر .

قال معاوية : ليس فيكم مثل ابي بكر .. واخاف الاختلاف ..

قالوا: صدقت ، فاصنع كما صنع ابو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش
ليس من بني امية فاستخلفه ، وان شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الامر
شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا من بني ابيه ..

قال معاوية : هل عندك غير هذا .. ؟

قال ابن الزبير : لا

ثم سأل الاخرين : واتم !

قالوا : قولنا قوله ..

قال معاوية : اني قد احببت ان اتقدم اليكم انه قد اعذر من انذر، اني كنت
اخاطب فيكم ، فيقوم الي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فاحمل ذلك
واصفح ، واني قائم بمقالة ، فاقسم بالله لئن رد علي احدكم كلمة في مقامي هذا
لا ترجع اليه كلمة غيرها .. حتى يسبقها السيف الى رأسه ..
ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال له :

-- اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ،
فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما ..
ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر ، فحمد الله واتنى عليه ثم قال :
« ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز امر دونهم ، ولا يقضى
إلا عن شورتهم ، وانهم قد رضوا وباعوا ليزيد ، فباعوا على اسم الله .. »
فباع الناس ، وكانوا يتربصون ببيعة هؤلاء النفر ، تم انصرف معاوية الى
المدينة ...

ولما مات معاوية بايع الناس يزيداً بالخلافة ، وقعد عن بيعته الحسين بن
علي ، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، فكتب يزيد
الى واليه على المدينة ليأخذ له البيعة من هؤلاء النفر . فباعه عبدالله بن عباس ،
وعبدالله بن عمر ، اما عبدالله بن الزبير فانه هرب الى مكة واستعاذ بالبيت
واخذ يعمل على الدعوة لنفسه ، ولكن وجود الحسين في طريقه ، كان يجعل
نجاح دعوته شيئاً صعباً وامراً شديداً ..

ابن الزبير يعلن استقلاله

وينادي بخلافته

مقتل الحسين :

رفض الحسين بن علي ان يبائع ليزيد بن معاوية وغادر المدينة الى مكة حيث اخذت ترده كتب الشيعة في الكوفة بالقدوم اليهم ، فارسل اليهم مسلم بن عقيل ليكون رسوله فيهم ويأخذ له بيعتهم ... فذهب مسلم الى الكوفة ، فالتفت حوله عدد كبير من الشيعة بايعوه على نصره الحسين والحرب في سبيله ، فكتب الى الحسين بما شاهد وسمع ، وحثه على القدوم ..

ويقول ابن الاثير : انه لما نزل الحسين مكة جعل اهلها يختلفون اليه ، ويأتونه ، ومن بها من المعتمرين واهل الافاق ، وابن الزبير بها قد لزم جانبا الكعبة فهوقائم يصلي عندهما عامة النهار، ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي ، والحسين اثقل خلق الله على ابن الزبير ، لان اهل الحجاز لا يبائعونه ما دام الحسين باقيا بالبلد ...

ويذكر ابن الاثير : ان كثيراً من انصار الحسين واصدقائه نصحوه بعدم الخروج الى العراق .. وان عبدالله بن الزبير جاءه يوماً فقال :
- خبرني ما تريد ان تصنع .. ?

فقال الحسين : لقد حدثت نفسي باتياني الكوفة ، ولقد كتبت الي شيعتي بها واشراف الناس واستخير الله ..

فقال له ابن الزبير : اما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها ...
ثم خشي ابن الزبير ان يتهمه الحسين فقال :

- اما انك لو اقمتم بالحجاز ثم اردت هذا الامر هنا لما خالفنا عليك وساعدناك وباعناك ونصحننا لك ...

فلما خرج ابن الزبير من عنده ، التفت الحسين الى اصحابه وقال :

- ان هذا ليس شيء في الدنيا احب اليه من ان اخرج من الحجاز ، وقد علم ان الناس لا يعدلونه بي ، فود اني خرجت حتى يخلو له . . . وسار الحسين الى الكوفة في سنة ستين وقتل في كربلاء في سنة احدى وستين على نحو ما فصلنا في كتابنا (معاوية بن ابي سفيان وعصره ..)
اثر مقتل الحسين :

وكان من اثر مقتل الحسين ، ان اصبح ابن الزبير وحده في الحجاز ، لا يزاحمه احد ، ولا يقف في طريقه شخص ...

وكان من اثرها في السياسة ان وحدت الشيعة ، وازكت نار الحقد في نفوسهم ضد يزيد وعماله ، كما وقف المسلمون ينكرون هذه المأساة المروعة التي كان بالامكان تفاديها لو كان يزيد بعيد النظر وافر الذكاء ، يدرك مقدار الخطر الذي يهدد عرشه وعرش من بعده من جراء مذبحته كهذه تهز المسلمين قاطبة هزاً عنيفاً ...

ظن يزيد انه يدافع عن عرشه بمقاتلة الحسين ومخاربتة ، والحسين في الواقع لما مشى الى الكوفة لم يكن يؤلف مع جماعته وانصاره وعائلته اكثر من ثمانين نفساً رجالاً ونساءً واطفالاً ، ومن المفروض ان جمعاً كهذا يتعذر عليه افتتاح البلد واخضاع مصر ، وانه بالامكان وقفه عند حده وتطويقه ، والقبض على رجاله بالطرق السلمية ، ولكن يزيداً وعامله عبيد الله بن زياد ارتكبا خطيئة سياسية فظيمة ، كان من اثرها تمزق ملك بني سفيان واختلاف المسلمين فيما بينهم اختلافاً عظيماً ..

ويقتل الحسين اصبح التشيع حزباً سياسياً خطيراً له شأنه واغراضه ومبادئه وامتزج التشيع في قلوب اصحاب علي واهله بدمائهم وتغلغل في اعماق نفوسهم واصبح عقيدة راسخة قوية... واصبح الشيعة يشكلون خطراً دائماً على الدولة الاموية ، ينتهزون الفرص للثورة عليها ومخاربة جندها وطرد عمالها والدعوة ضدها ..

وكذلك انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين روابط المصاهرة ، اذ كانوا يرونه احق بالخلافة ثم اولاده من بعده ، لانهم يجمعون بين اشرف دم عربي ، وانقى دم فارسي ...

وصف امير علي :

ويقول السيد امير علي المؤرخ الهندي في وصف مقتل الحسين :
« وهكذا فاضت نفس من ازكى النفوس في ذلك العصر ، وكادت تنقرض بموته افراد اسرة النبي الذكور ، لولا هذا الطفل المريض الذي انقذته زينب اخت الحسين من المذبحة العامة ، وهو علي بن الحسين ، ولقب فيما بعد بزين العابدين ، وهو ابن الحسين من زوجته بنت (يزدجر) آخر ملوك الفرس الساسانيين ... وفي شخصه خلدت اسرة النبي ، كما كان فوق هذا يمثل المطالبين بمرش الفرس من آل ساسان ...

« لقد هزت مذبحه كربلاء العالم الاسلامي هزاً عنيفاً وروّعته بأساتها الدامية ، كما خلقت في فارس شعوراً وطنياً ساعد احفاد العباس فيما بعد علي استغلاله لمصلحتهم الشخصية ، وتقويض دعائم الدولة الاموية .. !!

« وكان من اثر مقتل الحسين ايضاً ان ثارت المدينة ، وطردت عاملها ، وارسل اليها يزيد بن معاوية جيشاً فدارت بين الفريقين معركة شديدة اسفرت عن هزيمة اهل المدينة ومصرع زهرة شباب الانصار والمهاجرين ، وانتهاك حرمة البلد المقدس ، وفي هذه الموقعة هدمت معظم المدارس والمنشآت الهامة ، ودخلت شبه جزيرة العرب في عهد مظلم شديد الخلكة حتى قبض لها جعفر الصادق بعد بضع سنوات فبعث في المدينة روح الحركة العلمية التي كانت قد ازدهرت في عهد الخلفاء الراشدين ، ومع ذلك فانه بالرغم من هذا الانتعاش الوقتي ، فقد بقيت المدينة بلدة لا شأن لها ، لولا وجود قبر الرسول فيها ، ولولا رغبة المسلمين في زيارة هذا القبر المقدس...»

ابن الزبير ومقتل الحسين :

ومن المفروض انه يفيد ابن الزبير من مقتل الحسين كل الفائدة ولعله الشخص الوحيد الذي أفاد من قتله ...

ولما بلغ ابن الزبير مقتل الحسين وهو في مكة اظهر الخلاف على يزيد وقام في الناس خطيباً ، فعظّم قتله وعاب اهل الكوفة خاصة ، واهل العراق عامة ، وعرض ليزيد ، فاظهر بغيه وظلمه وسرفه وشربه للخمر ...

ولما انتهى من خطبته ثار عليه اصحابه وقالوا :

- اظهر بيعتك ، فانك لم يبق احد اذ هلك الحسين ينازعك هذا الامر ...

والظاهر ان ابن الزبير كان يقبل البيعة من اصحابه سراً ، وكان يخشى ان يتظاهر وعمرو بن سعيد يومئذ عامل يزيد على مكة ، وهو اشد شيء على ابن

الزبير، وقد حاول يزيد ان يأخذ البيعة من ابن الزبير قسراً، فلم يوفق عامله الى ذلك، وابن الزبير كائن بالبيت ومعه جماعته يحمونه، فعزل عندئذ يزيد عمر وبن سعيد... وعين الوليد بن عتبة على الحجاز مكانه (١)

وحاول الوليد ان يجد من ابن الزبير غرة، فلم يوفق، ووجده محترزاً ممتعاً، فلما ابصر يزيد ضعف الوليد عزله في سنة اثنين وستين، وولى عثمان بن محمد بن ابي سفيان مكانه، وهو فقي حدث لم يجرب الامور ولم يحنكه السن، وفي هذه السنة اخذت الحالة في المدينة ترداد اضطراباً وقلقاً واخذ اهلها يشتمون يزيداً ويتحدثون عن اخلاقه وفسوقه وقالوا بخلعه، فلما كانت سنة ٦٣ اخرجوا عثمان بن محمد بن ابي سفيان عامل يزيد.. وحصروا بني امية وكانوا يعدون الف رجل، فتحصنوا في بيت مروان بن الحكم وارسلوا يستغيثون بيزيد، فكان ما كان من ارسال يزيد الجيش الى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة واقتحامه اياها، واسرافه في الدم والقتل كما وصفنا...

ولما انتهى مسلم من امر المدينة مشى الى مكة وفيها عبد الله بن الزبير وكان قد بلغه امر المدينة، فاستعد لمحاربة مسلم ومن معه، فمات مسلم في الطريق وولى على الجيش الحصين بن غير، وكان يزيد قد اوصاه بتوليته اذا وقع له شيء، فسار الحسين بالجيش الى مكة وحصرها، (٢) فخرج اليه ابن الزبير في اقباعه وانصاره، ودارت رحى القتال بين الفريقين...

وكان اهل الحجاز قد بايعوا عبد الله بن الزبير واجتمعوا عليه، ولحق به المنهزمون من المدينة، وقدم اليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي في ناس من الخوارج ينعمون البيت ويحاربون في سبيله...

(١) سنة ٦١ للهجرة

(٢) قدم مكة لاربعة بقين من المحرم سنة ٦٤ للهجرة

واقام جيش يزيد يقاتل ابن الزبير بقية شهر المحرم وصفر كله ، حتى اذا
مضت ثلاثة ايام من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ ، رموا البيت بالمجانيق وحرقوه
بالنار ...

وظل هذا شأنهم حتى اتاهم نعي يزيد في ١٤ ربيع الاول وقد وصل اليهم
الخبر في اول ربيع الآخر ...

ابن الزبير والحسين :

ولما بلغ الحصين قائد الجيش خبر موت يزيد.. طلب من عبد الله بن الزبير
ان يجتمعا ، وصار الاجتماع في الليلة نفسها ، فكان فيما قاله له الحصين ... ا
- انت احق بهذا الامر منهم فلنبايعك ، ثم اخرج معنا الى الشام
فان هذا الجند الذي معي هم وجوه الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف
عليك اثنان ... وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين
اهل الحرم ..

فقال ابن الزبير : انا لا اهدر الدماء ابداً .. والله لا أرضى ان اقتل بكل رجل
منهم عشرة منكم ..

واخذ الحصين يكلمه سرأ ، وابن الزبير يرفع صوته ويقول : والله لا
أفعل ..

فقال الحصين : قبح الله من يهدك بعد ذاهباً وايباً ، قد كنت اظن ان
لك رأياً ... وانا اكلتك سرأ ، وتكلمني جهراً ، وادعوك الى الخلافة وانت لا
تريد الا القتل والهلكة ...

ثم فارقه ورحل هو واصحابه نحو المدينة ...

وندم ابن الزبير على ما صنع فارسل اليه : اما المسير الى الشام فلا افعله ،
ولكن بايعوا لي هناك ، فأني مؤمنكم وعادل فيكم ..

فقال الحصين : ان لم تقدم بنفسك لا يتم الامر فان هناك ناساً من بني امية يطلبون الخلافة ...

وسار الحصين الى المدينة ، واجتمع اهل المدينة على الجيش المتراجع .. فكان لا ينفرد منهم احد الا أخذت منه دابته ، وخرج معهم بنو امية من كانوا في المدينة الى دمشق ...

لماذا تناقل ابن الزبير عن الذهاب الى الشام :

اما الاسباب التي دعت ابن الزبير الى التناقل عن الذهاب الى الشام فلا يعرض لها احد من المؤرخين ، ويكتفون بالقول انه ندم على عدم اخذه برأي الحصين ... ويبدو لنا ان ابن الزبير لم يكن واثقاً من مركزه ، حتى في الحجاز نفسه ، فاذا كان الحسين بن علي قد انتقل الى رحمة ربه فقد كان هناك في الحجاز ، عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وكان مركزهما الشخصي اعظم من مركز ابن الزبير واعظم ، وان كانا من الاشخاص الذين يجبون العاقبة ويفرون من الحروب واطارها ، والفن ومثقلاتها ومشاكل الدنيا والسياسة وما اليها ...

ولم يكن ابن الزبير في الوقت نفسه وبعد ان قسا جند يزيد على اهل المدينة ، وارعبوهم وفتكوا بهم ، وحاصروا مكة ، ونصبوا المجانيق حول الكعبة ورموا البيت بالنار والحجارة ، يثق باهل الشام ومن اولاهم ، وكان يخشى ان هو ذهب الى دمشق ان يثوروا عليه ويقتلوه ، او يجربوه ، ويخذله جماعة الحصين ، كما فعل جماعة الكوفة بالحسين ...

وابن الزبير في الواقع كان من الاشخاص الذين لا يأمنون احداً .. ولا يثقون بأحد كما يظهر ، فقد شاهد بعض اهل يثور عليه ، وينضم الى عدوه وعرف ان الناس في الحجاز لم يبايعوه حياً به ، ولكن حقدوا على بني امية وعمالهم ، خصوصاً بعد مقتل الحسين ، كما وقف عبدالله بن عباس وعبدالله بن

عمر موقف المتفرج من كل هذه الفتن ... فلم يؤيداه ولا بايعاه ..
وشيء آخر ايضاً : وهو هسل كان ابن الزبير يحلم بخلافة علي غرار
خلافة ابي بكر وعمر ، او على غرار خلافة معاوية مثلاً تمتد من المشرق الى
المغرب ؟ ام انه كان يريد خلافة متواضعة تشمل الحجاز والعراق وفلسطين
مثلاً... تاركاً اهل الشام وشأنهم ، لا يحرك نجوم ساكننا ، ان هم تركوه وشأنه ..
في الجواب على هذا السؤال الخطير .. كل السر في تريت ابن الزبير وترده
ومكوته في الحجاز ورضاه بالخلافة تأتيه وهو قابع في مكة ، لا يمدّ لها يداً ،
ولا يحرك حرباً . . إلا ما كان من بعثه مصعباً اخاه على رأس جيش الى
العراق ... بعد ذلك لضم العراق اليه ..

- ٧ -

عبد الله بن الزبير

١ - ٧٣ - هجرية .

سياسة الرجل والسبب في خذلانه ، امره مع الخوارج ،

والاضطرابات السياسية في العراق

هدى الله بن الزبير وشخصيته :

والواقع ان ابن الزبير شخصية غريبة جمعت كثيراً من المتناقضات ، كان يريد الزعامة السياسية والخلافة ما في ذلك شك ولا ريب ، ولكنه كان يريد لها وهو قابض على ما بيده من المال ، قابض في مكانه في مكة ، لا يتكلف لونا من الوان السياسة واجتذاب الناس ، ولا يحاول شيئاً من الدعاوة والتلطف الى الانصار والاجناد .

كان باسلاً شجاعاً ولكنه ضعيف الرأي ، شديداً حين لا تجب الشدة ، ولا تصلح القسوة ، بجيلاً حين يجب الكرم .. ويمسح بالبذل والانفاق .

ولم يبدأ عبدالله بن الزبير في الدعوة لنفسه والتفكير في الخلافة والزعامة إلا بعد مقتل الحسين بن علي، ولولا مقتل حفيد محمد بن عبدالله، لصعب على ابن الزبير ان يحدد بين الناس اعواناً وانصاراً يؤيدونه ويتناصرونه .

واذن فان مبدأ دعوته لم يكن يرجع الى ما قبل سنة ٦٣ للهجرة ، وان كان هناك من المؤرخين من يعتمد برواية بن عبد ربه في العقد الفريد، ويزعم ان عبدالله بن الزبير كان يفكر حقاً في الخلافة ، منذ امره عثمان بن عفان على داره ، لان استخلاف عثمان له دون اصحابه الذين كانوا معه ، كان في اعتقاده يدل على كفاءته ومقدرته .

لكن ابن الزبير كان رجلاً غريب الاطوار ، كثير البخل ، ضيق الصدر ، محدود النظر ما نعرف في التاريخ انه حاول امراً فوطد له وجوهه ، ورتب له شؤونه ، وسهل له مخالفته ، فهو في الواقع كان كثير الانحراف ، كثير التحايل مضطرب الرأي ، ضعيف المعارف ، قليل السياسة ، معدوم الدهاء السياسي اتته الدنيا منقاداً اليه ، فلم يوفق الى استثمار الخلافة ، ولا نجاح في توطيد مركزه ، وتقوية جماعته .

وما بالك بشخص تأتبه الخلافة منقاداً دون ان يسعى اليها ، وهو قابع في بيته ، منزو في قلب الجزيرة ، ثم لا يحرك بنفسه ساكناً ، لتوطيد ملكه وتوحيد صفوف جماعته ، ولا يفكر في الزحف الى الشام ، لتعزيد انصاره فيها كالضحاك بن قيس وجماعته من قيس ، ويتركهم وشأنهم حتى يوفق مروان بن الحكم الى تمزيق صفوفهم ، والغلبة عليهم .

واذا نظرنا الى المصادر التاريخية التي بين ايدينا نرى ان ابن الزبير لم يكن قوياً بنفسه ، وانما كان قوياً بجأله عائشة ام المؤمنين زوج رسول الله ، التي كان يعيش في بيتها ، ويسكن اليها ، وكانت تحبه ، وتحرص على اكرامه وتقوية نفوذه ، وقد يكون هو الذي دفعها لمحاربة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ،

بما كان له من الدالة عليها ، حتى ليقال انها كانت تسعى لتحويل الخلافة اليه .
فاذا انتقل (علي) الى رحمة الله ، وافضت الخلافة الى معاوية نرى ابن الزبير
يسكن للامر الواقع على غضاضة ، وحقد عظيم ، وسبب ذلك بما نعتقد انه كان
يعلم ضعفه وعجزه ، وانه لا يستطيع عملاً والحسن والحسين حيان يرزقان ..
وكان معاوية يعلم من امر ابن الزبير اكثر ما يعرف هو من نفسه ، وقد
وصفنا رأي معاوية في كتاب سابق ، فقربه وعززه ، وافضى اليه بالعطاء
والنوال ، وارسله مع البعوث المختلفة الى القسطنطينية تارة والى غيرها اخرى
وقيا عدا ذلك نراه منزوياً في بيته ، لا يعرض لشؤون السياسة ، ولا يتحدث
فيها إلا على قدر ..

ولكنه لما علم بعزم معاوية على بيعة يزيد من بعده ، اخذ يجرّض قريشاً
على المعارضة ، حتى اضطر معاوية الى تهديده ، فاستكان امام العاصفة ، وظل
يوغر صدور الناس في مكة ، ويجرّض الحسين بن علي على المطالبة بالخلافة ،
حتى مشى الحسين الى الكوفة - رغم نصيحة عبدالله بن عباس له ان لا يفعل -
حيث قتل في معركة كربلاء كما هو معلوم ومشهور ..

وبمقتل الحسين ووفاة شقيقه الحسن من قبله ، خلا الجو لابن الزبير ، فاخذ
عندئذ يدعو لنفسه ، ولكن موقف عبدالله بن عباس منه ، وامتناع محمد بن
الحنفية بن علي بن ابي طالب عن مبايعته - وكان قد بايع يزيد بن معاوية -
فت في عضده ، وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامة المختار بن عبيد
الثقيفي الذي ظهر في الكوفة بعد مقتل الحسين .

ومع ذلك فقد تمكن ابن الزبير من تعزيز حزيه ، ونشر دعوته ، ولم يكن
مرذ ذلك حب الناس له ، وانما كرههم لبني سفيان ، وسياسة يزيد بن معاوية
التي مزقت المسلمين وجعلتهم شيعاً ، فقد استثمر ابن الزبير كل هذه الحوادث
وروّج لها بين المسلمين ، واذاعها في كل الامصار ، فكان له ما يرغبه من نعمة

الشعوب الاسلامية على بني امية وانقلابهم عليهم وعلى عمالهم ، وتوليتهم وجهم
الشخص الوحيد الذي كان يناوئهم ، ولم يكن هذا الشخص غير عبد الله بن
الزبير .

الخوارج :

ونترك الان ابن الزبير لشأنه ، لنبحث موقف الخوارج منه ومن الحالة
الاسلامية في البلاد العربية ، بحيث يتصل البحث بعضه مع بعض ، وتتلاحق
الحوادث في نظامها التاريخي المطرد .

كان ابن زياد قد اشتد على الخوارج في العراق عامة والبصرة خاصة اشتداداً
عظيماً ونكل بهم ، فاجتمعوا وتذاكروا ، فقرّر رأيهم على الذهاب الى ابن الزبير
الذي ثار على امية ، وارسل له يزيد جنداً من اهل الشام لمهاريته ، فلما قدموا
على ابن الزبير سرّ بقدومهم ، واخبرهم انه على مثل رأيهم ، فقاتلوا معه اهل
الشام حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف اهل الشام ، فساد الخوارج الى
الاجتماع وقالوا :

— ان الذي صنعتم بالامس ، لغير رأي ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله
ليس على مثل رأيكم ، وقد كان بالامس يقاتلكم وابوه ، وينادي : « يا ثارات
عثمان » فاثتوه واسألوه عن عثمان فان برىء منه كان وليكم ، وان ابي كان
عدوكم ..

فأتوه فسألوه ، فنظر فاذا اصحابه حوله قليل ...
فقال : اتيتوني حين اردت القيام ، ولكن روّحوا العشية حتى اعلمكم .
فانصرفوا ، وبعث الى اصحابه فجمعهم حوله بالسلاح ، وجاءت الخوارج ،
واصحابه حوله وعلى رأسه وبايديهم العمدة فقال ابن الازرق لاصحابه :

— ان الرجل قد ازمع خلافكم .
فتقدم اليه نافع بن الازرق وعبيدة بن هلال فقال عبيدة بعد حمد الله :

— اما بعد فان الله بعث محمداً يدعو الى عبادته فدعا الى ذلك ، فاجابه المسلمون فعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله ، واستخلف الناس ابا بكر ، واستخلف ابو بكر عمراً فكلاهما عملا بكتاب الله وسنة نبيه ، ثم ان الناس استخلفوا عثمان فحمى الاحماء وآثر القربى ، واستعمل الغني ، ورفع الدرّة ووضع السوط ، ومزق الكتاب وضرب منكر الجور ، وآوى طريد رسوا. الله ، وضرب السابقين بالفضل وحرّمهم ، واخذ فيء الله الذي افاء عليهم فقسمه في فساتق قريش ومجان العرب ، فسارت اليه طائفة فقتلوه فنحن لهم اولياء ، ومن ابن عفان واوليائه براء ، فما تقول انت يا ابن الزبير ؟

قال : فهبت الذي ذكرت به رسول الله ، فهو فوق ما ذكرت ، وفوق ما وصفت ، وفهمت ما ذكرت به ابا بكر وعمر وقد وفقت واصبت ، وفهمت الذي ذكرت به عثمان واني لا اعلم مكان احد من خلق الله اليوم اعلم بابن عفان وامره مني ، كنت معه حيث نقم عليه ، واستعبوه فلم يدع شيئاً الا اعتبيهم ، ثم رجعوا اليه بكتاب يزعمون انه كتبه ، يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم : « ما كتبه فان شئتم فهاؤوا بينتكم ، فان لم تكن حلفت لكم ، فوالله ما جاؤوه ببينة ولا استخفوه ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عبته به فليس كذلك بل هو لكل خير اهل ، وانا اشهدكم ومن حضرني اني ولي لابن عفان وعدو اعدائه فبرئني الله منكم .. »

فنظر الخوارج بعضهم الى بعض ثم انصرفوا ، وتفرقوا ، فسارت طائفة الى البصرة ، وطائفة الى اليمامة ، فكان من سار الى البصرة نافع بن الازرق في اصحابه ، وقد امرّوه عليهم .

اختلاف الخوارج :

ولقد عرضنا في كتابنا (الخوارج في الاسلام) الى نشؤ الخوارج ، وكيف كان مرد ذلك مسألة التحكيم الذي جرى عليه الاتفاق بعد معركة صفين بين

علي ومعاوية ، وكيف انهم اعتبروا مسألة التحكيم نوعاً من الكفر لان كتاب الله واضح لا يقبل تحكيميا . وانهم لما حاربوا معاوية مع علي كانوا على الحق ، وكان معاوية معتدياً فلماذا التحكيم والحالة هذه في امر ظاهر لا سبيل الى الشك فيه . ؟

وكذلك خرج الخوارج على علي ، وانشقوا عليه ، مع انهم كانوا بالامس من حزبه واعوانه ، لانهم كانوا يمتقدون ان علياً امام بويح بيعة صحيحة فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه ، بل كان الاجدر به ان يمضي في حريمهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس ، او يقتلوا عن آخرهم .

وهذه النظرية في الواقع ليست بعيدة عن المنطق ، ولكن المنطق لا يصح ان يؤخذ دستوراً عاماً لكل الحوادث التي تقع في الحياة .. او قد تحصل بين الجماعات والاحزاب ، وخطأ الخوارج كان في اغراقهم وتعصبهم لفكرتهم هذه تعصباً استحلوا معه تمزيق كلمة المسلمين ، وقتل الابرياء ، وسفك الدماء ، فحاربوا علياً ومعاوية وكل خليفة وجماعة لم تماسيهم على رأيهم ولا ايدت فكرتهم المضطربة الشديدة ..

وظل الخوارج فئة واحدة حتى عام ٦٤ للهجرة ثم انقسموا بعده الى طوائف عديدة لا تقل عن عشرين فرقة ، تختلف فيما بينها في الفروع لا في الاصول . ويدور مذهب الخوارج كله حول الكفر والايان ومسألة الحكم ، وتشددوا في ذلك تشدداً عظيماً ، فلم يعدوا مؤمناً إلا من تخرز عن الكبائر .. خطأوا عثمان بن عفان فيما فعله في سنه الاخير فكفروه ، ونظروا مثل ذلك الى علي وحزبه وخصومه فكفروهم جميعاً ، لأنهم قبلوا التحكيم وكتاب الله واضح لا يقبل تحكيميا ، ثم قالوا : ان الولاة الظلمة من معاوية وقومه من الامويين كفرة ، ويجب ان يقابل كفرهم وظلمهم وجورهم بالخروج عليهم جهاراً .

فهم بهذا على النقيض من الشيعة في امرين اساسيين ، فبينما يقدر الشيعة

علياً يخالفه الخوارج .

وبيننا يعدّ الشيعة من الحكمة (التقية) وعدم التظاهر بما في القلب اذا كان في ذلك خطر على المرء ، يعدّ الخوارج من اصولهم الخروج على السلطان الجائر في غير موارد ، ومن غير نظر الى قوتهم الضعيفة ، وقوة الحاكم القوية ، وهم كذلك يتمسكون اشد التمسك ببدا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في غير موادة ولا تردد .

والمع فكرة لهم رأيهم في الخلافة ، وانه اذا كان لا بد منها ، فاصح الناس احق ان يتولاها ، قریشياً كان او غير قریشي ، عربياً كان او غير عربي ، فهم ينكرون والحالة هذه نظرية الشيعة في الامامة وانها جزء من الدين والايان ، وان آل محمد احق بها من سواهم ، كما ينكرون في الوقت نفسه نظام الوراثة وتفويض الخليفة الامر لمن يليه كما هو شأن الامويين .

ثم اذا صار انتخاب الخليفة وتمت البيعة له ، وسار سيرة لا تتفق والمصلحة الاسلامية ، بان جار وظلم وجب عزله ، فان اعتزل فيها ، وإلا قوتل حتى يقتل .

وسنعرض في فصل مقبل لثورات الخوارج في العراق وغير العراق .

التوابون :

ويجمل بنا الان قبل الاخذ بمحدث الخوارج بعد هذا التاريخ ان نعود لما نحن بسبيله من دراسة الحوادث التي وقعت بين سنتي ٦٤ و ٦٥ للهجرة ، وان نلم بامر التوابين في الكوفة ، وما كان من شأنهم وخبرهم حتى انهزامهم ومصرعهم ...

لما قتل الحسين ورجع عبيد الله بن زياد من معسكره ، اكبر الشيعة في الكوفة النكبة ، واعتبروا انفسهم مسؤولين عنها لانهم هم الذين زينوا للحسين بن علي القدوم اليهم ، فلما مشى الى الكوفة ، تشاقلوا عن نصرته ، فتخاطفته

السيوف ، وكان ما كان من مصرعه المريع ، ومقتله المحزن .
وعندئذ اخذ الشيعة في الكوفة يجمعون الى خمسة نفر من رؤسائهم ، الى سليمان بن سرد الخزاعي وكانت له صحبته ، والى المسيب بن نجبة الفزاري وكان من اصحاب علي ، والى عبدالله بن سعد بن نفيل الازدي ، والى عبدالله ابن والي التيمي ، والى رفاعة بن شداد البجلي ، وصار الاتفاق فيما بينهم على الطلب بدم الحسين ، واخذوا يكتبون الى انصارهم واصحابهم بالتجهز والاستعداد والدعوة بين اشياعهم لهذا الامر ، ولم يزل هذا شأنهم حتى هلك يزيد بن معاوية ، فجاء الى سليمان بن سرد اصحابه فقالوا :

... قد هلك هذا الطاغية والامر ضعيف ، فان شئت وثبنا على عمرو بن حريث ، وكان خليفة بن زياد على الكوفة ، ثم اظهرنا الطلب بدم الحسين ، وتبعنا قتلته ، ودعونا الناس الى اهل هذا البيت المستأثر عليهم ، المدفوعين عن حقهم .

فمنصحه سليمان بالترث لان قتلة الحسين اشراف البلد ، وانه قد نظر فيمن تبعه منهم ، فرأى انهم لو خرجوا لم يدركوا تأرهم ولم يشفوا نفوسهم ، وان الحكمة تقضي ببث الدعوة واستجلاب الناس اليهم .

فعمل القوم بمشورته ففشا امرهم ، وازداد انصارهم ، وكان اهل الكوفة بعد هلاك يزيد ، قد اخرجوا عمرو بن حريث وابعوا لابن الزبير ، وبعدها اشهر من ذلك ، قدم المختار بن ابي عبيد الكوفة ، وقدمها ايضاً عبدالله بن يزيد الانصاري اميراً من قبل ابن الزبير ، واخذ المختار يدعو الناس الى قتال قتلة الحسين ، ويقول :

... جئتمكم من عند المهدي محمد بن الحنفية ، وزيراً اميناً ...

فرجع اليه طائفة من الشيعة .

وكان يقول : « انما يريد سليمان ان يخرج فيقتل نفسه ومن معه وليس له

بصر في الحرب » .

ولكن سليمان بن سرد واصحابه كانوا يعضون في تجهيزهم ، لا يابهون ولا يحفلون .

المختار :

وهنا يظهر على مسرح السياسة العربية شخص جديد ، جديد بكل ما في الكلمة من معنى ، باسل جريء مشهور بمجازف ، صلب الرأي كثير الطموح ، شديد الحرص على سلطان يؤيد مركزه ، ويقوي من شخصيته ، بحيث يتكلف لذلك مختلف الاهوال ، والوان الصعاب .

لقد جاء المختار وهو في قرينه خبر قدوم مسلم بن عقيل رسول الحسين بن علي الى الكوفة ، فاقبل في مواليه ، فخاف عبيدالله بن زياد شره فضربه وحجسه ، ثم اطلق سراحه بعد توسط عبدالله بن عمر بن الخطاب بشأنه مع يزيد ، وكان عبد الله بن عمر قد تزوج اخت المختار .

فلما خرج المختار من السجن - وذلك بعد مقتل الحسين - ذهب الى ابن الزبير في الحجاز ، بعد ان علم انه المائد بالبيت ، وانه يبائع لنفسه سراً ، وقد ادرك المختار انه لم يبق غير ابن الزبير بعد مقتل الحسين فذهب اليه لعله يوفق معه ويفيد منه .

ويرى المختار رجلاً من العرب في الطريق فيسأله عن ابن الزبير فينتبه بخبره ، فيقول له وهو يحاوره :

« انه رجل العرب اليوم ، وان اتبع رأبي اكفه امر الناس ، ان الفتنة اعدت وابرقت ، فاذا سمعت بكان قد ظهرت به في عصابة من المسلمين اطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين وابن بنت سيد المرسلين ، فوربك لاقتلن بقتله عدة من قتل على دم محمي بن زكريا » .

ومن هذا الحديث تظهر لنا ناحية من شخصية المختار ، رجل حرب ودم ومعارك وزحوف ، رجل على التحقيق كان يسعى لمصلحه الخاصة ، قبل ان

يسعى لمصلحة غيره ، وما دعوته لفلان و فلان الا شعاراً كان يتخذه للوصول الى غاياته وتحقيق اغراضه .

ويأتي المختار ابن الزبير ، فيكتم هذا عنه امره ، فيفارقه المختار سنة كاملة ، فيسأل عنه ابن الزبير فيقال له : انه بالطائف .

وبينا هو في حديثه عنه يدخل المختار المسجد فيطوف ويصلي ركعتين ويجلس غير بعيد عن ابن الزبير ، ويأتيه معارفه يحدثونه ويحدثهم ، فيرسل له ابن الزبير عباس بن سهل بن مسعر ، فيأتيه فيسأله عن حاله ويقول له :

— مثلك لا يغيب عن الذي اجتمع عليه الاشراف من قريش والانصار وثقيف ، ولم يبق قبيلة الا وقد آتاه زعيمها ، فبايع هذا الرجل ..

فيقول : اني اتيتك العام الماضي و كتم عني خبره ، فلما استغنى عني احببت ان أريه اني مستغن عنه .

فقال له العباس : القه الليلة وانا معك .

فاجابه الى ذلك ، ثم حضر عند الزبير بعد العتمة ، فقال المختار :

— ابايحك على ان لا تقضي الامور دوني ، وعلى ان اكون اول داخل ، و اذا ظهرت استعنت بي على افضل عملك ، فقال ابن الزبير : ابايحك على كتاب الله وسنة رسوله . فقال المختار : وشر غلماني تبايعه على ذلك ، والله لا ابايحك ابداً إلا على ذلك . فبايعه ، فاقام عنده ، وشهد معه قتال الحصين بن غير ، وابل احسن بلاء ، وقاتل اشد قتال ، وكان اشد الناس على جند الشام .

فلما هلك يزيد بن معاوية ، واطاع اهل العراق ابن الزبير ، اقام عنده خمسة اشهر فلما رآه لا يستعمله ، جعل لا يقدم عليه احد من اهل الكوفة إلا سأله عن حال الناس ، فاخبره بعضهم باتساق اهلها على طاعة ابن الزبير ، الا ان هناك طائفة لا تزال مترددة ... فلو كان لها زعيم لقلب الارض بها .

ففطن المختار عندئذ الى نفسه ، وادرك انه لن يوفق مع ابن الزبير ، مسا

زال لا يستعمله ، فقرر السير نحو الكوفة ، وسار اليها لا يرى احدأ في طريقه من العرب الا بشره بالنصر القريب ، والفتح العاجل ، وانهيار الباطل ، وتزريق القتلة .

ولما وصل الى الكوفة واجتمع اليه بعض اهلها اخذ يقول :

« ان المهدي بن الوصي ^(١) بعثني اليكم اميناً ووزيراً واميراً ، وامرني بقتل الملحدين والطلب بدم اهل بيته ، والدفع عن الضعفاء ، فكونوا اول خلق الله اجابة » .

فصروا على يده ، وباعوه ، وبعث الى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان بن صرد وقال لهم نحو ذلك ، وان سليمان بن صرد ليس له بصر بالحرب ولا تجربة بالامور ، وانما يريد ان يخرجكم ويقتلكم ويقتل نفسه ، وانا اعمل على مثال مثل لي ، وامر بيتن لي ، اعين وليكم ، واقتل عدوكم ، واشفي صدوركم ، فاسمعوا قولي واطيعوا امري ، وما زال بهذا ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة ، صاروا يختلفون اليه ، ويعظمونه ، وعظما الشيعة مع سليمان لا يعدلون به احدأ .

ولما خرج سليمان بن صرد مع انصاره من الشيعة (التوابين) ظل المختار في الكوفة ، حتى قبض عليه بعض اهلها وسجنوه خوفاً من شره ، ولكثرة ما بلغهم عن لسانه من رغبة بالوثوب والاستيلاء على الكوفة ، ويقول بعض المؤرخين غير ذلك في قدوم المختار الى الكوفة ، وانه قدم اليها بالاتفاق مع ابن الزبير لمل الشيعة فيها على مقاتلة اهل الشام .

مسير التوابين :

وفي ربيع الاول من سنة ٦٥ للهجرة ، خرج سليمان بن صرد في وجوه

(١) يريد محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب .

اصحابه من التوابين^(١) بعد ان تحالفوا على بذل نفوسهم واموالهم ، في الاخذ
بثأره ومقاتلة قتلته ، واقرار الحق في نصابه بتنصيب رجل من اهل البيت ،
فوصلوا الى (عين الوردة) في ربيع الآخر من السنة نفسها حيث اشتبكوا
مع جند عبيدالله بن زياد الذي كان مروان بن الحكم قد ارسله على رأس جيش
للاستيلاء على العراق واقربه عبد الملك بن مروان بعده على ذلك ، ولما تلاقى الجيشان
انهزم الشيعة بعد قتال عنيف ، كان جند عبيدالله بن زياد فيه اشد عدداً ،
وامضى سلاحاً ، وقتل رئيسهم سليمان بن صرد ، وعاد المنهزمون الى الكوفة ،
فوجدوا المختار في السجن ، فكتب اليهم ينسيهم بالنصر ويعرفهم ان الذي امره
هو محمد بن علي المعروف بابن الحنفية بطلب الثأر ، فقرأوا كتابه وسروا به ،
وبعثوا اليه يقولون :

— اننا بحيث يسرك . فان شئت ان نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا .

فقال لهم : اني اخرج في ايامي هذه .

وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب بشأنه ايضاً ، فأفرج عنه ، فعاد الى
داره واخذ يستعد للثورة .. والشيعة تختلف اليه ، وقد اتفقوا على الرضاء به ،
ولم يزل اصحابه يكثرون ، وامره يقوى حتى عزل ابن الزبير عامله على الكوفة ،
واستعمل عبدالله بن مطيع ، فوثب عندئذ المختار برجاله على الكوفة واميرها
الجديد فانزعجها منه .. ونادى بنفسه اميراً عليها باسم محمد بن الحنفية .

محمد بن الحنفية :

والواقع ان رفض محمد بن علي بن ابي طالب الملقب بابن الحنفية مبايعة ابن
الزبير ، ساعد المختار على تكوين حزب شيعي جديد ، وهو حزب الكيسانية ،
وكانت الشيعة في اول الامر تدعو لابناء الحسين دون غيرهم ، فلما ظهر المختار
اخذ يدعو لمحمد بن الحنفية ، وان كان المؤرخون يختلفون في موقف ابن الحنفية

(١) وهم الذين تابوا عن تناقلهم من اغاثة الحسين ونصرته .

من هذه الدعوة الجديدة اختلافاً عظيماً ، فبعضهم يقول انه ايدها ، وآخرون يقولون : انه اباهما ، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا اباه واخويه .
وقد ذكر المقرئ في كتابه (الملقى الكبير) « ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ،
المجلد الثاني ورقة ١٢٨ » . . . ان فريقاً من اهل الشام وعلى رأسهم مسلم بن عقبة
المري ، ساروا الى الحجاز لقتال انصار ابن الزبير ، وان فريقاً آخر ممن شايعوا
ابن الزبير في الكوفة وعلى رأسهم عبدالله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة
وعبدالله بن عمر بن الخطاب ، جاؤوا الى محمد بن الحنفية فقالوا له :

— اخرج بنا فقاتل يزيد .

فقال : على ماذا اقاتله ولم اخلمه ؟

فقالوا : انه كفر .. وشرب الخمر .

فقال لهم : ألا تتقون الله .. هل رآه احد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد

صحبتة اكثر مما صحبتموه فما رأيت به سوءاً .

قالوا : انه لم يكن يطلعك على فعله .

قال : أفا طلعكم اتم عليه ؟

فخافوا ان يثبط قعوده الناس عن الخروج ، فعرضوا عليه ان يبأيعوه

إذ كره ان يبأيع ابن الزبير .

فقال : لست اقاتل تابعاً او متبوعاً .

قالوا : فقد قاتلت مع ابيك ؟

قال : وابن مثل ابي اليوم !

فاخرجوه كارهاً ومعه بنوه مسلحين ، فحمل اهل الشام عليه ، فضارب

بنوه دونه فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب ابو هاشم قاتل اخيه فقتله ، ثم خرج

ابن الحنفية الى مكة من فوره ،

الكيسانية والمختارية :

وهناك في الوقت نفسه اختلاف بين المؤرخين في نسبة الطائفة الكيسانية ، فبعضهم ينسبها الى كيسان مولى علي بن ابي طالب الذي قتل في معركة صفين سنة ٣٧ هـ (١) ، وغيرهم ينسب هذه الفرقة الى المختار بن عبيد (٢) .

وهناك كثير من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : « ان هناك شخصين مختلفين هما : المختار بن ابي عبيد ، وكيسان ابو عمرة (٣) » . ويقول الشهرستاني : ان هناك طائفتين مختلفتين ، الكيسانية والمختارية ، الاولى تنسب الى كيسان مولى علي ، والثانية الى المختار بن ابي عبيد (٤) .

هذا التناقض يجعل الاهتداء الى اصل الكيسانية صعباً جداً ، وان كان ابن سعد في طبقاته ، يذكر اسم ابي عميرة كيسان مع اسماء غيره من الرجال الذين شهدوا بان ابن الحنفية سمح للمختار بان يبيت الدعوة باسمه ، وان كان هذا القول لا يتفق مع تاريخ ابن الحنفية الذي يابح ليزيد بن معاوية ، لانه لم يكن يثق باهل الكوفة .

ولكن الواقع وفاقاً لما لدينا من المصادر ، هو ان الكيسانية كانوا انصار المختار ، وهذا يستلزم ان الكيسانية هم المختارية ، وعلى ذلك يكون لفظ الكيسانية نسبة الى كيسان مولى يجملة رئيس حرس المختار ، ويبعد ان

(١) الطبري ، والبغداد في كتابه « الفرق بين الفرق ص ٢٧ » الشهرستاني (الملل والنحل ج ١ ص ١٦٩) ...

(٢) المسعودي - مروج الذهب -

ابن عبيد ربه - المقدم الفريدي . وكلام المسعودي فيه شبه من القلق لانه لا يميز بذلك .

(٣) الفصل في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤ .

(٤) كتاب فرق الشيعة للنويني ص ٢١ - ويذكر الطبري « ٢ - ٦٧١ » ان ابا عمرة كيسان مولى يجملة هو رئيس شرطة المختار .

ينسبوا الى كيسان مولى علي ، لانه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين سنة .
اما الدينوري في الاخبار الطوال فيقول : « وكان على الكوفة يومئذ من
قبل عبدالله بن الزبير عبدالله بن مطيع ، فارسل ابن مطيع . لما نقل له انصاره
رغبة المختار بالثورة - يقول له : « ماهذه الجماعات التي تغدو وتروح اليك . »
فقال المختار : مريض يعاد .

فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه :
- عليك يا ابراهيم بن الاشر فاستمله ، فانه متى شايئك على امر ظفرت به ،
وقضيت حاجتك .

فارسل المختار الى جماعة من اصحابه فدخلوا عليه ويده صحيفة مختومة
بالرصاص فقال الشعبي : « وكنت فيمن دخل عليه .. » فقال لنا :
- انطلقوا بنا حتى تأتي ابراهيم بن الاشر .

فمضينا معه ، وكنت انا وزيد بن انس الازدي ، واحمد بن سليط ، وعبد
الله بن كامل ، وابو عمرة كيسان مولى بجيلة ، وكان من بعد ذلك على شرط
المختار .

وهنا تنتقل الى الكيسانية ، او الى هذا المذهب الذي خلقه المختار تنفيذاً
لمآربه ، والذي نعتقد ان ابن الحنفية لم يكن على علم به ، ولا رأي له فيه ،
ويقول المستشرق (فان فلوتن) ان عقيدة السبئية^(١) قد بنيت على الرأي القديم
القائل بتجسد الالهية ، وان هذا المذهب يختلف عن حزب الكيسانية الذي
ظهر في بادىء امره في الكوفة تحت زعامة المختار ، وعلى الرغم من عقيدتهم
الاصلية ، وهو القول بامامة محمد بن الحنفية بعد علي ابيه ، فان الكيسانية
يغالون في اعتقادهم باحاطة الائمة بالعلوم الالهية ، وان محمد بن الحنفية الامام
قد احاط بالعلوم كلها ، وان اخويه الحسن والحسين قد عهدا اليه بالاسرار ،

(١) جماعه عبدالله بن سبا الذي نسب الى علي صفات الالهية .

ويعلم التأويل والباطن ، وقد انتهى اعتقاد الكيسانية بوجود افراد الامام بتأويل الشريعة الى القول بضرورة طاعته ، لان طاعته طاعة القانون الالهي . ومن المعتقدات الكيسانية ... ان الله سبحانه وتعالى يغير ما اراد ، وتناسخ الارواح ، وهو خروج الروح من جسد وحاولها في جسد آخر ، وفي الرجعة ، اي رجعة محمد بن الحنفية ، كما يعتقدون ايضاً بنبوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية ، وان كانوا يختلفون في ان ابن الحنفية ورث الامامة مباشرة من علي ، او عن طريق اخويه الحسن والحسين (١) .

وكذلك نرى كيف بث المختار هذه العقائد الغريبة في الكوفة ، وكيف وجد ارضاً خصبة لها ، فتعلق به الناس والتف حوله جيش التوابين بعد رجوعه الى الكوفة ، فلما احس بقوته ، نهض في الكوفة كما قدمنا ، ووثب على عامل ابن الزبير فطرده منها ، واستولى على دار الامارة ، واخذ يتتبع قتلة الحسين وانصارهم واعوانهم لا يبقى على احد منهم ولا يذر .

ولقد ذكرنا في مكان اخر كيف ان مروان بن الحكم لما استوثق له امر الشام ، بعث جيشين احدهما الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ، وقد ذكرنا كيف غلبه ابن الزبير وشرّد جنده ، والجيش الاخر الى العراق ، مع عبيدالله بن زياد وقد ذكرنا ما كان من امره وامر التوابين وكيف وفق الى كسرهم وتشتيتهم ،

(١) يقول فان فلوتن في كتابه السيادة العربية والشيعة - تقلا عن (فان غلودر) في بحشه عن المختار « قيل ان ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد وحذا حذوه غيره من الائمة » وعلق فان فلوتن على ذلك قائلاً « وهنا يتساءل المرء باي مظهر من مظاهر الترحاب قابل الائمة هذه المعتقدات المفرقة في الفخر ، التي كانت اشخاصهم السبب في ظهورها ؟؟ »

وقد رأينا كيف ان علياً انكر على السبئية الصفات الالهية التي نسبها اليه ، ورمى في النار من دعوا اليها ، ونفى عبدالله بن سبأ الى المدائن ، ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك اياه في عراطفه واراته الدينية ، فتبرأ من اعتقدوا باحاطته بعلم التأويل والباطن ، ويذكر ابن سعد في طبقاته « ان ابن الحنفية لما علم باعتقاد الكيسانية ان ال البيت يلمون بجميع العاصم قال : « والله ما ورتنا من رسول الله الا ما بين هذين اللوحين ، يعني (القرآن) »

وقتل كبارهم وزعمائهم ، وكيف عاد الباقون الى الكوفة وانضموا الى المختار ، وكان مروان بن الحكم قد جعل لابن زياد ماغلب عليه ، وامره ان ينهب الكوفة ثلاثاً ، فلما انتهى ابن زياد من امر التوايين أحتبس في الجزيرة ، وبها جماعة من قيس مع زفر بن الحرث على طاعة ابن الزبير ، فلم يزل عبيدالله منشغلاً عن المراق نحو سنة ، وفي هذه الاثناء توفي مروان وولي بعده ابنه عبد الملك بن مروان فاقرّ ابن زياد على ما كان ابوه ولاءه ، وامره بالجد في امره ، فلما لم يتمكن من زفر ومن معه ، اقبل على الموصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار الى المختار يخبره بدخول ابن زياد ارض الموصل ، وانه قد تمسحى عن الموصل الى تكريت .

فدعا عندئذ المختار يزيد بن انس الاسدي وامره ان يسير الى الموصل فينزل باداني ارضها حتى يده بالجنود ، فقال له يزيد :

- خلني انتخب ثلاثة الاف فارس ، وخلي مما توجهني اليه ، فان احتجت كتبت اليك استمدك .

فاجابه المختار الى ذلك ، فانتخب ثلاثة الاف وسار عن الكوفة .. ومعه المختار والناس يشيعونه .

وبلغ ابن زياد قدوم جند المختار عليه فبعت اليهم قوة اكثر عدداً وامضى سلاحاً ، فالتقوا بين زياد في «باقلي» ، وكان يزيد مريضاً فحمل على سريره ووضع بين الرجال ، وهو يقول :

- قاتلوا عن اميركم ان شتم او فروا عنه .

واقتل الجيشان عند فلق الصبح يوم عرفة ، واشتد قتالهم الى ارتفاع الضحى فانهزم اهل الشام وأخذ عسكرهم ، فلم يسر المنهزمون غير ساعة حتى لقيهم عبدالله بن جلة في ثلاثة الاف من جند عبيدالله بن زياد ، فرد معه المنهزمون ، وعادت المعركة ، فكسر الكوفيون اهل الشام ، وقتلوا اميرهم عبدالله بن جلة

واسروا منهم ثلاثائة امير ، فامر يزيد بقتلهم ، وهو آخر رمق فقتلوا جميعهم ، وتوفي يزيد في يومه فدفنه اصحابه .

ويبلغ جيش الكوفة خبر قدوم ابن زياد عليهم في قوة عظيمة ، فقرر رأيهم بعد التشاور على الرجوع ، فلما علم المختار بذلك ، ارسل اليهم ابراهيم ابن الاشتر ، وامرته على سبعة آلاف ، وقال له : مر فاذا لقيت جيش يزيد ابن انس فانت الامير عليهم ، فاردهم معك .. حتى تلقي بن زياد واصحابه فتناجزم .

وما كاد الجيش يخرج من الكوفة حتى طار بعض زعمائها على المختار ، فارسل في طلب ابراهيم الاشتر ، واخذ في الوقت نفسه يتربص في مجابهة القوم ويمنيهم ، حتى يصل الاشتر ورجاله ، فلما وصلوا اطلقهم على الثائرين فقتلهم شر قتلة ، وتبع المختار كل من كان في الجند الذي سار لقتال الحسين فقتلهم^(١) وخرج اشرف الناس فلاحقوا بالبصرة هاربين خائفين .

ولما انتهى المختار من اخماد الثورة عليه في الكوفة ، ارسل ابراهيم بن الاشتر لقتال عبيدالله بن زياد ، فسار ابراهيم حتى لقي ابن زياد ومن معه من اهل الشام على نهر الحازر^(٢) فدارت الدائرة على ابن زياد ، وقتل هو وكثير من اشرف اهل الشام ، وانفذ ابن الاشتر رأسه ومعه رؤوس قواده الى المختار^(٣) . وياتتصار المختار على ابن زياد فشا امره ، وازدادت قوته ، وكثر تعلق الشيعة به .

ورأى ابن الزبير كيف استفحل امر المختار ، فقرر ان يبعث له بشقيقه مصعب بن الزبير ، فاستعمله على العراق ، فأتى البصرة مثلثاً ودخل المسجد ،

(١) وذلك في ذي الحجة سنة ست وستين .

(٢) يفتح الزاي وكسرهما وهو نهر بين اربد والموصل ثم بين الزاب الاعلى والموصل ويصب في دجلة .

(٣) اول سنة ٦٧ للهجرة .

وصعد المنبر ، ثم حسر لثامه فعرفوه ، ثم قام فحمد الله واثنى عليه ثم قال :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين ، تتلو عليك
من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون .. الى قوله من المفسدين » ، فأشار
بيده نحو الشام ، « وزريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة
ونجعلهم الوارثين » .. وأشار نحو الحجاز .
« ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .. وأشار نحو
الكوفة .

ثم قال : يا اهل البصرة بلغني انكم تلقبون امراءكم ، وقد لقبت نفسي
بالجزار ...

مصعب والمختار :

وما كاد يصل مصعب بن الزبير الى البصرة حتى اخذ يتجهز للمختار وحربه ،
وكان اول ما بدأ به ان ارسل يدعو المهلب اليه ، وهو عامل ابن الزبير على
فارس ، فاقبل عليه في جموع كثيرة واموال عظيمة ، فسار بهم مصعب نحو
الكوفة ، فتلقاه المختار بقواته ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، ولكنه لم يتمكن من
الصمود امامهم ، فانهمز الى القصر في الكوفة وكان قد حصنته ، فحاصره
مصعب ومنع عنه وعن اصحابه الماء ، فعاد المختار يقاتل مع جماعة من اصحابه
حتى قتل .

وكتب مصعب الى ابراهيم بن الاشر يدعوه اليه ويقول له :
« ان اطعني فلك الشام واعنة الخيل ، وما غلبت عليه من ارض المغرب
ما دام لآل الزبير سلطان ، واعطاه عهد الله على ذلك » .
وكتب اليه عبد الملك بن مروان بمثل ذلك ، فاستشار الاشر اصحابه
فاختلفوا ، ثم اقبل الاشر على مصعب ورضي بشروطه .
وبمقتل المختار دان العراق لابن الزبير ولم يبق امامه من سلطان سوى

سلطان عبد الملك بن مروان .

الختار ??

وبعد ، فهل كان المختار صادقاً في دعوته ، مؤمناً بما يدعو إليه ؟
هذا سؤال لا يبرح كثير من المؤرخين يتداولونه فيما بينهم اخذاً ورداً
وجيئةً وذهاباً ، والرأي الذي يكاد ينعقد عليه الاجماع - لانتقول اجماع
المؤرخين - وانما اجماع الذين يتلطفون في دراسة هذه الفترة العصبية من تاريخ
الاسلام ، هو ان المختار انما كان يسعى لنفسه واجماده الشخصية .^(١)

ويحدثنا ابن الاثير فينقل لنا كلاماً للمختار بعد ان حاصره مصعب في قصر
الكوفة ، واحس بانقطاع امله ، وقلة عدده ، وانفراط الناس من حوله ، وحين
اعتزم الخروج لمقاتلة جند مصعب في تسعة عشر من رجاله ، فيقول لاحد
انصاره :

- ماذا ترى ؟

فيقول له هذا : ماذا ترى انت ؟

فيقول المختار : ويحك يا احمق ! انما انا رجل من العرب ، رأيت ابن
الزبير قد وثب بالحجاز ، ورأيت ابن نجدة الخارجي وثب باليامة ، ومروان
بالشام ، وكنت فيها كأحدم ، الا اني قد طلبت بشأر اهل البيت إذ نامت
عنه العرب .

فاذا صح هذا القول عن المختار فهو برهان قاطع على انه كان يطلب الامر
لنفسه ، وانه لو بلغه ، لما تكلف تأمير احد من آل البيت عليه .
ولما قتل المختار كان عمره سبعمائة وستين سنة ، وكان قتله لاربع عشرة خلت
من رمضان سنة سبع وستين .

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٠٦

عبد الملك بن مروان

والاستيلاء على العراق

الحالة السياسية والعسكرية :

ولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ هجرية ، وذلك بعد وفاة والده مروان بن الحكم .. والبلاد العربية في اضطراب شامل ، وتمزق كامل . كان في الحجاز عبدالله بن الزبير وقد بايعه اهله بالخلافة ، وكان العراق يضطرب في فرق ثلاث : زبيرية ، بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته ، وشيعة تدعو الى آل البيت ، وخوارج ، يريدون الامر شورى بين المسلمين . واما سورية فكانت تؤيد بني امية ، وكذلك مصر .

واما بقية البلاد الاسلامية فكانت لا تستقر على حال ، وبعضها كان يرتقب

الفرص ليرى لمن تكون الغلبة والظفر (١) !!

(١) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ للهجرة بالمدينة واهه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن ابي العاص بن امية ، وكان يضرب بامه المثل في حسن الخصال ، وجميل الصفات ولما شب كان عاقلاً حازماً اديباً لبيباً ، وكان معدوداً من فقههاء المدينة يقرون بسميد ابن المسيب ، وعروة ابن الزبير .

وقال الشعبي : ما ذكرت أحداً ، الا وجدت بي الفضل عليه ، الا عبد الملك فاني ماذا كرته حديثاً الا زادني فيه ، ولا شعراً الا زادني فيه .

ونشأ نشأة علمية فعرف بالشجاعة والخبرة والعلم والادب ، وكان قوياً جباراً شديد البأس ، بعيد النظر ..

ترك مروان ابن الحكم لابنه عبد الملك ارثاً مليئاً بالاضطراب والقلق
تغمره الثورات ، وتمزقه العصابات المتناحرة المتنافرة المتسابقة الى الحكم ،
ولكن عبد الملك كان رجلاً قوياً ، وادارياً عظيماً ، وكان الى ذلك رجلاً لا
تزعزعه الحوادث ، ولا تخيفه الثورات ، حتى يروي (المسعودي) عنه انه لما
سار سنة ٦٦ للهجرة على رأس جنود الشام الى العراق ، اتاه وهو في الطريق
مقتل عبيدالله بن زياد ، وانتهزام جنده ، واتاه نبأ قتل القائد الذي ارسله
والده لحرب ابن الزبير في الحجاز ، ومقتله ، ثم جاءه خبر دخول جند الزبير
ارض فلسطين ولحاق مصعب ابن الزبير بهم ، ثم جاءه اخيراً مسير امبراطور
الروم ونزوله المصيصة (١) في طريقه الى سورية ، ثم جاءه ان عبيد دمشق واوباشها
خرجوا على اهلها ، وان المسجونين فيها فتحو السجن وخرجوا منه ، وان
خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك وغيرها ، الى اخر ما هنالك من
الاخبار التي تذهب بعقل الحليم ، وتبعث على اليأس ، وتوقع الفشل ، ومع ذلك
نرى عبد الملك يظل رابط الجأش ، شديد الايمان بنجمه وكفاءته ومقدرته ،
حتى انه تقبل هذه الاخبار جميعها بالابتسامة وانطلاق الوجه ، واخذ يقلب وجوه
الرأي يبحث احسن السبل لتثبيت ملكه وتوطيد عرشه .

ويظهر لنا ان عبد الملك لما احس باضطراب الامر حوله ، راح يتربص في
حركاته وزخوفه ، فلم يتقدم الى استباق الحوادث ، ولا راح يحارب خصومه
في الحجاز والعراق وعلى الحدود العربية البيزنطية وهم كثر ، بل اخذ يتحايل
للامر ، ويرتقب الحوادث ، فترك ابن الزبير يقاتل الشيعة في الكوفة والخوارج
في مختلف البلاد ، لا يتعرض لهؤلاء ولا لهؤلاء ، وكان غرضه ظاهراً ، وحيثه
ناجحة كل النجاح ، كان يرمي الى اضعاف خصومه ، فاذا اصبح ذلك امراً
مقضيّاً زحف على الرابح ، وقد اتعبه العراك ، وبرّحت به الحروب ، فينتصر
عليه ويسحقه ..

(١) من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس .

وكان اول ما فطن له عبد الملك موقفه من الامبراطورية الرومانية ، فاعتزم الاتفاق معها مؤقتاً ريثما يتسنى امره ، ويستتب سلطانه ، ولما افضى به ذلك الى ما يكره ، ولذلك نراه لا يرى كبير امر في مهادنة امبراطور القسطنطينية حين اغارت جنوده على المصيصة سنة ٧٠ للهجرة ، حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيوغل في بلاد الشام ، وقد بعت اليه عبد الملك بالهدايا والاموال ، وصالحه على ان يؤدي اليه خمسين الفا من الدينار في كل عام ، ولكنه ما لبث ان قطعها عنه حين سحق خصومه واصبح سيد العربية غير منازع .

تعاقب الحوادث :

والواقع ان عبد الملك لما تسلم عرش الخلافة .. وجد والده مروان بن الحكم قد جهز جيشاً يقوده عبد الله بن زياد الى الجزيرة لمحاربة زفر بن الحرث بقرقيسيا ، حتى اذا فرغ منها توجه الى العراق واخذ من ابن الزبير ، فلما كان ابن زياد في الجزيرة بلغه موت مروان ، واتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه ابوه ، ويحثه على السير نحو العراق ، فسار حتى اذا كان بعين الوردة ، قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم امير ، ولكنهم خرجوا للطالبة بدم الحسين ، وسموا انفسهم (التوابين) وقد وصفنا في الفصل السابق شأنهم ، وكيف تمكن ابن زياد منهم ، وفرق جموعهم ، فساد فلولهم الى الكوفة وانضموا الى المختار الذي كان قد اظهر نفسه (١) . وكيف تمكن المختار بعد انضمام الشيعة اليه من الوثوب بالكوفة ، واخراج عامل ابن الزبير فيها ، وارسال الجند بقيادة ابراهيم الاشر لقتال ابن زياد ، وكيف وفق الاشر الى سحق جنود الشام وقتل ابن زياد ، وكيف ارسل ابن الزبير اخاه مصعباً لمحاربة المختار ، وكيف وفق مصعب الى سحقه وقتله ، فساد العراق

(١) ١٤ ربيع الاول ٦٦ للهجرة

الى سلطان ابن الزبير ، وكان الامر في الشام ومصر لعبد الملك بن مروان ..
بقي على عبد الملك بن مروان امر واحد ، وهو الاطمئنان الى سلامة
عرشه في دمشق قبل ان يفكر تفكيراً جدياً في الزحف على العراق ..
فتنة في دمشق :

والواقع ان الامر في دمشق لم يكن قد اطمأن لولد مروان بن الحكم ،
فقد كان لا يزال بين بني امية من يرى نفسه احق بالخلافة منهم ، خصوصاً
ان ولد مروان .. ومروان نفسه كانوا يعيدون عن دمشق مدة خلافة معاوية ويزيد ،
وكانوا في الواقع اقرب الى اهل المدينة منهم الى اهل دمشق .

كان عبد الملك يحس ذلك ، ويعرفه ، فنراه لما قرر الخروج الى قرقيسيا
وبها زفر بن الحرث ، يأخذ كل من يشك فيه من بني امية معه ، كعمرو
بن سعيد بن العاص وغيره ، فلما بلغ الجيش حلب ، غادر عمرو بن سعيد
الجيش واسرع الى دمشق فدخلها ، وغلب عليها وعلى خزائنها وجمع الناس
فخطبهم ومنام ووعدهم .

واصبح عبد الملك فلم ير عمراً معه ، وأخبر خبره ، فاسرع نحو دمشق ،
فقاتله اياماً . يقول المؤرخون بعدما انه ثناه عن رأيه ومناه بولاية العهد ،
فاتفقا على ذلك ، ورضي عمرو ابن سعيد العاص بخلافة عبد الملك ^(١) بعد
ان قطعاً العهد والمواثيق على ان تكون ولاية العهد له من بعده ، ولكن عبد
الملك كان يريد ولاية العهد لابنه ، وقد رأينا كيف انه كان يطلب من شقيقه
عبد العزيز بن مروان ان يتنازل عنها لولده ، فكيف يفرضي بها الى غير اهله ،
وما كانت موثيقه وعهده ووعدوه الا اعداراً تكلفها ، لقمع الثورة ريثما
يوفق الى القضاء على عمرو بن سعيد وينفرد بالخلافة وحده .
وكان ذلك امراً مقضياً فان عبد الملك ما عتم بعد ايام ان دعا عمرو ابن

(١) البماوي ج ٢ ص ٣٠٤ .. السمودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٢

سعيد اليه في قصره ، وامر رجاله بضرب عنقه ، ففعلوا ، وصفا عندئذ الجو له في دمشق ، ولم يبق له منازع او مخالف (١) ..

اتفاق القيسية واليمينية :

ولما انتهى عبد الملك من القضاء على الثورة في دمشق ، وصفا له الجو ، قرر السير الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، فنصحته بعض بني امية ان لا يفعل ، ودعوه الى ان يقنع بالشام ومصر ، وان يترك العراق والحجاز لابن الزبير ، فابى ذلك واعتزم الذهاب الى العراق بنفسه ، وان لا يكمل الى احد قواده مثل هذا العمل الخطير ، الذي كان يتعلق عليه مصير ملكه وخلافته . ويظهر لنا ان عبد الملك قد سار الى قرقيسيا (٢) اولاً حيث زفر بن الحرث زعيم القيسية ، ويبدو انه كان قليل الرغبة في مجابهة هذا الزعيم القيسي بالحرب ، مفضلاً الاتفاق معه ، وقد وفق عبد الملك الى ذلك .. فنزل زفر على امامته وبايعه ، وتصالحا على وضع الدماء والاموال .

وبذلك انتهى النزاع بين القيسية واليمينية ، وانضوا جميعاً تحت لواء عبد الملك ، وان كان العداء بين القبيلتين لم يخدم تماماً ، بل ظل كامناً في الصدور ، يترقب الفرصة للانفجار والانطلاق ..

بين الشام وابن الزبير :

لم ينجح مروان بن الحكم في الحملة التي ارسلها ضد ابن الزبير في الحجاز

(١) ويقال انه لما سار عبد الملك نحو العراق لقتال مصعب ، قال له عمرو : - انك تخرج الى العراق ، وقد كان ابوك جعل لي هذا الامر بعمد ، وعلى ذلك قاتلت معه ، فاجعل هذا الامر لي بمدك .

فلم يجبه عبد الملك ، فرجع الى دمشق وكان من قتله ما تقدم .
وقيل بل كان عبد الملك قد استخلف عمرا على دمشق فخالفه وتحصن بها .
(٢) بلاد على مصب نهر الخابور في الفرات .

فتمزقت شر تمزيق كما قدمنا ، وارتدت مدحورة فاشلة.. ومن هنا نرى كيف ان ابن الزبير لم يكن يتكلف حربياً ، او يتقدم خطوة نحو اغراضه الا ان يجبر على ذلك ، وكان حقاً عليه ان يهاجم وهو القوي.. لا ان ينتظر ريثما يهاجم خصمه ... بعد ان يمزز سلاحه ، ويجمع انصاره ...

ومع ذلك فقد شجع ابن الزبير هذا الانتصار فارسل قوة بقيادة شقيقه مصعب بن الزبير لاقتحام سورية في سنة ٦٥ للهجرة ، فلم يوفق مع جراته وبسالته ..

مصعب

وكان مصعب بن الزبير امير العراق على عهد شقيقه عبد الله بن الزبير شجاعاً جليلاً جليل القدر ، محبباً الى الناس ، تزوج سكينه بنت الحسين بن علي رضي الله عنها ، وعائشة بنت طلحة ، وجمعها في داره ، وكانتا من اعظم الناس قدراً ، ومالاً وجاهاً ... (١)

ويقول ابن قتيبة في وصفه : واما مصعب بن الزبير فكان يكنى : ابا عبد الله وكان اجود العرب .. (٢)

فلما كانت سنة ٦٥ للهجرة استعمل عبدالله بن الزبير بعد ان استقل بالحجاز والعراق شقيقه مصعباً على المدينة ... بعد ان عزل شقيقه عبيدة بن الزبير عنها .. (٣) ومن هذه السنة يظهر مصعب على مسرح السياسة العربية فيترجم اخبارها واحداثها حتى يذهب لمآبه . قتيلاً في ساحة الوغى وبين الزحوف والمعارك ..

(١) الفخري : الاداب السلطانية .

(٢) المعارف : ابن قتيبة ..

(٣) اضطربت احوال الدولة الاموية بعد وفاة يزيد بن معاوية واعتزال ابنه معاوية بن يزيد الخلافة ، فاستقل عبدالله بن الزبير في الحجاز ، واخذ يسعى لابطس سلطانه على الاقاليم التي حولها ، واهمها العراق ..

وفي هذه السنة سار التوابون ، وهم جماعة من اهل الكوفة ندموا على تقاعدهم عن نصره الحسين بن علي ، فاقسموا على محاربة خصومهم وعدوه ، فلما التقوا مع اهل الشام كسرهم هؤلاء ومزقوهم . . . وفي هذه السنة ايضاً مات مروان بن الحكم خليفة بن امية وزعيم المروانيين ، وتولى الامر بعده ابنه عبد الملك بن مروان . . .

فلما كانت سنة ٦٦ للهجرة وثب المختار بالكوفة يعمل لمحمد بن الحنفية وهو شقيق الحسين بن علي من غير امه ، واستقل بها وطرد عامل بن الزبير ، واخذ يجادع ابن الزبير فتارة يصانعه ، واخرى يعمل على خذلانه ، ويسعى لتعزيز سلطانه ، وتوطيد حكومته . . .

وفي هذه السنة ايضاً وثب المختار على قتلة الحسين بن علي في الكوفة فاباد اكثرهم ، كما حاول انتزاع البصرة من ابن الزبير اذ ارسل اسد انصاره اليها يدعو الناس الى طاعته ، وامامة محمد بن الحنفية ..

فلما علم ابن الزبير بان المختار يدعو الناس لطاعة محمد ابن الحنفية ، طلب من محمد وكان مقيماً في مكة ان يبايعه ، فرفض ، فحبسه في زمزم ، فارسل المختار من اطلقه من حبسه ، وسار محمد مع شقيقه فاقام في مكة في شعب علي ..

وفي هذه السنة ايضاً ارسل المختار ابراهيم بن الاشر لمحاربة عبيد الله بن زياد فسار في جيش قوي لمحاربتة ..

فلما كانت سنة ٦٧ للهجرة وقعت المعركة بين ابن الاشر وابن زياد ، فظهر فيها ابن الاشر على خصمه وقتله ، ومزق جند الشام ، فزاد هذا الانتصار في خطر المختار ، وعظم شأنه ، فارسل عبد الله بن الزبير شقيقه مصعباً الى البصرة ليكون والياً وليحارب المختار وجماعته ، ويعيد العراق الى سلطان ابن الزبير وطاعته ..

مصعب في البصرة

وقدم مصعب البصرة مثلثا ، ودخل المسجد ، وصعد المنبر فقال الناس :
-- امير .. امير ...

وقام فيهم فالقى خطبته التي ذكرناها سابقا ..

واخذ مصعب يتجهز لحرب المختار .. خصوصا بعد ان اتاه اشراف اهل
البصرة يستحثونه على المسير اليه ، واستدعى المهلب بن ابي صفرة ، وكان
على حرب الخوارج ، فأتاه المهلب في جموع كثيرة واموال عظيمة ، فسرّ مصعب
بقدمه ، وارسل الى اهل الكوفة من يثبط الناس عن المختار ، ويدعوهم الى
بيعة ابن الزبير سراً ، وسار مصعب بعد هذا نحو الكوفة ، وعلى مقدمته
وجناحيه وجوه العراق كالمهلب والاحنف بن قيس ومالك بن مسمع وغيرهم .
فلما بلغ الخبر المختار ، قام في اصحابه فاعلمهم خبير مصعب وتقدمه نحوهم ،
ونديهم الى الخروح ، فخرجوا وعلى رأسهم احمر بن شميظ وعسكروا في
(حمام اعين) .

ولما وصلوا الى المذار التقوا بجيش مصعب فعسكروا قريبا منه .. وبدأت
المركة فدارت الدائرة على جيش المختار ، ولحق اصحاب مصعب خصوصا
اهل الكوفة منهم بالمنهزمين ، فكانوا لا يأخذون اسيراً الا ضربوا عنقه ، فلم
ينج من جيش المختار إلا طائفة اصحاب الخيل ، واما المشاة الرجال فأيديوا
الا قليلا منهم .

واتى المختار خبير الهزيمة ومن قتل من اصحابه ، فاعتزم على الحرب حتى
الموت ، وان يموت موقته ابن شميظ قائده .

وخرج المختار من الكوفة للقاء مصعب الذي كان يتقدم نحوه ، بعد ان

حصّن المسجد والقصر ، وادخل اليها عدة الحصار .

ولما وقف الجيشان الواحد قبالة الآخر ، كانت المعركة شديدة قاسية رهيبة حارب فيها مصعب بنفسه ، وجالد فيها المهلب بشخصه ، وفعل المختار مثل ذلك حتى تفرق اصحاب المختار عنه ، فانسحب المختار الى مقره ، فحصره مصعب واصحابه فيه حتى اشتد الامر على المختار واصحابه من شدة العطش ، فلما رأى المختار ذلك قال لاصحابه :

- ويحكم ان الحصار لا يزيدكم الا ضعفاً فانزلوا بنا فنقاتل حتى نقتل كراماً .
فتبعه بعض اصحابه ، وهرب منه آخرون .

ثم ان المختار تطيب وتحنط ، وخرج من القصر في تسعة عشر رجلاً وقاتل حتى قتل .

مصعب وجماعته :

ومن المؤكد ان انتصار مصعب كان كاملاً ، فقد اباد جيش المختار واستولى على البصرة وقتل المختار ، ولكن هناك حادثاً وقع بعد مقتل المختار يدل على ان مصعباً كان في جيش لا يعرف نظاماً ولا طاعة .

حاول مصعب ان يعفو عن بعض جماعة المختار ، وعرض عليه هؤلاء ان يكونوا في جنده وان يجاروا اهل الشام معه ، ولكن اهل الكوفة رفضوا ذلك وطلبوا قتلهم بعد ان كانوا قد استسلموا لهم ، واضطر مصعب لقتلهم ، فكان هذا اول وهن في سياسته ، واول تمزق بين شيعة ..

ويقول ابن الاثير : ويقدر عدد الذين قتلهم مصعب صبراً من جماعة المختار بسبعائة من العرب وخمسة الاف وثلاثمائة من الموالي .. وكانوا ما في ذلك شك قوة لا يستهان بها لو استطاع انقاذهم .. والاحتفاظ بهم .

وفي هذه السنة عزل عبدالله بن الزبير اخاه مصعباً عن العراق واستعمل

عليه ابنه حمزة وكانت به لومة كما يظهر ، حتى كتب الاحنف الى ابن الزبير ان يعزله فعزله ، وهذا ضعف وخطأ ما في ذلك شك ، فقد كانت الحالة في العراق غير مستقرة ، وكان لا يزال مهدداً من الشام ، فكان من الحق ان يظل مصعب فيه ، او ان يرسل اليه ابن الزبير شخصاً يكون من اهل الدهاء والجرأة وبعد النظر .

وبمقتل المختار دان العراق لابن الزبير ولم يبق امامه سلطان إلا سلطان عبد الملك بن مروان .

ولما قرر عبد الملك الزحف على العراق سنة ٧١ للهجرة ، نصحه بعض خاصته ان لا يفعل .. وكان العام عام جذب فقال عبد الملك :
- الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه ، وقد كتب الي كثير من اشراف العراق يدعونني اليهم .

وتكلم بعض خاصته خصوصاً شقيقه محمد بن مروان فأيدوا رأيه ، وقالوا بالذهاب الى العراق .

فلما بلغ مصعباً مسيره وهو بالبصرة ارسل الى المهلب وهو يقاتل الخوارج يستشيرهم ، ويقال .. بل احضره عنده فقال له :

-- اعلم ان اهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم ، فلا تبعدني عنك . فقال له مصعب : ان اهل البصرة ابوا ان يسيروا لقتال عبد الملك الا ان اجعلك على قتال الخوارج ، مخافة ان يقتحم الخوارج بدمهم في غيابهم ، وانا اكره إذ سار عبد الملك الي ان لا اسير اليه فاكفني هذا الثغر .

وسار مصعب الى الكوفة حتى نزل (باخرا) (١) وسار عبد الملك وجنوده

(١) تقع بين الكوفة وواسط ، وهي اقرب الى الكوفة منها الى واسط . معجم البلدان ياقوت --

حتى نزلوا قريباً من مصكر مصعب ..

وكان الاشر قد حمل كتاب عبد الملك الى مصعب قبل ان يقرأه ، فلما قرأه مصعب قال له :

– يا ابا النعمان اتدري ما فيه ؟

قال : لا .

قال : فانه يعرض عليك ما سقت دجلة ، او ما سقى القرات ، فان ابيت جمعها لك ، وان هذا لما يُرغبُ فيه ..

فقال الاشر : ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة ، وما ترك عبد الملك احداً من معك الا وقد كتب اليه ، فابعت اليهم فاضرب اعناقهم ، والا فاوقرم حديداً ، ثم أبقيهم في ابيض كسرى ، ووكل بهم حفظة ، فان ظفرت عفوت او عاقبت ..

فقال : يا ابا النعمان ، اني اخاف في هذا القالة ، ووالله لو لم اجد الا النحل لقاتلت به جند عبد الملك ..

واحضر مصعب ابراهيم بن الاشر وكان على الموصل والجزيرة ، فلما حضر عنده جعله على مقدمته ، وسار حتى نزل (باخرا) فمسكر هناك ، وسار عبد الملك وعلى مقدمته اخوه محمد بن مروان ... فنزل بمسكن قريباً من جيش مصعب .

واخذ عبد الملك بن مروان يبعث بالكتب الى زعماء العراق وقواده ، يستميلهم اليه ويمتنعهم بالعطاء والنوال والولايات ، حتى افسدم على مصعب ، وقد اخفى كل منهم كتاب عبد الملك اليه إلا الاشر ، فانه حمله الى مصعب ، وحذره من القواد والزعماء ونصحه بقتلهم او ابعادهم عن المعركة فلم يفعل ..

فلما اصطف الناس للقتال مال عتاب بن ورقا فانضم لعبد الملك ، وكانت على خيل اهل الكوفة ، وجعل ابراهيم بن الاشر يقول للرجل : تقدم ...

فيلتوي عليه .

فيتقدم هو فيقاتل ، فلم يزل يفعل ذلك حتى قتل .

ودعا محمد بن مروان شقيق عبد الملك .. عيسى بن مصعب فقال له :

.. اني لكم ناصح .. ولك ولابيك الامان ..

فرجع عيسى فاخبر اياه ، فقال مصعب :

.. اظن ان القوم سيفنون لك ، فان احببت ان تأتيهم فافعل .

فقال له ابنه :

.. لاتتحدث نساء قريش اني خذلتك ، ورجبت بنفسي عنك .

فقال مصعب : فاذهب انت ومن معك الى عمك بمكة ، فاخبره بما صنع

اهل العراق .. ودعني فاني مقتول .

فقال : لا اخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا ابنت الحق بالبصرة فانهم على

الطاعة .. او الحق بامير المؤمنين - يعني عبدالله بن الزبير -

فقال مصعب : لاتتحدث قريش اني فررت ..

وقال مصعب عندئذ لابنه عيسى :

.. تقدم اذن احتسبك ..

فتقدم ومعه ناس فقتل وقتلوا .

وجاء رجل من اهل الشام ليحتز رأس عيسى فحمل عليه مصعب فقتله ،

وشد على الناس ، فانفرجوا له ، وعاد ، ثم حمل ثانية ، فانفرجوا له ، وتفرقوا

من حوله ..

وبذل له عبد الملك الامان مرة ثانية .. فابى وصتم على القتال .. فقال عبد

الملك : هذا والله كما قال القائل :

ومدحج كره الكهامة نزاله لا ممعنا هرباً ولا مستلما

ودخل سرداقه فتحنط ، ورمى السرادق ، واخذ يجارب ، وترك الناس

مصعباً وخذلوه ، حتى بقي في سبعة انفس ، وكثرت الجراحات فيه ، وظل
يقاتل حتى قتل .. فاحتز قاتله رأسه ، وحمله الى عبد الملك بن مروان .

مقتل مصعب :

ويصف ابي الحديد في شرح نهج البلاغة مقتل مصعب بن الزبير فيقول :
« ومن اباة الضيم الذين اختاروا القتل على الاسر ، والموت على الدنيا ،
مصعب بن الزبير ، وكان امير العراقيين من قبل عبدالله بن الزبير ، وكان قد
كسر جيوش عبد الملك واعياه امره ، فخرج اليه من الشام بنفسه ، فلم في ذلك
وقيل له :

... انك تقرر بنفسك وخلافتك .

فقال : انه لا يقوم لحرب مصعب غيري .. هذا امر يحتاج الى ان يقوم به
شجاع ذو رأي ، وربما بعثت شجاعاً ولا رأي له ، او ذو رأي ولا شجاعة
عنده ، وانا بصير بالحرب ، شجاع بالسيف .

وسار عبد الملك حتى اذا كان بمسكن من ارض العراق ، وقد دنا منه عسكر
مصعب ، تقاعد بمصعب اصحابه وقواده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى :
- الحق بمكة فانج بنفسك ، واخبر عمك عبدالله بما صنع اهل العراق بي
ودعني فاني مقتول ..

فقال عيسى : لاتتحدث نساء قريش اني فررت عنك ، ولكن اقاتل دونك
حتى نقتل ، فالفرار عار ، ولا عار في القتل .. ثم قاتل دونه حتى قتل ...
وخف من يحامي عن مصعب من اهل العراق وايقن بالقتل ، فانفذ عبيد
الملك اخاه محمد بن مروان ، فاعطاه الامان وولاية العراق ابدأ ما دام حياً ،
والقي الف درهم صلة .. فأبى وقال :

- ان مثلي لا ينصرف عن هذا المكان إلا غالباً او مقتولاً .. فشد عليه اهل

الشام ورموه بالنبل فائخنوه ، وطعنه زائدة بن قيس ونادى : وبالثارات المختار
فوقع الى الارض ، فنزل اليه عبد الملك بن زياد بن ظبيان فاحتز رأسه ، وحمله
الى عبد الملك بن مروان .. فلما رآه عبد الملك بكى وقال :

- لقد كان احب الناس اليّ وأشدهم مودة لي ، ولكن الملك عقيم .
ويقال ان مصعباً لما خرج الى عبد الملك بن مروان سأل عن الحسين بن علي
وكيف كان قتله ، فحدثوه بذلك فقال متمثلاً :

وان الاولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا
فعلم من حضره ان مصعباً لن يفر من المعركة ، وانه ان لم يظفر فيها فسيموت
على بساطها واديبها .

والواقع ان مصعب بن الزبير القائد النبيل الشجاع قد اخطأ خطأ عظيماً في
ابعاده المهلب القائد العربي الباسل عنه ، لان خطر عبد الملك كان اشد من خطر
الخوارج ، كما انه اخطأ مثل ذلك في ابعاد غير المهلب من قواده البارعين عنه ،
وابقاء الخونة من القواد بين جنوده ، ومن كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لمفارقتة
واللحاق باوطانهم ، وقد نصحه المهلب فلم يقبل نصيحته ، ولو فعل ، لما وفق
عبد الملك التوفيق الذي وصفناه ، ولطالت الحرب ، وكثرت الزخوف ،
وتبدل الموقف .

وبمقتل مصعب ابن الزبير صفا الجو لعبد الملك ، فدانت له العراق واكثر
البلاد الاسلامية ، ولم يبق غير الحجاز وفيه عبدالله بن الزبير ، فوطد عبد الملك
النفس على مهاجمته ، وبعث له بجيش قوي تحت قيادة الحجاج بن يوسف ، فما
زال يقاتله ويماربه ويناضله حتى تمكن من تشتيت جنوده وقتله ، فدانت
البلاد الاسلامية كلها لسلطان عبد الملك ، وقضي على الحزب الزبيري
القضاء المبرم .

وبانهزام ابن الزبير فقد الحجاز شأنه السياسي ، ومركزه السابق ، وعاد

الى سالفات ايامه ، بلداً مجدياً لا شأن له في التاريخ الاسلامي السياسي في
كثير ولا قليل ...

بعد المعركة ...

ولقد قتل مصعب في سنة ٧٢ الهجرة ، وبويع لعبد الملك في دير الجائلتيق
ودفنت جثة مصعب هناك ، وبعث عبد الملك برأس مصعب الى الكوفة ، ثم
بعث به الى مصر .. الى شقيقه عبد العزيز بن مروان فلما رآه وقد خدّ السيف
انفه قال :

- رحمك الله اما والله لقد كنت من احسنهم خلقاً واشدهم بأساً ، واستخام
نفساً ...

ثم ردّ رأسه الى الشام ، فنصب بسدمشق ، وارادوا ان يطوفوا به في
نواحي دمشق ، فاخذته عاتكة ام يزيد بن عبد الملك وطيبته بعد ان غسلته
ودفنته ..

ولقد قال عبد الملك يوماً لجسائه : ان اشدّ الناس مصعب بن الزبير ، كانت
عنده عقيلتا قريش ، سكينتا بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، ثم كان اكثر
الناس بأساً ، جعلت له الامان ، وحننت له ان أوليه العراق ، وعلم اني سأني
بوعدى لصداقة كانت بيني وبينه ، فابى وحي انفه ، وقاتل حتى قتل ...

ولما اتى عبدالله بن الزبير مقتل اخيه مصعب ، وظفر عبد الملك بن مروان
اضرب عن ذكره اياماً ، فلما كثر الحديث عنه صعد المنبر ، والكأبة بإديته
على وجهه ثم قال :

« انه اتانا خبر من العراق احزننا وساءنا ، وافرحنا وسرنا ، اتانا قتل
مصعب رحمه الله ، فاما الذي احزننا من ذلك فان لفراق الحميم لوعة ، يجدها
حيمه عند المصيبة ، ثم يرعوى بعد الرأي والدين والحجى والتقى الى الصبر

و لريم العزاء ، واما الذي سرنا من ذلك فقد علمنا ان قتله شهادة ، وان الله
جاعل لنا وله خيرة ، ان اهل العراق ، اسلموه وباعوه باقل ثمن واخسه فقتل ،
وان قتل فقد قتل ابوه وعمه وهما من الخيار الصالحين ، انا والله ما نموت على
فراشنا ، ما نموت إلا قتلاً باطراف الاسنة ، وطلباء السيوف ، ليس كما يموت
بنو مروان في حجاجهم ، فوالله ما قتل منهم رجل في جاهلية ولا اسلام .

سكينة بنت الحسين :

وكانت سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب سيدة نساء عصرها ،
ومن اجل النساء وانذرهن ، واحسنهن اخلاقاً ، واعلمهن في الادب والشعر ،
وكانت زوجة مصعب بن الزبير ... فهلك عنها فتزوجت بعده غيره ...

واشتهرت السيدة سكينة بهذه المنادر الادبية تقام في دارها ، فيقصدها
الشعراء يعرضون عليها شعرهم ، فتقول رأيها في الشعر والشاعر ، تمتدح من
تريد ، وتقدّر من تشاء ، وتنتقد من تنتقد ، وتسعف من تشاء منهم .. وقيل
اسمها آمنة ، وقيل امينة ، وقيل اميمة ، وسكينة لقب لقبها به امها ...
وكانت وفاتها يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الاول سنة سبع عشرة
ومائة ...

ويقول من كتب عنها من المؤرخين (١) : كانت سيدة نساء عصرها ، ومن
اجل النساء طراً ، واحسنهن خلقاً و اخلاقاً ..

وكانت عائشة مثلها اخلاقاً وجمالاً و ثروة ، ويقول المؤرخون : ان عائشة
بنت طلحة حجبت في سنة ، وحجبت سكينه في السنة نفسها ، فكانت عائشة
احسن آله وحاشيه فقال حاديا :

عائشة يا ذات البغال الستين ما زلت ما عشت كذا تحجين

(١) الرازي بالرفيات

فشقّ ذلك على سكينه ... ونزل حاديا فقال :
عائش هذه ضرة تشكوك لولا ابرها ما اهتدى ابوك
فامرت عائشة حاديا ان يكف فكفّ ..

سكينة وشعراء العصر

وحكي انه اجتمع رواة جرير وكثير وجيل والاحوص ونصيب وجميعهم
من شعراء ذلك العهد فاقتخر كل منهم بصاحبه ، وقال :
- صاحبي اشعر .

وحكّوا سكينه بنت الحسين لما يعرفون من عقلها ، ونفاذها في الشعر ، فخرجوا
حتى استأذنوا عليها ، وذكروا لها ما كان من امرهم .

فقال لراوية جرير : اليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القابوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
واي ساعة احلى للزيارة من الطروق ..؟ قبج الله صاحبك وقبّح شعره
هلا قال :

وان ذا وقت الزيارة فادخلي بسلام ..



ثم قالت لراوية كثير : اليس صاحبك الذي يقول :

يقّر بعيني ما يقّر بعينها واحسن شيء مابه العين قرت ..
وليس شيء اقرّ بعينها إلا ما تعرف .. افتحّب مثل هذا ؟ قبّحه الله
وقبّح شعره ..



ثم قالت لراوية جميل : اليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما تركتها ولكن طلابها لما فات من عقلي
فما ارى صاحبك هوى ، وانما هو يطلب عقله ، قبجه الله وقبح شعره .



ثم قالت لراوية نصيب : اليس صاحبك الذي يقول :
اهم بدعد ما حييت وان امت فواحزني من ذا هم بها بعدي
فما هم إلا من يتمشقا بعده .. قبجه الله وقبح شعره : الا قال :
اهم بدعد ما حييت وان امت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي



ثم قالت لراوية الاحوص : اليس صاحبك الذي يقول :
من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلا اذا نجم الثريا حلقا
بانا يا نعم ليلى والذما حتى اذا وضع الصباح تفرقا
قبجه الله وقبح شعره ، الا قال ... (تعانقا) ..



فلم تن علي واحد منهم ، ولم تقدم احداً بينهم ..

الوداع :

ولما توشح مصعب بسيفه وخرج لقتال عبد الملك بن مروان ، نادته سكينه :
اعزمت يا ابن العم ؟
فقال لها : ما انا من يرجع عن عزمته ..
فنادت : واحرياه .. من للكارم بعدك ؟
فرجع اليها وعانقها وودعها ودمعت عيناه فقال :
... اما لو علمت ان لي من قلبك هذا المكان .. لكان لي ولك شأن .
فلم يرجع من ذلك اليوم ..

شعر في مصعب :

ولما قتل مصعب رثاه ابن قيس الرقيبات فقال :
لقد اورث المصريين 'حزناً وذلّة'
قتيل بدير الجائليق مقيم
فما قاتلت في الله بكر بن وائل
ولا صبرت يوم اللقاء تم

...

وكان عبد الملك بن مروان يقدر مصعباً ويثني عليه دائماً ..
وكان مقراً برجولته وبطولته وشجاعته ..
ولم يكن يسمح لاحد ان يذمه في وجهه ..

...

وذكر رجل مصعباً عند عبد الملك فوقع فيه ، وصغّر شأنه ، فقال له
عبد الملك :
- اسكت ، فان من صغّر مقتولاً ، صغّر قاتله .

لماذا انهار الحزب الزبيري :

ترجع اسباب انهيار الحزب الزبيري الى عوامل كثيرة ، اهمها واولها
ان عبد الله بن الزبير نفسه لم يكن الرجل الذي يستطيع ان ينشيء ملكاً
ويبني سلطناً ...

واما العوامل الاخرى فكثيرة واهمها : ما انصرف اليه عبد الله بن الزبير
من اتخاذ مقر حكومته في الحجاز ، والحجاز بعيد عن كل الامصار العربية
بامتداد الفتوح ، واتساع الزخوف ، فاصبح والحالة هذه بعيداً عن مركز
العربية ، غريباً عن مقر الحركات السياسية ، لا يستطيع اقرار امر الا بعد
طول مدى ، وامتداد شقة ، ولا يصل اليه الخبر الا بعد اشهر من تاريخ وقوعه

وحدوثه . اضيف الى هذا ان الحجاز اصبح بعد امتداد الفتوح ، ومفادرة اكثر العناصر السياسية له الى الشام والعراق ، مأوى الطبقة الارستوقراطية من اشراف قریش والانصار الذين انصرفوا عن النزاع السياسي الذي كان يغمس دمشق ، وتضطرب به العراق الى حياة الدعة والهبو والمجون كما يمثل لنا ذلك شعر الشعراء في هذا العهد ، فكان اهله والحالة هذه ابعد الناس عن الحرب ، وحب الزخوف ، ومثل هذه الظاهرة لم تكن توطد عرشاً ، او تؤسس ملكاً .

ويظهر لنا ان ابن الزبير كان كثير الرغبة في اعادة الخلافة الى الحجاز ، بعد ان افضت بها الفتن الاخيرة الى دمشق ، ومثل هذا الرأي يدل على انه لم يكن يدرك مدى التطور العظيم الذي طرأ على الدولة العربية الجديدة ، فنقلها من الحجاز المهدب ، الى هذه المشارف المائعة في دمشق ومصر وعلى ضفاف دجلة والفرات ، وكان من الحق ان يكون ابعد نظراً ، وامضى رأياً فيدرك خطر هذه الفروق العظيمة ، والتطورات الخطيرة ، ويعلم ان الحجاز لن يكون عاصمة مملكة ومقر امبراطورية تمتد اطرافها من مشرق الشمس الى مغربها ..

واخطأ ابن الزبير غير خطأ واحد بعد انسحاب جند يزيد بن معاوية من حول مكة ، كان عليه ان يتحرك منها الى العراق والشام ، وكان عليه ان يمضي في تأهبه واستعداده على نحو ما كان يفعل عدوه ، وكان عليه ان لا يتواكل في نشر دعوته ، وبث دعااته ، وان لا يترك انصاره وشأنهم يحاربون عدوه وحدهم ، ويقارعون خصومه وهو لاه عنهم ، منزو في اقصى الارض .

ونحن لا نتكرر الى ذلك انه كان لظهور الشيعة والخوارج في وجهه اثر كبير في فشله ، فقد توزعت قواته ، وانشغل فريق عظيم من قواده في محاربتهم ومنازلتهم ، كالمهلب بن ابي صفرة الذي كان يقاوم الخوارج في خراسان ، بينما عبد الملك بن مروان يحشد الجند ، لمصاولة مصعب بن الزبير ، وكان من الواجب ، وهذه معركة يتوقف عليها مصير ابن الزبير وسلطانه ان

يحشد لها كل قواته وانصاره ، وان لا يتخاذل في ذلك ولا يتهاون .
وشيء آخر ايضاً هو ما اشتهر به ابن الزبير من البخل ، فقد روى
المؤرخون (١) ان مصعب بن الزبير وفد الى اخيه عبدالله ومعه وجوه اهل
العراق ، وذلك بعد مقتل المختار ، فقال له :
- يا امير المؤمنين جئتك بوجوه اهل العراق لم ادع لهم بها نظيراً ، لتعطيهم
من هذا المال ..

فقال له : جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم من مال الله .. والله لافعلت ..
ونحن وان كنا لا نرغب في التعليق على هذا الجواب ، الا اننا لا نستطيع
انكار ما كان لجوابه هذا من اثر سيء في نفوس العراقيين ، ومن أراد توطيد
ملكه ، وجب عليه ان يبذل في سبيله ، وقد تألف محمد نفسه العرب في عهده ،
ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله ، وهو نبي مرسل ، وكان امره
الامر ، فما بالك بمثل عبدالله بن الزبير ، لا يحاول تألف الناس حتى ولا بالكلام
الحسن واللفظ الرقيق !.

ولا عجب والحالة هذه اذا انصرف الناس عن ابن الزبير وكتبوا عبد الملك
وغدروا بمصعب .. وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل ، فتنبأ باقول نجمه
وقال لمصعب وهو يدعوه لآخيه : « ان فيه ثلاث خصال لا يسود بها ابدأ ،
عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه ، فلا يسود رجل فيسه تلك
الخصال .. »

عبد الملك في الكوفة :

ولما دخل عبد الملك الكوفة بعد الواقعة قصد الى المسجد وخطب خطبة
ذكر فيها صنع الله له ، ووعد المحسن ، وتوعد المسيء ، وولى شقيقه بشر بن مروان

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٩ .

الكوفة ، وقال للناس :

– اني قد آثرتكم به على نفسي ، وامرتة بالاحسان الى محسنكم واللين لاهل
الطاعة ، والشدة على اهل المعصية والريبة منكم ، فاسمعوا له واطيعوا ،
واحسنوا مكاتفته ومعاوته .

ولما اراد عبد الملك الشخوص الى الشام خطب الناس ، فعظم عليهم حق
السلطان ، وقال لهم :

« هو ظل الله في الارض ، وحشهم على الطاعة والجماعة ، وذكر ابن الزبير
وخلافه وخروجه مما دخل الناس فيه ، وقال انه لو كان خليفة كما يزعم
لابدى صفحته ، وآسى انصاره بنفسه ، ولم يغرر ذنبه في الحرم » .

الحجاج بن يوسف

وانهيار سلطان ابن الزبير

مولده ونشأته :

ولد الحجاج بن يوسف في الطائف، منازل قبيلة ثقيف ، قبيلة الجاه والمنعة والزعامة في الجاهلية ، ويقال انه ولد في عهد معاوية ، وفي سنة ٤٤ للهجرة على الأرجح ، وكانت عائلته فقيرة معدمة ، وكان ضعيف الجسم في طفولته وله شقيق اكبر منه يدعى محمد ، وشقيقة تدعى زينب ، اما حياته الاولى فمجهولة تماماً لا يذكر لنا التاريخ عنها شيئاً ، ولكننا نعلم ان والده كان معلماً ، وانه هو نفسه تكلف هذه الصناعة ايضاً ، فكان يعلم الاطفال كتابة القران وقراءته وحفظه ..

ولكنه لم يطق هذه الحياة الراحلة الساكنة طويلاً ، واخذ يحس في نفسه رغبة عظيمة في مغادرة قريته الى دمشق حيث الترف والعز ، وحيث السياسة

والسيف .. كما كانت يحس انه لم يخلق لهذا النوع من العمل ... كتعليم الاطفال في قرية نائية بعيدة ، وكان يعلم ان مستقبله سيكون مظلماً حقاً اذا ظل في قريته هذه ، وما كادت تضرب هذه الفكرة في نفسه ، حتى تغلبت على كل حواسه ، واذا هو يقرر مغادرة قريته كما فعل كثيرون من امثاله ، ومن المؤكد لدينا ان تلامذته لم يأسفوا لفراقه ، فقد كانت عصاه (مقرعته) شديدة قاسية على لحومهم البضة الطرية ..

وتمضي الايام فلا نعلم من امره بعد مغادرته الطائف واطفاله شيئاً ، ولكن (الاغاني) يذكر لنا فيما يذكره من اخباره انه حضر مذبحه (الحرة) في المدينة سنة ٦٣ للهجرة - اب ٦٨٣ - وانه هرب منها تاركاً والده لمصيره ، وانه راح بعد ذلك يمتدح عن هربه (١) .

وفي سنة ٦٥ للهجرة نرى الحجاج مع ابيه في الجيش الذي ارسله مروان بن الحكم لمهاجمة ابن الزبير في مكة ، وقد عرف القاريء ما اصاب هذا الجيش في معركة (الريدة) من فشل مريع . ولكن الحجاج ووالده تمكنوا من الهرب والنجاة ، بعد ان رمى الاول بالعلم الذي كان يحمله في يده (٢) .

وكذلك نرى ان (فتوحات) الحجاج الاولى العسكرية لم تكن موفقة ، فما نراه وفق في بعث ، ولا ثبت في معركة ، وكذلك نراه مثل ذلك في ادارته الاولى ، فقد بعث به عبد الملك حاكماً على (تباله) فما عم ان اعرض عنها لما

(١) الاغاني جزء ١٦ ص ٤٢ .

(٢) يقول بعض المؤرخين ان يوسف والد الحجاج هلك في المعركة ، ولكن ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ينكر ذلك ، ويؤيده في ذلك الطبري وابن الاثير ، ويظهر لنا من اقوال هؤلاء المؤرخين ان عبد الملك بن مروان عهد الى يوسف والد الحجاج بعد ذلك بإحدى الولايات كما عهد الى ابنه الحجاج بالمدينة . وان الحجاج وهو عامل المدينة ابن والده لما علم بموته . -- ابن قتيبة في المعارف

رآه من ضعف خطرهما ، وخسيس اهميتها^(١) . والظاهر انه كان يرى نفسه اكثر خطراً ، واعظم شأناً ، ولعله ذهب بعدما الى روح بن زنباع الذي كان من اعوان عبد الملك المقربين، وانضم الى شرطته ، ويقول ابن قتيبة : ان الحجاج عين بعد ذلك قائداً لشرطة ابان بن مروان شقيق عبد الملك وحاكم فلسطين في هذا العهد .^(٢)

ظهور الحجاج :

وفي سنة ٧٠ للهجرة - ٦٨٩ - غادر عبد الملك بن مروان الشام الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، فغلب عمرو بن سعيد في غيابه على دمشق فرجع عبد الملك اليها ، وكان ما كان من مقتل عمرو بن سعيد كما ذكرنا في فصل سابق ، فاطمان عبد الملك عندئذ الى استتباب ملكه ، وانتظام شأنه ، واخذ طريق العراق كرة ثانية ، واوجس عبد الملك وهو في طريقه الى العراق شراً لما رأى انحلال عسكره ، وان الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فشكا ذلك الى روح بن زنباع فقال له :

- ان في شرطتي رجلاً لو قلته امير المؤمنين امر عسكره .. لأرحل الناس برحيله وانزلهم بنزوله ... يقال له الحجاج بن يوسف .. فقال عبد الملك : فانا اقلده ذلك .

فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل إلا اعوان روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوماً ، وقد أرحل الناس على الطعام يأكلون .. فقال لهم :
-- ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟
فقالوا له : انزل يا ابن اللخناء فكل معنا .

(١) تباه من اعمال تيا في طريق اليمن . ياتوت ومعجم البلدان ، وابن خلسكان في وفيات الاعيان .

(٢) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ١٨٠ و ٢٠٢

فقال لهم : هيهات ذهب ذلك... ثم امر بهم ، فجلدوا بالسياط ، وطوّقهم بالمسكر ، و امر بفساطيط روح فأحرقت بالنار.. فدخل روح علي عبد الملك شاكياً ، فقال :

. يا امير المؤمنين ، ان الحجاج الذي كان في شرطي ضرب غلماني واحرق فساطيطي .

قال : عليّ به ..

فلما دخل عليه قال : ما حملك على ما فعلت ؟

قال : انا ما فعلت .

قال : ومن فعل ؟

قال : انت فعلت .. اتنا يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين ان يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين فلا يكسري فيا قدمني له .

فاطرق عبد الملك هنيهة ثم قال :

- سأفعل ذلك .

ومن ذلك الوقت ، فطن عبد الملك لقوة الحجاج وبأسه واخلاقه ، وانه يستطيع الاعتماد عليه في كل امره ..

وانتهت المعركة بين جيش عبد الملك ومصعب على ما وصفنا في فصل سابق ، وبعد ان عين عبد الملك شقيقه بشر بن مروان على الكوفة، وخالد بن عبدالله على البصرة عاد الى دمشق وهو يفكر في التهيؤ لأبن الزبير وحربه بعد ان صفا له جو الولايات العربية كلها ، ولم يبق خارجاً عن سلطته الا الحجاز ...

الحجاج يقود حملة الحجاز :

يقول المؤرخون ان السبب في ارسال عبد الملك بن مروان الحجاج لقتال

ابن الزبير ، دون غيره من الناس ، مع ما رأيناه من رغبة عبد الملك في المسير الى قتال خصمه بنفسه وعلى رأس جنوده ، ان الحجاج جاءه يوماً وهو يقول :

رأيت في المنام اني اخذت عبدالله بن الزبير فسلخته قابعتني اليه ،
ورولني قتاله .

فبعثه عبد الملك على رأس الفين (١) من جنود الشام ، وذلك في سنة ٧٢ للهجرة ، وكان للحجاج من العمر في ذلك الوقت ٣١ سنة ، فوصل في شهر شعبان للطائف ، ولم يتقدم رأساً الى مكة (٢).

وسبب ذلك في اعتقادنا رغبة الحجاج في ان يكون له ولجنده مركز منيع بأبوي اليه في بلد أكثر اهله خصوم له ، وما لديه من الجند ليس يفوق جند عدوه ، وكانت الطائف لقيامها على جبل غزوان بلساً منيعاً من الوجة العسكرية يستطيع الجند المهاجم ان يعتمد على مناعتها الطبيعية فيما اذا لم يوفق في زحفه ، وحاول عدوه اللحاق به ، وقد يكون من الاسباب التي اهابت بالحجاج للنزول في الطائف اول الامر ، انها كانت بلده ، وكان يمه وهو في مهد شبابه ان يدخلها على رأس جند الشام ، فيعزز بذلك مركزه ومركز عائلته ، ويظهر بين اترابه بمظهر العز والمنعة والمجد ..

ويبدو لنا من جهة ثانية ان ما فعله الحجاج كان تنفيذاً للأمر الذي صدر له من عبد الملك نفسه ، فيحدثنا صاحب انساب الاشراف : انه لما استعمل عبد الملك الحجاج بن يوسف لمحاربة ابن الزبير ، اقبل عليه هيثم بن الاسود النخعي فقال له :

(١) ويقال في ثلاثة الاف اربعة الاف .

(٢) ولم يمرض للمدينة ولا طريقها .

— يا امير المؤمنين ، اوصي هذا الغلام الثقفي بالكعبة ، ومره ان لا ينفر
اطيارها ، ولا يهتك استارها ، ولا يرمي احجارها ، وان يأخذ على ابن الزبير
بشعابها وفجاجها وأنفاقها.. حتى يموت فيها جوعاً او يخرج منها مخلوعاً .
فقال عبد الملك للحجاج : افعل ذلك واجتنب الحرم ، وانزل الطائف ..
ويحدثنا الواقدي وغيره : انه لما بويع عبد الملك وهو بالشام بعث الى
المدينة عروة بن انيف في ستة الاف من اهل الشام ، وامره ان لا ينزل على
احد ولا يدخل المدينة ، وان يعسكر بالعرصة ، ففعل ، وكان عامل عبد الله
بن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب بن معمر ، فلما بلغه قدوم الشام ولي
هاربياً، فكان (ابن انيف) يدخل فيصلي الجمعة بالناس ثم يعود الى معسكره، فاقام
واصحابه شهراً لا يبعث اليهم ابن الزبير احداً ، ولم يلقوا كيداً ، ثم كتب عبد
الملك الى ابن انيف ومن معه في القفول الى الشام فعادوا، ولم يتخلف منهم
احد ..

ولعل هذا البعث كان لمضايقة ابن الزبير وازعاجه ، ريثما يستتب الامر لعبد
الملك في العراق ، فيوجه الجند لغزو الحجاز كله ، والذي يلفت النظر هو هذا
الموقف الذي وقفه ابن الزبير من هذه الشرذمة التي ارسلها عبد الملك الى
المدينة ، فلم يحرك ساكناً لردها ، ولا فكر في دفعها وبذلك اطمع جنود
الشام به ...

ويظهر ان عبد الملك كان كثير الرغبة في ان لا يثيرها مجزرة او مذبحة
في مكة مخافة ان يلم به ما لم يبز يد بن معاوية بعد مذبحة الحرة من غضب
المسلمين عليه ونقمتهم على خلافته ، فاوصى الحجاج بان لا يحارب ابن الزبير في
مكة ، وبعث له بالامان لابن الزبير ومن شايعه إن اطاعوا ، وهذا سبب ما
نراه من وقوف الحجاج موقف المتريث اول الامر... قدم الى الطائف ولم يعرض
للمدينة ، وكان يبعث الخيل الى عرفة ، ويبعث ابن الزبير خيله ايضاً فيقتتلون
ساعة من نهار ، ثم تنهزم خيل ابن الزبير وتعود خيل الحجاج ظافرة غانمة .

وعندئذ كتب الحجاج الى عبد الملك يعلمه بضعف ابن الزبير ويستعده ويستأذنه في دخول الحرم ، وحصر ابن الزبير ، فكتب عبد الملك الى طارق احد قواده يأمره باللحاق بالحجاج ، فقدم المدينة في ذي القعدة من سنة ٧٢ للهجرة ، واخرج عاهل ابن الزبير عنها، وقدم على الحجاج وهو بمكة في اواخر السنة ومع خمسة آلاف مقاتل .^(١)

رمي البيت

ولما وصلت النجيدات الى الحجاج جعل معسكره في جبل ابي قبيس ، واخذ يقاتل ابن الزبير في الشهر الحرام والبلد الحرام ، ونصب المنجنيق على الجبل واخذ يرمي به الكعبة ، ثم توقف عن ذلك اياماً لنقمة الحجاج عليه واستنكارهم لعمله ، ولكنه ما كاد ينتهي موسم الحج حتى عاد الى شأنه . وكان عبد الملك ينكر رمي البيت في ايام يزيد بن معاوية ، ثم امر بذلك لما ولي الخلافة ، فكان الناس يتمجبون منه ويقولون : سخذل في دينه . وحجّ عبد الله بن عمر في تلك السنة ، فارسل الى الحجاج : ان اتق الله واكف هذه الحجارة عن الناس ، فانك في شهر حرام ، وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من اقطار الارض ، يضيرون آياط الابل ويمشون على اقدامهم ليؤدوا فريضته ، او يزدادوا مزداد خير . فان المنجنيق تمنعهم من الطواف . فكفّ الحجاج عن الرمي حتى قضى الناس ما يجب عليهم بمكة ، وخرجوا الى منى وعرفه ، فوقف بالناس بها وشهد معهم المشاهد ، ولم يعرض ابن الزبير للحجاج في هذه الزيارة .

(١) جاء في انساب الاشراف :

« ثم ان الحجاج كتب الى عبد الملك بعد مدة :

« انك متى تدع ابن الزبير وتكف عنه ، ولا تأمر برجمه ومصادمته ، يكثر عدده

وسلاحه ... فامر ان يهاجمه وامده بالجنود .

ونادي منادي الحجاج في الناس: ان انصرفوا الى بلادكم فانا نعود بالمنجنيق على ابن الزبير .

سوء سياسة ابن الزبير

وانضم بعض الناس الى ابن الزبير ليقاتلوا معه اعظاماً للبيت وحرمة، وقدم عليه قوم من الاعراب ، فطلبوا منه ان يعينهم على قتال العدو ، فنظر فاذا مع كل امرىء سيف كانه شفرة فقال :

.. يا معشر الاعراب ان سلاحكم لوث ، وان حديثكم لفت ، وانكم لعيال في الحرب .. اعداء في الحصب ... فتفرقوا عنه .

وهذا من سوء سياسة ابن الزبير وضعف تدبيره فيما كان يضيره ان يجاروا معه فيزداد بهم على عدوه قوة ومنعة .

وقال الواقدي : كان مع ابن الزبير مثنان من الحبشة قاتلوا معه ، فكانوا يرمون بزاريقهم فلا يقع مزارق إلا في رجل ، فقتلوا من الشاميين جماعة ...

وحارب معه جماعة من الخوارج من اصحاب الشجاعة والبأس ، فقاتلوا معه مدافعين عن البيت ، معظمين لحرمة ، وكانت لهم نكابة في اهل الشام ، فبلغه عنهم ما يقولون في عثمان فقال : والله ما احب ان استظهر على عدوي بن يبغض عثمان ... ولا بأن القى الله إلا ناصرأ له .

وجعل يماكرهم فقالوا : والله ما نرى ان نقاتل مع احد يكفر اسلافنا ، وما قاتلنا الا لحرمة هذا البيت ، وان تردها شوري .

فتفرقوا عنه ، فاختل عسكره ، وعريت مصافه ، ودنا منه عدوه حتى قاتلوه في جوف المسجد .

فقال عميد الله بن عمير : عجيباً لك .. ولما صنعت هؤلاء القوم وهم اهل البلاء الحسن والاثر الجميل ، هلا سكت عنهم واحتملتهم الى ان يصنع الله ،

وتضع الحرب اوزارها : وقد قلت : لو ان الشياطين اعانتني على هؤلاء القوم
لقبلتهم ، وقد كان رسول الله يستعين في حربه بالمتأفقين واليهود ...

ولم يزل القتال شديداً دائراً والحصار قسائماً حتى نقصت الاطعمة عند ابن
الزبير ، وارتفعت الاسعار ، واصابت الناس بجماعة شديدة ، حتى ذبح ابن
الزبير فرسه ، وقسم لحمه بين اصحابه .

ولما رأى الناس شدة البلاء اخذوا يتفرقون عن ابن الزبير ، وخرج بعضهم
بالامان الى الحجاج ، وكان ممن فارقه ابناء حمزه وحبيب ..

اشتداد الحرب والحصار :

ولما صدر الناس عن الحج اعاد الحجاج الرمي بالمنجنيق ، فلقد كان الحجر
يقع بين يدي ابن الزبير ، وهو يصلي فلا يبرح مكانه ، ورميت الكعبة حتى
ارتجت ووهنت ، فارفعت سحابة ذات برق ورعد ، فسقطت صاعقة على المنجنيق
فاحرقتها وقتلت من اصحابه اثني عشر رجلاً ، فذعر اهل الشام من ذلك ،
وكفوا عن القتل ... فقال الحجاج :

- انا ابن تهمامة ، وهي بلاد كثيرة الصواعق ، فلا يروءكم ما ترون
فإن من قبلكم كانوا اذا قربوا قرباناً بُعثت نار فاكلته فيكون ذلك علامة
تقبل ذلك القربان .

واتى الحجاج بمنجنيق اخرى وعاود الرمي .

ابن الزبير في الحرب :

وقال اسحق بن عبدان الاسمي : شهدت حصار ابن الزبير ، فرايته يباشر
القتال بنفسه ، ولقد رأيت يقاتل بيديه مثل جميع من يقتله اصحابه ، ورايته
اليوم الذي قتل فيه ، وهو يوم الثلاثاء ، وانه لبين الركن والمقام يقاتلهم اشد
قتال ، حتى انهم ليغشونه من كل ناحية ، حتى قتل .

وكانوا يدعونهم الى تبييت الحجاج - اي ان يهجم على جماعة الحجاج وهم نيام - فيقول : البيات لا يصلح ولا نستحله .
قالوا : وعرض على ابن الزبير ان يدخل الكعبة .

فقال : والله اني لاكره ان ادخلها فأؤخذ كما تؤخذ الضبَّع من وِقاها ،
ولكني اقاتل بسيفي هذا حتى اقتل ، والله ما باطن الكعبة عند الحجاج إلا كظاهاها .

وشرب ابن الزبير الصبر اياماً .. ثم المسك مخافة ان يصلب فيشم تكتنه .
وقال طارق وهو احد قواد الحجاج . وقد رأى ابن الزبير يقاتل ويحارب :
- ما ولدت النساء اذكر من هذا !

فقال الحجاج : اتقرظ مخالفاً لامير المؤمنين وطاعته ؟ .

قال : ذلك اعذر لنا في محاصرته عدة اشهر .. وهو في غير حصن ولا
منعة .. فبلغ ذلك عبد الملك فضرب طارقاً .

بين ابن الزبير وامه :

ولما رأى ابن الزبير انه لم يبق معه الا قليل لا يغنون عنه شيئاً .. دخل على
امه اسماء بنت ابي بكر فقال :

« يا اماه ، خذلني الناس حتى ولدي واهلي ولم يبق معي الا اليسير ، ومن
ليس عنده اكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا فما رأيك ؟
فقلت : انت اعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو ،
فامض له فقد قتل عليه اصحابك .. ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني
امية ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكت نفسك ومن قتل
معك ، وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس فعل
الاحرار ولا اهل الدين ، كم خاودك في الدنيا ؟ .. القتل احسن .

فقال : يا امامه اخاف ان قتلي اهل الشام ان يثلوا بي ويصلبوني .
قالت : يا بني ان الشاة لا تتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله .
فقبل رأسها وقال :

« هذا رأيي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا .. ما ركنت الى الدنيا
ولا احببت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله وان تستحل - رماته -
ولكنني احببت ان اعلم رأيك فقد زدتنني بصيرة ، فانظري يا امامه فاني مقتول ،
يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلي الامر الى الله ، فان ابنك لم يتعهد ايثار
منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في امان ، ولم
يتعهد ظلم مسلم او معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل انكرته ،
ولم يكن شيء آثر عندي من رضاء ربي ، اللهم لا اقول هذا تزكية لنفسي ،
ولكنني اقولته تعزية لأمي حتى تساوعني » .

فقالت امه : لأرجو ان يكون عزائي فيك جيلاً ، ان تقدمتني احتسبتك
وان ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى انظر ما يصير اليه امرك .
فقال : جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي .

قالت : لا ادعه لك ابداً ، فمن قتل على باطل فقد قتل على حق .
ثم قالت : اللهم ارحم هول ذلك القيام الطويل في الليل الطويل ، وذلك
التحيب والظلم في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبني ، اللهم قد سلمته
لامرك فيه ، ورضيت بما قضيت ... فاثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فتناول يديها ليقبلها ، فقالت : امض على بصيرتك وادن مني حتى اودعك .
قدنا منها فعانقها وقبلها ، فوقعت يدها على الدرع ، فقالت :

... ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

فقال : ما لبسته الا لأشد متتك .

قالت : فانه لا يشد متني .

فنزحها ثم خرج يقاتل القوم حتى قتل .. في جمادي الآخرة من سنة ٧٣ للهجرة ..

وبقتل ابن الزبير ، صفا الجوا لعبد الملك بن مروان في جميع الامصار الاسلامية ، واجمعت عليه الكلمة ، ولم يبق له منازع او مخالف ، واما ابن الزبير فقد دامت خلافته تسع سنين .. لانه بويع له سنة ٢٤ للهجرة .

بعد قتل ابن الزبير :

ولما قتل ابن الزبير حمل رأسه الى الحجاج ، فبعث به الى عبد الملك ، وصلب بدنه .. ثم سلمه الى والدته فوارته التراب .

ولما قتل ابن الزبير كبر جنود الحجاج فقال عبدالله بن عمر بن الخطاب :

.. لئن كبر من الاخيار لمولده ، اكثر ممن كبر من الاشرار لقتله .

وكان اول مولود ولد بالمدينة من ابناء المهاجرين وكان ابن عمر يقول :

.. اهل الحجاز امرع الناس في فتنة ، واهل الشام اطوع الناس مخلوق في

معصية ... واهل العراق اسأل الناس عن صغيرة واركبهم لكبيرة ،

يسألون عن قتل جرادة ، وقد قتلوا ابن بنت نبينهم .

سياسة الحجاج في الحجاز والعراق

في الحجاز :

اراد عبد الملك بن مروان بعد ان صفا له الجو في الامصار الاسلامية ان يكافئ القائدين الذين نجحوا في محاربة عبدالله بن الزبير ، فعين الحجاج لمكة ، وقلد طارق بن عمرو المدينة ، ثم زاد في واجبات الحجاج فضم اليه اليمن واليامة ، وما لبث ان ضم اليه المدينة ايضاً بعد ان عزل طارقاً عنها .

وليس بين ايدينا عن اعمال الحجاج في مكة ثم في المدينة ما يستلفت النظر سوى ما صرف هم له من الشدة والقسوة على كل من كان يظن فيهم الكره لبني امية ، والتنكر لسلطانهم ، وقد قسا في ذلك قسوة انكرها الناس عليه خصوصاً اهل المدينة ، فقد اساء الى اهلها كثيراً ، واستخف بهم وقال : « انتم قتلة امير المؤمنين عثمان » ، وختم على ايدي جماعة من الصحابة بالرصاص ، استخفافاً بهم ، كما يفعل باهل الذمة ، منهم جابر بن عبد الله ، وانس بن مالك وسهل بن سعد ، فاغضب هذا اهل المدينة ومكة وشكا بعض كتباهم امرهم

الى عبد الملك بن مروان ..

وهنا تختلف روايات المؤرخين في الاسباب التي دعت عبد الملك الى نقل الحجاج من الحجاز الى العراق ، فمن يقول منهم بهذه الاسباب العاطفية ، ورغبة عبد الملك في رفع الشدة عن سكان الحجاز ، لا يجد من يؤيده من المؤرخين المعاصرين لاننا في الواقع لانرى في هذه الاسباب مبرراً للنقل ، وعبد الملك انما اوفد الحجاج الى الحجاز لقمع الفتن ، وتثبيت الامن ، وقد وفق الحجاج في ذلك الى حد بعيد ، فلا سبيل والحالة هذه الى نقله ، وهو انما يقرر رغبات عبد الملك وينفذها ، ولكن السبب الاساسي في نظرنا هو موت بشر بن مروان في الكوفة سنة ٧٥ للهجرة (٦٩٤ش) ، وهو شقيق عبد الملك فوجد عبد الملك الحاجة ماسة الى من يخلفه خصوصاً والعراق بحاجة الى حاكم قوي شديد والخوارج لا تزال تهدده ، فلم ير الخليفة غير الحجاج اهلا لهذا المنصب الخطير ، فولاه اياه ، وامره بالسير له ، والتشمير في عمله الجديد ..

هذا هو الرأي الحق في الاسباب التي دعت الى نقل الحجاج الى العراق ، ولولا وفاة بشر بن مروان في اعتقادنا لظل الحجاج في الحجاز مدة اخرى من الزمن ..

ولعل اهم عمل قام به الحجاج في الحجاز هو تعمير الكعبة التي دمر بعض جدرانها اثناء الحصار بما كان يلقيه عليها من الحجارة الكبيرة ، واذا استثنينا هذا فلا نرى للحجاج عملاً عمرانياً مدة ولايته على الحجاز التي طالت الى ثلاث سنوات بما فيها الايام التي قضاها في الطائف قبل مهاجمته لأبن الزبير في مكة .

عمارة الكعبة :

وكانت الكعبة في عهد ابن الزبير على نحو ما كانت عليه في عهد محمد بن عبد الله ، فلما آل الامر الى يزيد بن معاوية كان عبد الله بن الزبير ما يزال منتقضاً

على امارة الامويين تأثراً بهم بحكمة ، فجرد عليه يزيد جيشاً لاختضاعه وكان عليه الحصين بن نمير ، فسار اليه وضيق عليه الحصار بحكمة ، ولم يطق ابن الزبير ورجاله مقاومته فلبجأوا منه الى الحرم وبنو حول الكعبة خصاصاً من القصب يحتمون بها من حجارة المنجنيق ، الذي نصبه ابن نمير ، على جبلي مكة ابي قبيس وقيقمان ، ولم تمتع هذه الحصان اللاجئين اليها من شر الحجارة ، وكان ابن نمير قد امر اصحابه ان يرموا الكعبة من المنجنيق بعشرة الاف حجر ، وكانوا يرمون ويرتجزون ، وكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تمزقت كسوتها ويدت احجارها ، واصاب الذين يقيمون بالخصاص والخيام حول الكعبة الفزع ، حتى ان احدهم ليوقد ناراً في خيمة قسائة بين ركن الحجر الاسود والركن اليازي ؛ إذ طارت منه شرارة احرقت الخيام وتعلقت باستار البيت ، ولما كان بناء الكعبة يومئذ مدمماً كما من حجر ، ومدمماً كما من خشب الساج فقد احترق الخشب ووهن البناء كله ، حتى كان وقوع الحمام على الكعبة كافياً لتناثر حجارتها .

ولقد فزع لذلك اهل مكة واهل الشام جميعاً ، وترك ابن الزبير الكعبة ليراها الناس ، فيكون مرآها محرضاً لهم على اهل الشام ، وظل الامر كذلك ، وظل الحصين بن نمير محاصراً البلد الحرام حتى بلغه نعي يزيد بن معاوية ، فرجع الى الشام تاركاً الكعبة واهية توشك ان تنقض .

وتحدث عندئذ ابن الزبير الى اهل مكة ، ما يصنع بالبيت ؟ ايصالح ما وهي منه ، ام ينقضه ويعيد بناءه ، وكان عبدالله بن عباس على رأس المعارضين للهدم واعادة البناء ، وقال موجهاً كلامه الى ابن الزبير :

... دعها على ما اقرها رسول الله ﷺ ، فأني اخشى أن يأتي بعدك من يهدمها ثم بعد ذلك اخر ، فلا تزال ابدأ تهدم وتبني فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ، ولا احب ذلك .. ولكن ارقعها ..

فاجابه ابن الزبير : والله ما يرضى احدكم ان يرقع بيت ابيه وامه فكيف ارقع بيت الله سبحانه ، وانا انظر اليه ينقض من اعلاه الى اسفله ، حتى ان الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته .

واقام اياماً يشاور ويستخير ، ثم اجمع على هدم الكعبة ، وهدمها واعاد بناءها ، ولما كانت خالته عائشة ام المؤمنين تذكر ان رسول الله قال لها :

- يا عائشة ، لولا ان قومك حديثو عهد بالجاهلية لامرت بالبيت فهدم ، فادخلت فيه ما اخرج منه والزقت بالارض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً ، فبلغت به اساس ابراهيم .

لذلك زاد ابن الزبير في مساحة الكعبة فادخل فيها حجر اسماعيل ، بعد ان كشف عن اساسها وجعل لها بابين والصقها بالارض .

ولما هدم ابن الزبير الكعبة وشرع في اعادة بنائها بعث اليه عبد الله بن عباس يقول :

- لا تدع الناس بغير قبلة ، انصب لهم حول الكعبة الخشب ، واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا اليها .

ونفذ ابن الزبير مشورة ابن عباس .

ولما تم بناء الكعبة اعتمر ابن الزبير محرمًا من التنعيم ، واعتمر الناس معه ونحروا واقاموا يطعمون ويُطعمون شكراً لله على تيسير بناء بيته الحرام ، وكان ذلك في السنة الخامسة والستين من الهجرة .

وظلت الكعبة كما بناها ابن الزبير عشر سنوات ، فلما كان عهد عبد الملك بن مروان وحاصر الحجاج ابن الزبير وقتله ، كتب الى عبد الملك يخبره ان ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها واحداث فيها باباً آخر ، ويستأذنه في رد ذلك الى ما كان عليه في الجاهلية ، واذن عبد الملك ، وغير الحجاج الجدار الذي من جهة الحجر وسد الباب الغربي ورفع البناء ، ورفع باب الكعبة على

ما كانت في الجاهلية .. ويذكرون ان عبد الملك ندم على اذنه للحجاج ولعنه
وقال : ودنا انا تركنا ابن الزبير وما تولى من ذلك .

وإذا نظرنا الى الحالة السياسية في الحجاز لما غادره الحجاج الى العراق نرى
ان المعارضة فيه قد خنقت حقاً ، فابناء علي بن ابي طالب رضي الله عنه قد
سكنوا الى حظهم العاثر، وانصرفوا الى العناية بالثقافة المعاصرة في عهدهم فبرعوا
فيها ، وعائلة ابن الزبير لم تعد لها قائمة ، ولا استقام لها عز ولا سلطات في
مقبلات الايام ..

الحالة في العراق :

وكان العراق لما عين عبد الملك .. الحجاج بن يوسف عليه في حالة دقيقة من
الاضطراب وعدم الاستقرار ، ويظهر لنا ان بشر بن مروان شقيق عبد الملك
وحاكم الكوفة لم يكن بالرجل الاداري الحازم ، بحيث يستطيع جمع الشمل ،
وتوثيق الاطراف ، وتهدئة النفوس ، والقضاء على الخوارج الذين كانوا لا يبرحون
يهددون العراق من معاقلهم في فارس وخراسان ، ويتبسطون في الثغور التي
حولهم حتى حدود الهند ، ولا أدل على ضيق صدره ، وضعف نفسه ، من
رغبته في الاستغناء عن القائد اليماني البارع المهلب بن ابي صفرة ، وكان عبد
الملك قد افضى اليه برغبته في ان يكون المهلب امير الجيش لمحاربة الخوارج ،
وكان هو يريد ان يكل هذا الامر الى شخصاً آخر دون المهلب مقدره وجرأة
وبراعة عسكرية ، ولو انه كان من الفطنة والذكاء بالقدر الذي يجب ان يكون
معه الحاكم الحكيم ، لما ترك لمواطنه مجالاً للتغلب على عقله ، ولكنه لما رأى
تشدد الخليفة في امر المهلب انفذه في جيش ضعيف ، وانفذ عبد الرحمن بن
مخنف في احسن جند الكوفة ، وامره بالاستقلال في رأيه ، وعدم الاخذ برأي
المهلب في حروبه وزخوفه .

ولكن امر (بشر) لم يطل ، فما كاد الجيشان يذهبان لقتال الخوارج حتى

جاءهم نعيه ، ففر كثير من الجند ولحقوا بأهلهم ، فلما رأى ذلك المهلب غضب
وارسل الى عبد الملك كتاباً يقول فيه :

« إما ان تبعث لي رجالاً ، او فافتح طريق البصرة للعدو » .

وعندئذ اعترم عبد الملك ان يرسل الى العراق رجلاً شديداً قوياً فوقع
اختياره على الحجاج فبعثه اليها .

في طريق الكوفة :

سار الحجاج من المدينة الى الكوفة في شهر شعبان من سنة ٧٥ للهجرة ،
ومعه اثنا عشر راكباً على النجائب ، فدخلها في رمضان وقد انتشر النهار^(١)
فبدأ بالمسجد فصعد المنبر ، وهو مثلثم بعمامة خز حمراء .

ونظر الناس الى هذا الشاب المثلم - وكان الحجاج لا يزيد عمره على ٣٣
سنة - وجماعته ، فاستخفوا بهم ، وحسبوم من الخوارج ، فهموا بهم ، ولكنهم
لما رأوا هدوءهم ، وعدم اهتمامهم تريثوا في امرهم ، ليروا ما يكون منهم ،
فقال الحجاج لاحد اصحابه :

-- عليّ بالناس !

فاخذ رجاله يدعون اهل الكوفة للصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ،
والحجاج ساكت قد اطال السكوت ، والناس لا يزالون في شك من امره ،
حتى لقد فكر احدهم في حصبه ، فلما عجز المسجد بالناس ، وقف الحجاج
وكشف عن وجهه وقال :

(١) يشك بعض المستشرقين في التاريخ الذي غادر فيه الحجاج المدينة الى الكوفة .

ويظهر ان الحجاج غادر المدينة وهو نائم على اهلها غاضب عليهم ، حتى حمد الله على خروجه
منها ، وخلّصه منهم ، وذكر فيما ذكره عند خروجه انه: لولا امر امير المؤمنين له بالكف عنهم ،
لأغلظ لهم ، وجعلهم لا يستقرون في بلدهم .

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني .

« أما والله اني لأحمل الشر محمله ، وآخذه بفعله ، واجزيه بثله ، واني لأرى رؤوساً قد أينمت وحان قطعها ، واني لصاحبها وكأني انظر الى الدماء بين العائم واللحي قد شمعت عن ساقها تشميراً » ...

« ان امير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فجمع عيدانها ، فوجدني امرها عوداً ، واصلبها مكسراً ، فوجهني اليكم ورمى بي في نحوركم ، فانكم اهل بني وخلاف وشقاق ونفاق ، فانكم طالما اوضعتم في الشر ، وسنتم سنن النفي ، فاستوثقوا واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان ، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل حتى تذروا العصيان وتثقادرا ، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلتينوا ، اني والله ما اعد إلا وفيت ، ولا اهم الا مضيت ، وان امير المؤمنين أمرني باعطائكم اعطياتكم وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة ، واني اقس بالله لا اجد رجلاً تخلف بعد اخذ عطائه بثلاثة ايام إلا ضربت عنقه » .

ثم امر غلامه بقراءة كتاب امير المؤمنين عليهم .

فقرأ غلامه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عبد الملك امير المؤمنين

الى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم » ..

فلم يقل احد من الحضور شيئاً ..

فقال الحجاج : اكفف يا غلام ...

ثم اقبل على الناس فقال : يسلم عليكم امير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام ،

اما والله لأودبنكم غير هذا الادب .

ثم قال للقارىء : اقرأ ، فلما قرأ السلام عليكم قالوا باجمعهم : سلام على

امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فاذا انتهى الحجاج من خطبته ، دخل منزله

ولم يزد على ذلك ، وتفرق الناس وقد اذهلهم تهديده ، واخافتهم جراته ، فقد

سمعوا منه شيئاً جديداً لا عهد لهم به ، ولا مثيل له في تاريخ ولاية الكوفة إلا ما كانوا يسمعون عن زياد بن ابيه وشدة ، ولكن زياداً ، لم يطاول الحجاج في مثل هذا التهديد والوعيد في كثير ولا قليل ...

وينظر الحجاج في امره فاذا هو امام امر داهم ، ارسال الناس الى المهلب مخافة ان يدهمه من الخوارج ما لا قبل له به ، فيدعو العرافين اليه ويأمرهم بالحاق الناس بالمهلب ، وان يأتيه بالبراءة بموافاتهم ، وامر بفتح الجسر فلا تغلق ابوابه ليلاً ولا نهاراً .

ويصف لنا المبرد (١) اجتماع الحجاج الى وجوه اهل الكوفة بعد الخطبة ، وسؤاله ايام : ما كانت الولاية تفعل بالعصاة ؟

فقالوا : كانت تصرب وتجبس .

فقال الحجاج : ولكن ليس لهم عندي الا السيف ، ان المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساءت المعصية لاهلها ما قوتل عدو ، ولا جبي فيء ، ولا عزت دين .

ثم جلس لتوجيه الناس الى المهلب وابن مخنف ، وقال للناس :

— قد اجلتكم ثلاثاً ، واقسم بالله لا يتخلف احد من اصحاب ابن مخنف بعدها ، ولا من اهل الثغور الا قتلته .

ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطته :

— اذا مضت ثلاثة ايام فاتخذنا سيوفكما عصياً ...

فجاءه عمير بن ضابيء البرجي بابنه وقال :

— اصلح الله الامير ، ان هذا انفع لكم مني ، وانا في هذا البعث ، ولكنني كبير عليل ، وابني هذا انسب مني .

(١) الكامل للمبرد

فقال الحجاج : ان عذرك لواضح وان ضعفك ليين ، ولكني اكره ان
يحتريء بك الناس علي ، وبعد فانت ابن ضابىء صاحب عثمان ، ثم امر به
فقتل .

فاحتمل الناس انفسهم ، وان اخدم ليتبعه اهله بزاده وسلاحه ، وازدحم الناس
على الجسر ، وخرج العرفاء الى معسكر المهلب فاخذوا كتباً بوصول الناس اليه

الحجاج في البصرة :

وفي اواخر هذه السنة ٧٥ للهجرة ، خرج الحجاج من الكوفة الى البصرة ،
فخطب اهلها وتوعدهم بمثل ما توعد به اهل الكوفة ، وتوعد من رآه منهم بعد
ثلاثة لم يلحق بالمهلب ، فجاءه رجل يمتدبر بمرضه فضرب عنقه ، فلم يبق
بالبصرة احد من عسكر المهلب إلا لحق به ، وتتابع الناس مزدحمين اليه ، حتى
كثر جمعه .

وخرج الحجاج الى (رستقا باز) وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً ،
وانما اراد ان يشد ازر المهلب واصحابه بمكانه منهم .

ثم خطب يوماً فقال : ان الزيادة التي زادكم اياها ابن الزبير انما هي زيادة
مخسر باطل ملحد فاسق ، ولسنا نجيزها .

وكان مصعب بن الزبير قد زاد الناس في العطاء مائة مائة ، فقال عبداؤه
بن الجارود :

—انها ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك قد
انقذها واجازها على يد اخيه بشر .

فقال له الحجاج : ما انت والكلام ... لتحسن حمل رأسك والا لاسلبنك
اياه ...

فقال : ولم ؟ فاني لك لناصح وان لهذا القول من يؤيده .

فسكت الحجاج عن الزيادة شهراً ، ثم اعاد القول فيها فرّد عليه ابن الجارود مثل رده الاول .

واخذ بعض رجالات العراق يؤيدون ابن الجارود ويبسايعونه سرّاً على اخراج الحجاج من العراق ، ثم الكتابة الى عبد الملك ليولي امورهم غيره ، واطهر ابن الجارود وجماعته امرهم في ربيع الآخر من سنة ٧٦ للهجرة ، وكان الحجاج قد علم بخبرهم فاستعد لهم ، ولكنه كان قليل الرجال ضعيف الاعوان فلم يكن بطوقه والحالة هذه ان يحارب القوم وقد ثاروا جميعاً ضده ، وكان الثائرون في الوقت نفسه لا يريدون قتله ، وانما اخراجه من العراق ، والخلاص من ظلمه وشدته ، ولكن الحجاج صمد لهم وابى مغادرة العراق ، وراح يتحايل ليجمع الناس حوله ، حتى تمكن من ضم بعض العراقيين اليه فحارب بهم ابن الجارود وجماعته فغلبهم ، وقبض على رجال الثورة فقطع رؤوسهم ، وارسلها الى المهلب لتكون نذيراً الى كل من تحدّثه نفسه بالثورة والعصيان .

ثورة عواقية :

والواقع ان ثورة ابن الجارود كانت ثورة من رجالات العراق وزعمائها على الحجاج ، فقد أساء اليهم وامتنهم ، واغرق في ايدائهم واحتقارهم ، ثم راح يحاول تخفيض مخصصاتهم من بيت المال ، فثاروا عليه ، وحاولوا اخراجه من العراق دون ما حرب ولا قتال ، لانهم في الواقع لم يكونوا يريدون غير الخلاص منه ، لا الثورة على الخليفة القائم ، وكانوا يظنون انهم اذا تمكنوا من اخراج الحجاج عنهم فان امير المؤمنين لا بد ان يبعث لهم غيره .. ويبدلهم خيراً منه . ولكن الثائرين لم يكونوا اهل خبرة كما يظهر في اغتنام الفرص السانحة ، فان حرصهم على سلامة الحجاج ، واخراجه من العراق فحسب ، جعلهم لا يسرعون في مهاجمته ، ولو فعلوا لكان للحجاج في العراق غير هذا التاريخ الذي نرويه عنه اليوم .

الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان

المهلب بن ابي صفرة وحروبه معهم

الخوارج في العراق :

فرقة خلقتها معركة صفين ، وجماعة كانوا من انصار علي بن ابي طالب في حربه مع معاوية ، فلما رضي علي بالتحكيم تقموا عليه وانكروا التحكيم على نحو ما وصفناه قبلاً ، ثم راحوا يجارون علياً في معركة النهروان ، ويميثون فساداً في الارض ، حتى قتل علي وظهر معاوية واستتب له الامر . فشدد عماله عليهم الخناق ، خصوصاً زياد وابنه امير العراق ، فسكتوا على مضض وهدأت ثوراتهم بعض الشيء ، وان كانت لم تنقطع كل الانقطاع ..

فلما اضطربت الحالة السياسية في الدولة العربية بعد موت يزيد بن معاوية واعتزال معاوية الثاني ابنه الخليفة ، وثار عبد الله بن الزبير في مكة اواخر ايام يزيد بن معاوية ، ولما كان الخوارج يقولون بوجود محاربة الامام الجسائر ، فقد راحوا يساعدون ابن الزبير ، يوم ارسل له يزيد بن معاوية جنداً لقتاله

وحربه ، وذلك لاعتقادهم الجور في يزيد وضرورة حربه وقتاله ، وظلوا مع ابن الزبير حتى مات يزيد وانجلى جيشه عن مكة ، فراحوا عندئذ يسألون عبد الله بن الزبير عن آرائهم ومعتقداتهم وموقفه منها ، فلما رأوه لا يؤيدهم ويخالفهم تركوه وشأنه ، وانصرفوا عنه .

وتاريخ الخوارج فيه من الطرافة ما ليس في تاريخ جماعة ثائرة سواهم ، كانوا من اخلص الناس لعقيدتهم ، ومن ابسل الناس في الدفاع عنها ، ومن أصرح الناس وأصدقهم ، ولكنهم كانوا من السذاجة بالمكان الارفع ، فعقائدهم ساذجة ، وسبيلهم في دعوة الناس اليها لا يحتل الموارد والالتواء ، فهم يدو ما في ذلك شك في اخلاقهم وحرورهم ومذاهبهم ، ولما اختلفوا فيما بينهم كما سيأتي تفصيله ... كان اختلافهم ظاهر البساطة ، بادي السذاجة .

ومن اهم فرقهم الازارقة، وكانوا من امنع واشدم بأساً ومراساً ، وزعيمهم نافع بن الازرق يقال انه من بني حنيفة اصحاب مسلمة... او انه كان مقياً معهم فنسب اليهم ، وكان يكنى ابا راشد .

وفي عهد ابن زياد ، كان نافع في حبسه مع زملاء له من الخوارج في رواية ضعيفة ، فلما مات يزيد بن معاوية خرج من الحبس مع اربعمائة من الخوارج ، فافسدوا الناس على ابن زياد ، فتحول الى الأزد مستجيراً بهم ، واقبل الخوارج يأتون (المربد) كل يوم ، فيقفون به ، ويمعبون الظلم، ويدعون الى قتال السلطان والجبابة ، وكان (المربد) لا يزال كزميله السابق سوق عكاظ مركز الحركة الادبية والتجارية في العراق ، وليس للخوارج رأس منهم ، ثم أمرت عليهم نافع بن الازرق وكان لسناً بارعاً صبوراً على المنازعة ، وكان نافع في رواية اخرى ممن دافع عن مكة مع عبدالله بن الزبير في حياة يزيد بن معاوية فلما اختلفوا تفرق الخوارج فصار جماعة الى اليمامة وطائفة الى البصرة ، وكان فيمن سار الى البصرة نافع بن الازرق وبنو الماحوز - وهم الزبير وعثمان وعلي وعبد الله وعبيدالله بنو بشير بن يزيد المعروف بالماحوز وهم من بني تميم وكلهم

كانوا زعماء بين الازارقة - فلما صاروا الى البصرة نظروا في امورهم ، فأمرّوا عليهم نافعاً ، ففضى بهم الى الاهواز - وهي ولاية كبيرة بين البصرة وقارس - في سنة اربع وستين فاقاموا بها لا يهيجون احداً ، ويناظروهم الناس ، وليس بينهم اختلاف ، وهم لا يزيدون عن ثلاثمائة وخمسين رجلاً ، وفيهم نجدة بن عامر من بني حنيفة ، وبنو الماحوز من تميم .

اختلاف الخوارج :

وكان سبب خروجهم الى الاهواز ما ذكرناه سابقاً من خروج اربعمائة رجل من الخوارج من السجن بعد موت يزيد بن معاوية ، وفسادهم البيعة على ابن زياد ، وقاموا بين الناس يدعون الى محاربتة ، مما دعا زياداً الى التحول عن دار الامارة ملتجياً الى الأزدي ، ونشأت الحرب بسببه بين الأزدي وريبعة وبين بني تميم ، فاعتزل الخوارج المختلفين ورحلوا الى الاهواز ، ولم يعودوا الى البصرة ، وطرردوا عمال ابن زياد ، وجبوا الفياء ، ولم يزالوا على رأي واحد يتولون اهل النهر ، ومعهم مرداس ومن خرج معه ، سائرین على سيرة هذا السلف من الخوارج حتى جاء مولى بني هاشم الى نافع فقال له :

- ان اطفال المشركين في النار ، وان من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الاطفال لنا حلال .

فقال نافع : كفرت ..

فقال له : إن لم آتک بهذا من كتاب الله فاقتلني : « قال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً » .

فقال نافع الى مقالته ، وذكر صاحب الاغانى سبباً آخر لتبدل مذهب نافع ، فيقول : ان نافعاً لما قام بسوق الاهواز لا يعترض الناس قالت له امرأته : ان كنت قد كفرت بعد ايمانك وشككت فيه فدع نخلتك ودعوتك ،

وان كنت قد خرجت من الكفر الى الايمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم ، واثنى
في النساء والصبيان ... وذكرت آية نوح ، فقبل قولها واستعرض الناس ، وبسط
سيفه فقتل الرجال والنساء والولدان ، وقال : انهم ككفار العرب لانقبل منهم
إلا الاسلام - على مذهب الخوارج - او السيف ، وهنا ظهر الاغراق في المذهب
الخارجي اذ اعتبروا انفسهم المؤمنين المسلمين وحدهم ، واعتبروا غيرهم ممن لا
يؤيد مقاتلتهم في النظام السياسي مشركا ، وهذا منتهى السخف والتطرف .
وبرى نافع من القاعدين عن القتال واستحل قتلهم متأولا الآية :

« وقعد الذين كذبوا الله ورسوله . »

وقال : إن من تخلف عن القتال من الخوارج لا نجاة له ، ودعا اصحابه الى
البراءة منهم ، وانه لا يحل لهم مناصحتهم ، ولا اكل ذبائحتهم ، ولا يجوز
قبول شهادتهم ، واخذ علم الدين منهم ولا يحل ميراثهم ، ورأى قتل الاطفال ،
فاجابه الى ذلك بعضهم وفارقه البعض الآخر .

وكان ممن خالفه (نجدة) وقال : « المقام في دار الكفر حلال » وصار الى
اليامة مع بعض اصحابه ، وبرىء من نافع بن الازرق وجماعته .

وكتب نجدة الى نافع كتابا يدعو فيه الى معاودة ما كان من قوله الاول ،
وقال له : لقد قعد على عهد رسول الله قوم ولم يحاربوا معه فلم يكفروا . .
فرفض نافع الاخذ برأيه ، وكتب الى عبدالله بن الزبير يدعو الى امره ،
ويقول له : انك تتولى عثمان وكان ابوك وعلي وطلحة اشد الناس عليه ، حتى
قتل ، وانت تتولى اباك وطلحة ، فكيف تجتمع ولاية قاتل ومقتول في دين الله ،
فاتق الله الذي اليه المصير ، ولا تتول الظالمين .

وكتب نافع الى من بالبصرة من الخوارج يدعوهم الى الجهاد ويرغبهم فيه ،
ويحذرهم الدنيا وغرورها ، وينهاهم عن القعود ، فاختلف الخوارج فيما بينهم
بكتابه ، وكتب عبدالله بن اباض ، والصقريه - وقد سماوا بذلك كما يقال

لصفرة وجوههم - الى نافع ينكرون عليه قوله وشهادته على القاعدين منهم
عن القتال بالكفر ، واستحلال المال قبل الحرب ، وقتل الاطفال ، فلم يرجع
نافع عن مقاتله ، وظل قوم من الخوارج على ولائه .. ثم استولى على الاهواز ،
واشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، واخذ يعترض الناس ويقتل الاطفال ،
فاذا أُجيب الى مذهبه جبي الخراج ، وفشا عمله في السواد ، فقرر المنسب الى
البصرة برجاله لعله يوفق هذه المرة الى الاستيلاء عليها ، واستباحة اهلها .

وكان اهل البصرة لما رأوا من ابن الازرق هذه الآراء ، وما يقوم به من
اعتراض الناس وقتل الاطفال ، وكيف ان امره يفشو ويتضخم ، ارتاعوا
لذلك ، واجتمعوا الى الاحنف بن قيس وقالوا له :

- ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى .

فقال الاحنف :

-- ان فعلهم في مصركم انظفروا بكم كفعلهم في سوادكم ، فجدوا في جهاد
عدوكم ..

فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز
وكان ديناً شجاعاً ، فقاد الناس ، وسار بهم حتى وصل (دولاب) .. وهناك قابله
الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل ، وكثرت
الجراح والقتلى ، وتضاربوا بالسيوف والعمد ، حتى قتل ابن عبيس قائد
البصريين ... وقتل نافع بن الازرق زعيم الخوارج .

ويذكر البلاذري في انساب الاشراف : ان ابن كريز لما خرج بالناس لحرب
الخوارج خطبهم قائلاً :

- ايها الناس انا لسنا نخرج بالذهب ولا بالفضة ، وانما نسير الى قوم ان
ظهرنا عليهم كانت غنائمهم اطراف الاسنة ، وانما يقدمون على الموت ، ويلتقون
المنايا ، فمن احب المضي ، فليمض ، ومن كرهه فليصرف من قريب .

فتفرق عنه جماعة ، وخرج فيمن بقي معه ، فلقي نافعاً بالاهواز ونافع في ستائة ، فحاربه وقتله ، وقتل ابن كرز في المعركة ايضاً ، وقد وقعت معركة دولاب هذه سنة ٦٥ للهجرة ..

ابن الماحوز :

وبايع الخوارج بعد نافع عبدالله بن الماحوز ، فأقام بالاهواز هو واصحابه ثلاثة اشهر ، وهاج الناس بالخوارج ، وكتب اهل البصرة الى ابن الزبير بأمر الخوارج وكيف ان عاملهم لا يحاربهم ، فولى ابن الزبير البصرة عمر بن عبدالله ابن معمر ، وندب عمر لقتال الخوارج اخسائه عثمان ، وبلغ الخوارج امره ، فأقبوا من الاهواز يريدون البصرة ، فسار اليهم عثمان في عشرة آلاف من اهلها ويقال في اثني عشر الفاً ، ولم يحسن الحيلة معهم ، فقاتلوه وقتلوه ، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة ٦٥ ، وعاد الخوارج الى الاهواز لا يخافون احداً ولا يخشون شراً ..

وكان من اسباب فشل هذا الجيش ما يذكره صاحب الكامل ، من انه لما عبر الجيش نهر دجيل الى الخوارج ، نهض اليهم الخوارج وذلك قبيل الظهر ، فقال عثمان قائد الجيش لحارثة بن بدر وقد استقل الخوارج :

— أما الخوارج إلا ما أرى .

فقال له حارثة : حسبك هؤلاء .

فقال : لا جرمَ والله لا اتغدى حتى اناجزم .

فقال حارثة : ان هؤلاء لا يُقاتلون بالتعسف فابق على نفسك وجندك .

فقال عثمان : ابتم اهل العراق إلا جيناً ، وانت يا حارثة ما علمك بالحرب

انت والله بنير هذا اعلم — يعرض له بالشراب — ..

فغضب حارثة فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه الى ان غابت الشمس فأتمجلت

الحرب عنه قتيلاً وانهمز الناس ، واخذ حارثة الراية وصاح بالناس : انا حارثة ابن بدر ... فثاب اليه قومه ، فعبر بهم دجيلاً ، وبلغ قتل عثمان البصرة ، فخاف الناس الخوارج خوفاً شديداً ، وكتبوا الى ابن الزبير بما جرى من الفشل وخطر الخوارج القريب .

المهلب :

واقام ابن الماحوز وانصاره يجيبون ما حولهم الى الفرات ، وكان ابن الزبير قد عزل عمر بن عبيدالله عن البصرة ، وولى مكانه القباق الحارث بن عبد الله بن ابي ربيعة ، فأتى الاحنف بن قيس القباق ، وشكا اليه ما الناس فيه فقال :
- اشيروا علي بن اولي حريمهم ..

فلم يروا لامر الخوارج الا المهلب بن ابي صفرة ، فكلموه بذلك فقبل حريمهم شرط ان تكون له ولاية ما غلب عليه ، وان يُعطى من بيت المال ما يقوى به معه ، وان ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم من يريد ، فأجابوه الى ذلك فانتخب المهلب من اهل البصرة اثني عشر الفا من جميع الناس ، وعسكر بالجر ، واخذ ما في بيت المال من الاموال ، واعان التجار والناس المهلب ، واتخذ ألوية ورايات ، وقاتل الخوارج فهزمهم وكسرهم كسرة منكورة ، ثم قام الى نهر (تيري) بناحية الاهواز فاجلى الخوارج عن ما حوله ، واقام يجي ما حواليه من الكور ، وكتب بالنصر الى امير البصرة القباق ..

ودس المهلب الجواسيس الى عسكر الخوارج فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم - وهذا من حسن السياسة ورائع المكيدة في الحرب - فاذا هم من رعاغ الناس ما بين قصاب وصباغ وخبيث مفسد وحداد ، فخطب المهلب الناس فذكر من هناك وقال لهم : امثل هؤلاء يغلبونكم على فينكم .

وما زال المهلب في مكانه حتى احكم امره ، وقوى اصحابه وكثرت فرسانه ، وانتمى اليه زهاء عشرين الفا ، ثم مضى يؤم سوق الاهواز وفي

مقدمته المغيرة بن المهلب ابنه حتى قارب الخوارج، فناوشوه، فأنكشف عنه بعض اصحابه ، وثبتت المغيرة بقية يومه وليلته بوقد النيران ، ثم غاداهم القتال فاذا هم قد ارتحلوا عن سوق الاهواز فدخلها المغيرة ، وجاءت اوائل خيل المهلب ، فأقام بسوق الاهواز ، وكتب بالنصر الى امير البصرة عبدالله بن ابي ربيعة ..

وكان المهلب يبيت الاحراس - الحراس - في الامن .. اي حين لا يكون حرب كما يبشهم في الحرب ، ويذكي العيون في الامصار كما يذكيها في الصحاري ، ويأمر اصحابه بالتحذر حتى لا يهاجمهم الخوارج بغتة وهم غافلون ، وان بعد عنهم العدو ، ويقول : احذروا ان تكادوا كما تكيدون ، ولا تقولوا هزمناهم وغلبناهم ، والقوم خائفون وجلون .. فان الضرورة تفتح باب الحيلة .

وكان عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج قد وجه خمسين من اصحابه الى نهر تيرل وبها المعارك بن ابي صفرة نائباً عن المهلب فيها ، فقتلوه وصلبوه ، فنمي الخبر الى المهلب فوجه ابنه المغيرة فدخل نهر تيري ، وقد غادرها الخوارج ، فدفن المعارك وسكن الناس ورجع الى ابيه وقد حل بسولاف - وهو غربي دجيل وقرب مناذر الكبرى - والخوارج بها ، فقاتلهم ومال الخوارج باجمعهم على عسكر المهلب فانهزم الناس ، وقتلوا سبعين رجلاً وثبت المهلب ، وابلي المغيرة يومئذ بلاء حسناً وعرف مكانه ، وبات المهلب ليلة هذه المعركة في الفين فلما اصبح رجع بعض المنهزمين فصار في اربعة آلاف فخطب اصحابه فقال :

- والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا اهل الجبن والضعف والطمع واصحاب الاوزار ، فان يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثله فسيروا الى عدوكم على بركة الله .

ثم ارتحل المهلب الى حيث كان الخوارج في سلىّ وسلبري وهما موضعان

بلاهور فزل قريبا منهم ، ثم كانت المعركة الرهيبة التي حمل فيها الخوارج حملة واحدة على معسكر المهلب كما فعلوا في سولاف ، فضعفوا الناس ، وثبت المهلب وابنه المفيرة في جمع اكثرهم من اهل (عمان) ، ثم انكفأ الجيشان الواحد عن الاخر ، وأمر المهلب اصحابه بان يعدوا الحجارة ويرموا بها في وقت الغفلة ، فانها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ففعلوا ، وطال القتال الى المساء ، وابتلى جيش المهلب بلاء حسناً حتى اذا كان المساء قتل ابن الماحوز زعيم الخوارج وانصرف الخوارج الى ارجان وهي مدينة كبيرة بينها وبين سوق الاهواز ستون فرسخاً ..

وكتب المهلب بالنصر الى امير البصرة ، فكتب اليه هذا وهو (القباع) :
« قد قرأت كتابك يا اخا الازد ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا ، وعزها ، وذخر لك ثواب الاخرة ان شاء الله واجرها ، ورأيتك اوثق حصون المسلمين ، وهادئ اركان المشركين واخا السياسة وذا الرئاسة »

وكتب اليه اهل البصرة يهنئونه ، وبعث اليه الاحنف رسالة شفهية يقول له فيها : انا لك على ما فارقتك عليه ...

وكان مقتل عبيد الله بن الماحوز زعيم الخوارج في شوال سنة ٦٦ هجرية ، وكان امره ستة عشر شهراً ، ويبيع الخوارج بعده الزبير بن علي الماحوز ، وكتب المهلب بالنصر الى عامل ابن الزبير على البصرة ..

وجزع الخوارج لمقتل زعيمهم ، عبيد الله بن الماحوز ، وظهر الانكسار والضعف فيهم ، فشدّد الزبير بن الماحوز قلوبهم ، وقال لهم : لقد اصابوا منكم واصبتم منهم ، وقد اشجيتم المهلب وقتلتم اخاه (المبارك) ، ثم تحمس لمحاربة المهلب فردّه هذا ، فاكن له قلم يوفق ، فيش من ناحيته وضرب الى ناحية اصبهان ، ثم كرّر راجعاً الى ارجان وقد جمع جموعاً ، وكان المهلب قد استعد لهم وكأنه ينتظرهم ، فلما جاءوه الفوه مستعداً اخذناً باقواء الطرق فحاربوه

فظهر عليهم ظهوراً بيناً .

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية الحرث القباع حتى عُزل القباع سنة ٦٧ ، وولى مصعب ابن الزبير ، فكتب الى المهلب بالقدوم عليه فقدم واستخلف ابنه المغيرة على حرب الخوارج وقال لاصحابه :

- انكم لا تفقدوني ما كان المغيرة عليكم ، فانه ابو صغيركم في الشفقة ، وابن كبيركم في البر والطاعة ، فلتحسن طاعتكم له ، فما اردت صواباً قط الا سبقي اليه .

واقبل المهلب الى العراق فشهد مع مصعب حرب المختار بن عبيد الله وتمزق امره ، وانهار سلطانه ، ثم ولى مصعب المهلب بن ابي صفرة على الموصل والجزيرة وارمينية واذريجان فشخص المهلب اليها ، وصار مصعب الى البصرة يبحث عن شخص يوليه امر الخوارج حولها ، فوقع اختياره على عمر بن عبيد الله بن معمر ، وكان كما يقول الخوارج فيه : « بطلا شجاعاً فارساً جاداً يقاتل لدينه وملكه ، مانودي بحرب إلا كان اول فارس يطلع » ، وقد ولاه مصعب فارس .. والخوارج بارجان وعليهم الزبير بن علي ، فشخص اليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى اخرجهم منها فالحقهم باصبهان .

ولما علم المهلب بتولية مصعب عمر بن عبيد الله قال : رماهم بفارس العرب وقتاها . وجمع الخوارج لعمر بن عبيد الله واستعدوا وأتوا ساور سوهي كورة مشهورة بارض فارس - فسار اليهم ، وحاولوا مهاجمته ليلاً فلم يوفقوا وظهر عليهم ، ثم زحف على الخوارج عند ذلك اليوم فقاتلهم قتالاً شديداً وقتل ابنه في هذه المعركة فلما عرف بقتله حمل على الخوارج حملة لم يُرَ مثلها وحمل اصحابه بحملته فقتلوا في وجوههم تسعين من الخوارج ، وحمل على قطري فضربه على جبينه ففلقه وانهزمت الخوارج ، وخرجوا من فارس ثم عادوا الى ناحية ارجان فقاتلهم عمر بن عبيد الله حتى هزمهم ، وحمل عليه اربعة عشر من

شجعانهم ، وفي يده عموذ ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرعه ، فارتد الخوارج مرة اخرى الى اصبهان ، وكانوا في الواقع لا يستقرون في مكان معين ، وارتحل عمر بن عبيدالله الى اصطخر ، ثم رجع الخوارج الى الاهواز بعد ان سار عمر بن عبيدالله الى اصطخر . . . فساد اليهم المهلب فحاربهم واخرجهم من الاهواز ، وتتابع الحوادث والخوارج لا يزالون يعيشون فساداً في الارض ، والقواد الذين يتداولون على حرب الخوارج ليسوا في حزم المهلب العسكري ودهائه وجرأته ويسالته ، حتى هددوا الكوفة وقتلوا النساء والاطفال وجبوا الخراج .. فلم ير اهل العراق بدأ من ان يطلبوا الى مصعب ارجاع المهلب لقتالهم فعاد المهلب اليهم وتلقى بهم وعلى رأسهم قطري بن الفجاءة ودار القتال بينه وبينهم ثمانية اشهر صمد لهم المهلب فيها صموداً قوياً شديداً . ثم يقتل مصعب بن الزبير ، ويصفو الجو لعبد الملك بن مروان ، فيولى خالد بن عبدالله بن اسيد البصرة ، فيصرف هذا المهلب عن حرب الخوارج ، ويرسل اخاه لحربهم ، فيهزمه الخوارج هزيمة منكرة ، فيغضب عبد الملك ، ويكتب الى عامله يؤنبه ويقبح رأيه في ابعاد المهلب ويأمره باسناد حربهم اليه ، فيعود المهلب الى حرب الخوارج سنة ٧٢ للهجرة والحرب سجال بينه وبينهم .

ويبعث عبد الملك بالهجاج الى العراق ليعمل مع المهلب للقضاء على الخوارج ، فيأتي الهجاج الى العراق كما قدمنا ، ويأخذ الناس بالشدة ، ويبعثهم الى مساندة المهلب في حروبه وزخوفه ، وقد عرفنا شأن الهجاج فن هو المهلب ??

المهلب بن ابي صفرة :

كان ابو صفرة والد المهلب من الاعراب الذين نزلوا البصرة في عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق ، وولد له المهلب بها فرباه تربية عالية ، فظهر بين الناس سيداً نبيلاً وفارساً مغواراً وشجاعاً مقداماً ..

وظهر المهلب بين الناس كرجل حرب وكفاح ، يحسن الادارة ، ويحسن الزحوف والهجوم ، حتى لقد اعجز الخوارج وضايقهم ، ولم يمكنهم من نفسه وجنده ، وكان في وقائمه معهم يحكم تدبير حركات الجيوش ، ويخندق عليهم ، ويضع المسالحي^(١) ويذكي الميوني ، ويقيم الاحراس ، ولا ينزل بلداً او يعسكر في مكان الا وعسكره على ترتيبهم ومصافهم ، وقواه على راياتهم ، والموكلون بالحرب على ابواب الخنادق وافواه الطرق .

وكان الخوارج اذا ارادوا ان يبيتوه او يهاجموه ، وجدوا امره محكماً فلم يقاتلهم انسان قط كان أشد عليهم ولا أغبط لقلوبهم منه ، كادهم بالخيال ، ومزق جموعهم بالحروب ، وكان يساعده في تلك الوقائع بنوه الابطال وكلهم على غراره بأساً وقوة وجرأة ، ولبت يقاتل الخوارج هو وبنوه وجنوده زهاء اثنتي عشرة سنة ، حتى شئت شملهم ، وكان الحجاج اثناء ذلك يرسل اليه الرسل اثر الرسل ليستحثوه بالقتال ، ويبعث اليه بالكتب تلو الكتب يثير بها حميته ، ويهيجه بقوارص الكلم ، فما كان يزيد على ان يفرق الرسل مع بنيه في الجنود ليشهدوا قتالهم مع الخوارج ، فكان بعض الرسل يقتلون ، وبعضهم يهربون من هول الحرب ، وكانت اجوبته على كتب الحجاج ان : « سل رسلك يخبروك كيف تقاتل الخوارج ويقاتلوننا » وكان الرسل يرجعون الى الحجاج ويقولون له :
- رأينا قوماً لا يعين عليهم إلا الله ..

وأغلظ الحجاج القول للمهلب ذات مرة في كتاب كتبه يأمره فيه في آخره أن يلقي الخوارج يوم كذا في مكان كذا ، والا اشرع اليه صدر الرمح .. فاعلظ له المهلب في الجواب ، وكتب في اخره :

« وزعمت اني ان لم القهم يوم كذا في مكان كذا ... اشرعت الي صدر

(١) الفرقة التي يوكل اليها امر تدبير الاسلحة الحربية والذخائر والمؤن والتقليبات

وغيرها ...

الرمح . فلو فعلت لقلبت اليك ظهر المجن والسلام «
وفي بعض المرات وجه اليه الجراح بن عبد الله يستبطئه في مناجزة القوم
وكتب اليه :

« اما بعد فانك جبيت الخراج بالملل ، وتحصنت بالختنادق ، وطاولت
القوم ، وانت اعز ناصراً ، واكثر عدداً ، ولا اظن فيك مع هذا معصية ولا
جبناً ، ولكنك اتخذت عنذراً وكان بقاؤهم ايسر عليك من قتالهم ، فناجزهم
وإلا انكرتني والسلام »

فقال المهلب للجراح :

« يا ابا عقبة ، والله ما تركت حيلة الا احتلتها ، ولا مكيدة الا عملتها ،
وما المعجب من ابطاء النسر وتراخي الظفر ، ولكن المعجب ان يكون الرأي
لمن يملكه دون من يبصره . »

ثم ناهض الخوارج يناديهم القتال الى الرواح ، امام عين الرسول ، فينصرف
اصحابه وبهم قروح ومنهم قتلى ...

فقال للرسول : كيف رأيت ؟

قال : قد اعدرت .

وكتب المهلب الى الحجاج :

« اتاني كتابك تستبطني في لقاء القوم ، على انك لا تظن بي معصية ولا
جبناً ، وعاتبتي معاتبة الجبان ، واوعدتني وعيد العاصي ، فأسأل الجراح
والسلام . »

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟

قال : والله ما رأيت ايها الامير ، مثله قط . ولا ظننت ان احداً يبقى

على مثل ما هو عليه ، شهدت اصحابه اياماً ثلاثة ، يندون الى الحرب ، ثم

ينصرفون عنها ، يتطاعنون بالرماح ، ويتضاربون بالسيوف ، ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً .

فقال الحجاج : لشد ما مدحته ، ابا عقبة !

قال : الحق اولى .

وكان الخوارج يسمون المهلب الساحر : لانهم كانوا يدبرون الامر فيجدونه قد سبق الى نقض تدبيرهم ، وكانوا يسمونه الاعور لانه أصيب بعينه في غزوة سمرقند مع سعيد بن عثمان بن عفان في خلافة معاوية سنة ٥٦ .

وكانوا يسمونه الكذاب : لانه كان فقيهاً ، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله ﷺ من قوله : كل كذب يكتب كذباً ، إلا ثلاثة ... الكذب في الصلح بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته بعدها ، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد . وقوله عليه الصلاة والسلام : انما انت رجل فخذل عنا . فاتما الحرب خدعة ، وغير ذلك .

فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من امر المسلمين ، ويضعف من امر الخوارج . وليس المراد من وضع الاحاديث عن النبي ﷺ ، بل المراد احاديث الحرب لتخذيل الاعداء .

وهو مخترع الركب الحديدية ، وكانت الركب تصنع من الخشب ، فكان الرجل يعتمد على الركاب منها في الضرب والطعن فينقطع فيبقى بلا معتمد ، فأمر المهلب فصربت من الحديد .

ولما انتهى المهلب من امر الخوارج وجه الى الحجاج كعب ابن معاذن الاشقري ليشره بالانتصار عليهم وتمزيق شملهم .

فاقبل عليه الحجاج وقال له ، في حديث طويل :

– اخبرني عن بني المهلب .؟

قال : «الغيرة» فارسهم ، وكفى «ببزيده» فارساً شجاعاً ، وجوادهم «قبيصه»

ولا يستحي الشجاع ان يفر من «مدرك» ، و «عبد الملك» سم نافع ،
و «حبيب» موت زعاف ، و «محمد» ليث غاب ، وكفالك «بالمفضل» نجدة .
ولما جمع عبد الملك بن مروان الى الحجاج خراسان وسجستان والعراق ،
استعمل الحجاج المهلب على خراسان ، فلم يزل والياً عليها حتى ادركته الوفاة
سنة ٨٢ .

ثم استقدم الحجاج المهلب وأجلسه بجانبه ، وظهر اكرامه وبره ، وقال :
- يا اهل العراق ، انتم عبيد المهلب .
قال ذلك لانه لولا المهلب لاستولى الخوارج على العراق ، ولولاه لسقطت
البصرة في ايديهم ، ولذلك تسمى البصرة بصرة المهلب .
وكان للمهلب كلمات لطيفة واشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في
حسن السمعة والثناء الجميل ، فمن ذلك قوله :

« الحياة خير من الموت . والثناء الحسن خير من الحياة . ولو أعطيت مالم
يعط احد لاحببت ان تكون لي اذن اسمع ما يقال بها ما يقال في غدأ
اذا مت ... »

المهلب والخوارج :

ولقد عرضنا الى اول حروب المهلب مع الخوارج .. ويوم خرج الى الازارقة
بجيشه وكانوا قد انتهوا الى الجسر الاصغر وعليهم عبيد الله ابن الماحوز ،
فحصلت بين الفريقين معارك متعددة تمكن المهلب في آخرها من دفعهم نحو
الاهواز ، وقد ضاق صدر الخوارج ذرعاً بالمهلب اذ كان لا يمكنهم من نفسه ولا
جيشه كما قدمنا ، فهو ابدأ على استعداد للاقتحام ومحاربتهم ، وقد حدث ان
ارادوا مهاجمته ليلاً في احدى المعارك التي حدثت في سنة ٦٥ للهجرة ، فارسلوا
الى جناحه الايسر عبيدة بن هلال ، وذهب الى جناحه الايمن .. الزبير

بن الماحوز ، ومع كل منها عدد عظيم من المقاتلة ، فلما بلغوا الى جيشه صاحوا وكبروا فوجدوه على تعبئة ، والجنود على مصافهم حذرين مستعدين فلم يصيبوا منه غرة ، ولم يظفروا منه بشيء ، وتمكن المهلب من تشتيتهم وقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز ، فانكفأوا راجعين محرومين مغلوبين الى كرمان وجانب اصبهان ، وكان المغيرة بن المهلب في هذه الواقعة ، اذا نظر الى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكس على سرجه وحمل من تحتها فبراها بسيفه ، ومزق ميمنة جيش الخوارج ، وكان اشد ما تكون الحرب . . اشد ما يكون انطلاقا وسرورا ، وكان المهلب يقول فيه : ما شهد معي حربا قط إلا رأيت البشر في وجهه .

وتشتد المعارك بين المهلب والخوارج ، فلا يوفقون معه في كثير ولا قليل . وفي سنة ٦٧ نراهم في ارجان وقد بايعوا الزبير بن الماحوز بعد مقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز ، يعاودون المهلب فيكسرهم ويشتت شملهم فيعودون الى اصبهان ، ويتوجه المهلب نحو الموصل .

وفي اواخر ٦٨ ، يعود المهلب الى قتال الخوارج وقد بايعوا قطري بن الفجاءة بعد ان قتل زعيمهم الزبير في معركة لم يكن المهلب فيها ، وقد ساروا الى كرمان فلحقهم وحاربهم في (سولاف) ثمانية اشهر اشد قتال رآه الناس ، وقتل في هذه الوقائع كثير من اصحاب المهلب ، وثبت فيها المهلب وابنه المغيرة ، وفي هذه الاثناء يتغلب عبد الملك على العراق ويولي على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فبعث شقيقه عبد العزيز لقتال الخوارج مع جيش عليه مقاتل بن مسمع ، وصرف المهلب الى الاهواز ، فارسل اليه قطري تسعمائة فارس ، فاستقبلوا عبد العزيز بفارس وهو يجري يحيشه من غير تعبئة فهزموه وقتلوا مقاتل بن مسمع واخذوا امرأة عبد العزيز ، وقد ذكرنا كيف ان عبد الملك بن مروان غضب لما علم بخبر هذا الفشل ، وامر والي البصرة خالد بن عبد الله ان يأخذ رأي المهلب في حرب الخوارج ، وان لا يخرج عن رأيه ، وأمر

عبد الملك خالداً ان يخرج الى الازارقة بنفسه ، وكتب الى بشر بن مروان عاملة على الكوفة ان يده يجيش من عنده ، فامدته ببضعة آلاف عليهم عبيد الرحمن محمد بن الاشعث . فخرج خالد يجيشه ومن معه من اهل الكوفة ، والتقوا بالازارقة بالقرب من الاهواز .

وأشار المهلب على عبد الرحمن ان يخندق على جيشه .

فقال له : والله لهم امون علي من هذا ...

فقال المهلب : يا ابن اخي ، لا يهونوا عليك فانهم سباع العرب . ولم يتركه حتى خندق .

ثم ان خالداً زحف الى الخوارج بالناس فرأوا ما هالهم ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فانصر جيش خالد، وهزموا الخوارج واتبعوهم يقتلونهم ويسلبونهم . ثم ارسل خالد وراهم داود بن قحذم ليستأصلهم وكتب بذلك الى عبد الملك فأمر عبد الملك اخاه بشر بن مروان ان يبعث من قبله رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في اربعة الاف فارس لينضم الى داود بن قحذم ويكون تحت امرته فارسل بشر بن مروان ، عتاب بن ورقاء في اربعة الاف من اهل الكوفة ، فخرجوا حتى التقوا بداود بن قحذم بارض فارس ، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نفقت خيول عامتهم ، واصابهم الجهد والجوع ، ورجع عامة الجيشين مشاة الى الاهواز سنة ٧٢ للهجرة .

وفي هذه السنة سنة ٧٢ للهجرة وهي التي قتل فيها مصعب بن الزبير كان الخوارج في (برامرزم) والمهلب بازائهم . لان الخوارج في الواقع كانوا اذا فشلوا في مكان ، ظهروا في مكان آخر ، فاذا فشلوا في الثاني عادوا يحاربون في مكان ثالث ... لا يملون ولا يهدأون .

الحجاج والخوارج

شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي

حروبه وحوادثه

الحجاج والخوارج :

كان المهلب بن ابي صفرة قائد جيش العراق اكثر القواد حظاً مع الخوارج، وابعدهم تمزيقاً فيهم وتأثيراً في افنائهم ، فما كاد يصل الحجاج الى العراق حتى تمكن الخوارج من تمزيق جيش عبد الرحمن بن عحنف القائد الثاني الذي كانت يقااتل الخوارج مع المهلب وقتلوه ، ولم يوفقوا مع المهلب في كثير ولا قليل . فكتب المهلب الى الحجاج بنجر الفاجعة ، فبعث الحجاج على جيش عبد الرحمن عتاب بن ورقاء ثم استقدمه اليه وضم جيشه الى جيش المهلب فأمر عليه ابنه حبيبا .

ولعل من اروع ما في تاريخ الخوارج زحوف شبيب بن يزيد الخارجي وحروبه مع ولاة الحجاج ، فان فيها لوناً جديداً من الوان التضحية والجرأة

والبسالة والايان بالعقيدة، مما لا يرى القاريء مثله في تاريخ جماعة غير الخوارج، ولا يرى له نظيراً في غير تاريخ الجماعة الاسلامية الاولى التي خرجت لتشر دين الله في الارض، ولتروج لتراث محمد من مشرق الارض الى مغربها .. ونظن اننا نحسن صنعا اذا عرضنا لأخبار شيبب بشيء من التفصيل .. فان اخبار الخوارج موزعة في كتب الادب والتاريخ بحيث يصعب جمعها في صعيد واحد على القاريء فاذا نحن بسطنا اخبارهم، وتلطفنا في ترجمة زحوفهم ومعاركهم .. استقام معنا هذا البحث الذي غلبت فيه حوادث الخوارج على غيرها وسواها .

تحرك في سنة ٧٥ للخروج رجل من بني امرئ القيس يقال له صالح بن مسرح - وكان يرى رأي الصفرية - وقيل انه اول من خرج منهم ، فحج في هذه السنة ، ومعه ابو الضحاك شيبب بن يزيد الشيباني ، وسويد ، والبطين ، واشباههم من الخوارج ، وكان عبد الملك بن مروان قد حج في هذا العام ، فهم شيبب بالفتك به ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وكان صالح بن مسرح المذكور ناسكاً خاشعاً مصفر الوجه ، صاحب عبادة .

وكان يقيم بأرض الموصل ، وله اصحاب يقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، ويقص عليهم القصص ، ومن جملة ما كان يقصه عليهم استئثار عثمان بن عفان بالقيء ، وتعطيله الحدود ، والجور في الحكم ، واستدلال المؤمنين وتعزير الجرمين ، ومن جملة ذلك ايضاً تحكيم علي - كرم الله وجهه - الرجال في امر الله والشك في اهل الضلال والركون اليهم . . . وصار يتبرأ من هذين الامامين ومن ولاة الامور بعدهما ، ويسميهم ائمة الضلال الظلمة ، ويدعو اصحابه للخروج من دار الفناء الى دار البقاء والحق باخوانهم المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة وجاهدوا بأموالهم وانفسهم التماساً لرضوان الله ، ورغب الى اصحابه ان يرسلوا كل من كان على رأيهم ليوافقهم للخروج على الولاة ، وبينما هم في ذلك اذ قدم على صالح... ابن الحنبل بن وائل الشكري بكتاب من

ابي الضحاك شبيب بن يزيد الخارجي يعرض فيه الانضمام الى صالح واصحابه،
وان يكون صالح امير المؤمنين وشيخ المسلمين .. فاستجاب له صالح وكتب
اليه يحثه على الاسراع بالاقبال اليه . فجمع شبيب اصحابه وقدم على صالح
وقواعد الجميع الخروج في صفر سنة ٧٦ .

خروج الخوارج :

ولما جاء الميعاد اجتمعوا وهموا بالخروج ، ورأى شبيب استعراض الناس
وقتل كل من يعرض لهم ممن لا يرى رأيهم ، فمنعه صالح وقال له :
.. بل ندعهم فان من يرى رأينا مجيئنا .. ومن لم ير رأينا فنحن في حل
من قتله .

ولما ابتدأوا في الخروج وكانوا نحواً من مائة وعشرين معظمهم رجالة ،
وكان لمحمد بن مروان دوابّ في رستاق بتلك الجهة .. فشدوا عليها واخذوها
فحملوا رجالتهم عليها ، وبلغ محمد بن مروان خروجهم ، وهو يومئذ امير
الجزيرة ، فاستخف بأمرهم وارسل اليهم عدي بن عميرة في الف ، فسار من
حران ، وكان (عدي) يتنسك ، فخرج الى صالح المتنسك وكانا يساق الى
الموت ، ودس الى صالح رجلاً يدعوه الى الخروج الى بلد آخر ، ويعلمه ان
عدياً يكره قتاله ، وان لم يكن على رأيه ، فحبس صالح الرسول وانقض على
عدي ، وهو قائم يصلي الضحى ، وحمل شبيب وسويد عليه وعلى عسكره معه .
فانهزموا بلا قتال ، وركب عدي فرسه ومضى على وجهه ، ورجع فله الى محمد
ابن مروان ، فغضب وارسل الى الخوارج خالد بن جزء السلمي في الف وخمسمائة
والحارث بن جعونة في الف وخمسمائة ، فخرجوا اليهم واقتتل الفريقان اشد
قتال ، فترجل خالد والحارث ومن معها واستقبلوا الخوارج بالرماح ، ورشقتهم
رمايتهم بالنبل ، وطاردتهم خيلهم ، وفشت الجراحة في الجيشين ، وكثرت فيها
القتلى ، فلما امسوا رجعوا الى عسكرهم ، وتشاور الخوارج فيما بينهم ، فقر

رأيهم على ان يخرجوا من تحت ليلتهم الى مكان آخر ..

فمضوا حتى قطعوا ارض الجزيرة ودخلوا في ارض الموصل ، فلما بلغ الحجاج ذلك سرّح اليهم الحارث بن عميرة الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من اهل الكوفة : الف من المقاتلة الاولى ، والفين من الفرض الذي فرضه الحجاج ، فلحقوهم في قرية يقال لها المدّيج ، على التخوم بين ارض الموصل وارض جوجنا ، واقتتلوا فقتل صالح وثبت شبيب مع جماعة وجاء حتى انتهى الى موقف صالح فوجده قتيلا ، فامر المعسكر بان يجعل كل رجل منهم ظهره الى ظهر صاحبه ويطاعنوا عدوهم الى ان يدخلوا حصنا هناك ، ففعلوا ودخاوا الحصن ، واحاط بهم الحارث ممسيا ، فجمع شبيب اصحابه وطلب منهم ان يبايعوا من شاؤوا بعد صالح ، ويخرج بهم ليلا ليشدوا على الحارث وعسكره فبايعوه هو ، وخرج بهم فلم يشعر الحارث ولا اهل عسكره إلا وشبيب واصحابه يضربونهم بالسيوف ، فحارب الحارث حتى صرع ، واحتمله اصحابه وانهمزوا ومضوا حتى نزلوا المدائن ، فكان ذلك الجيش اول جيش هزمه شبيب ثم ارتفع بأصحابه الى ارض الموصل ثم الى اذربيجان .

التصارات شبيب :

وكان الحجاج قد كتب الى سفيان بن ابي العالية ان ينزل الدسكرة (١) فيمن معه ويقم بها حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمداني الذي قتل صالح بن مسرح ، ويأتيه جيش آخر عليه سورة بن ايجر التميمي ، ثم يسير بعد ان تجتمع اليه هذه الجيوش الى شبيب ويناجزه .

وأمر الحجاج بأن ينادي في جيش الحارث بن عميرة بالكوفة :

« ان برئت الذمة من كل من لم يواف جيش سفيان بن ابي العالية » فأناه

(١) قرية كبيرة في غرب بغداد .

جيش الحارث ، إلا سورة بن ايجل فانه تخلف عنه مع خمسين رجلا ، وارسل الى سفيان ان لا يبرح حتى يأتيه ، فتعجل سفيان وارتحل في طلب شبيب فلحقه بخانقين ، في سفح جبل ، فأكن له شبيب اخاه ، واستطرد له يريه انه ينهزم ، فاتبعه سفيان - وكان عدي بن عميرة الشيباني قد اشار عليه بأن يأخذ حذره من الكين فلم يسمع له - حتى اذا توسط بين الكين وبين شبيب ، رجع اليه شبيب وثار عليه اخوه فهزم هو وجيشه ، وصرع سفيان وكاد يقتل ، لولا ان حمله غلام له على فرسه ، وصار يذافع عنه حتى نجا ، وقتل الغلام ..

وكتب (سفيان) الى الحجاج بما جرى له ، فاستحسن فعله ، ولام سورة بن ايجر على تخلفه ، وامره ان ينتخب رجلا ممن معه الى الخيل التي بالمدائن لينتخب منها خمسمائة فارس ليسير (سورة) بهم الى الخوارج ، وان يستعمل الخزم والكيد لعدوه ، فان افضل الحرب حسن المكيدة ، فخرج سورة في طلب شبيب ، وشبيب يجول في جوخا ، حتى انتهى الى المدائن ، ومنها الى النهروان ، فنزل بها هو واصحابه وصلوا بها ، وأتوا الى مصارع اخوانهم الذين قتلهم علي رضوان الله عليه فاستغفروا لآخوانهم وتبرأوا من علي واصحابه وبكوا اطول بكاء ، ثم خرجوا فقطعوا جسر النهروان فنزلوا من جانبه الشرقي ، وجاء (سوره) فاخبره عيونهم بموضع الخوارج ، فاختار من اصحابه ثلاثمائة من اهل الجلد والقوة والشجاعة وحملوا عليهم فثبتوا لهم وقاتلهم قتالاً شديداً فهزمهم ، ورجع سورة بأصحابه الى المدائن واتبعهم الخوارج ، فخرج اليهم اهل المدائن ورموهم بالنبل والحجارة ، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن وخرج يسير في ارض جوخا ، ثم مضى نحو تكريت .

وارجف الناس في المدائن ان شيبياً قد دنا يريد ان يبيت اهل المدائن ، فارتحل عامة الجيش الذي كان بها فلحقوا بالكوفة ، فلما رأى الحجاج ذلك قال :

سَبَّحَ اللهُ (سورة) ضيَّع العسكر والجند .

ودعا بعثمان بن سعيد المعروف بالجزل، وارسله الى الخوارج في اربعة آلاف
ففضى الجزل ، ومضوا في اثر شبيب في ارض جوخا ، فجعل شبيب يستطرد
له من قرية الى قرية ، ومن ناحية الى اخرى ، ليفرق عنه اصحابه فيلقاه في
يسير من الناس على غير تعبئة ، وجعل الجزل لا يسير الا على تعبئة ولا ينزل إلا
خندق على نفسه ، واراد شبيب ان يبني الجزل واصحابه ، فعصى اصحابه
وكانوا مائة وستين - وجعلهم كراديس ، كل كردوس اربعون رجلاً ،
وجعل لكل كردوس اميراً ، فبيتوا عسكر الجزل فوجدوهم بخترسين واضعين
بكل جهة مسلحة ، فتركوهم ومضوا الى جرجرايا . وارسل الحجاج الى الجزل
يستحثه على قتالهم ، فخرج في جيشه يجدون في طلبهم ، وبعث الحجاج سعيد
بن المجلد ليقاتلهم مع الجزل ، وان يطلبهم طلب السبع ، ويحيد عنهم حيدان
الضبع ، فلما انتهى سعيد الى الجزل عزم على ان يخرج الى الخوارج في الحال ،
واشار عليه الجزل بالتؤدة واحكام التدبير فلم يسمع له ، فبرىء من رأيه والقي
عليه تبعة تسرعه ... فخرج سعيد واخرج الناس معه وقد أخذ شبيب الى
براز الروز ، فنزل قطيظياً ، وامر دهمقانيا ان يشتري لهم ما يصلحهم ويتخذ
لهم غذاء ففعل ، وامر شبيب بباب المدينة فأغلق ، فلم يمض الا قليل من الزمن
حتى اتى سعيد في اهل ذلك العسكر ، فصعد الدهقان السور ونظر الى الجند
مقبلين ، فنزل - وقد تغير لونه - واخبر شبيباً بان الجنود اتته من كل ناحية ..

فقال له : لا بأس . هل ادرك غداؤنا ؟

قال : نعم ... فقرّبه فتنغدوا وصلوا ثم خرجوا الى جيش سعيد . وحمل
شبيب على سعيد فقتله ، وحمل الخوارج على من معه فقتلوا منهم كثيراً . وفر
الباقون حتى انتهوا الى الجزل ، فجمع الجزل جميع من معه وقاتلوا الخوارج
قتالاً شديداً ، وابلى الجزل بلاء حسناً ، ولا زال يقاتل حتى جرح وحمل
الى المدائن جريحاً ، وانهزم الجيش ورجع الكوفة سفاولاً ، وكتب الجزل الى

الحجاج بما جرى من تؤدته وعجلة سعيد ، وما تمّ من قتل سعيد وانتهزام الجيش ..

ولما قرأ الحجاج كتاب الجزل استحسن فعله ورضي ما صنعه سعيد وترحم عليه ، وارسل الى الجزل طبيباً يداويه من جراحه والفى درهم ينقحها في حاجته .

ثم اقبل شبيب نحو المدائن ، فوجد اهلها منحصنين فيها ولا سبيل اليهم ، فراح الى الكرخ ، وعبر دجلة وامّن اهل سوق بغداد - وكانوا يخافونه - وخرج سويد بن الرحمن السعدي في اثره من قبل الحجاج ، ولا زال يطارده حتى قطع بيوت الكوفة ، الى الحيرة . واستمر شبيب في سيره الى الانبار ثم ارتفع الى اذربيجان . فتركه الحجاج هناك وخرج الى البصرة ، واستخلف على الكوفة ، عروة بن المغيرة بن شعبة ، فأتى عروة كتاب من دهقان بايلي يخبره فيه ان شيباً عازم على ان يدخل الكوفة في الشهر المقبل ، فارسل عروة الى الحجاج بكتاب الدهقان ، فرجع الحجاج الى الكوفة من قوره ، واقبل شبيب يسير حتى انتهى الى قرية يقال لها حربى ، على شاطئ دجلة ، فتطير منها أصحابه لا يذاتها بالحرب ، وقال هو : حرب يصلى بها عدوكم وحرّب تدخلونه بيوتهم ... ثم نزل عقرقوف .

فقال له اصحابه : يا امير المؤمنين لو تحولت بنا من هذه القرية المشؤومة الاسم ..

فقال : انما شؤمها ان شاء الله على عدوكم .. فالعقر لهم . ثم سار حتى انتهى الى سبخة الكوفة ، فسبقه الحجاج ودخلها عند الظهر . وبعد ان صلى شبيب واصحابه العشاء واصابوا يسيراً من الطعام ركبوا خيولهم ودخلوا الكوفة . وشدّ شبيب حتى ضرب قصر الامارة بعموده فأثر فيه اثرأ عظيماً .

دخول شبيب الى الكوفة :

ثم اقتحموا المسجد الاعظم فقتلوا من كانوا يصلون فيه ، فنادى الحجاج في الناس بالنفير ، وجرى على الخوارج عدة امراء اجتمعوا يميوشهم في اسفل الفرات ، فترك شبيب الوجه الذي هو فيه واخذ نحو القادسية .

فوجه اليه الحجاج بزحر بن قيس فيما يقرب من الف وثمانمائة فارس من نقاوة الفرسان ، وامره باتباع شبيب ومواقفته حيثما يدركه ، فالتقى زحر بشبيب في السيلحين^(١) وتقاتل الحيشان فانهمز زحر واصحابه وجرح زحر ثم اقبل الخوارج على الامراء المذكورين انفاً ، وهم على نحو اربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة ، فقاتلهم قتلاً شديداً وقتل بعض الامراء وجرح بعضهم ووضع السيف في عساكرهم ، ثم امر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم الى بيعته فبايعه بعضهم بالليل ، فلما أصبح الصبح هربوا ...

وبلغ الحجاج ما كان من امره فهاله ، وظن انه يريد المدائن - وهي باب الكوفة - من اخذها فتحت له الكوفة . فبعث الى عثمان بن قطن وولاه المدائن ، ليمنعها من الخوارج ، ودعا بعبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فامرهم بانتخاب ستة الاف من فرسان الناس ووجوههم ، واستحسنته على مواجهة الخوارج وكتب الى العسكر يتوعدهم بالايقاع بمن يهرب منهم باشد من ايقاع العدو ، فخرج عبد الرحمن يطلب شبيباً ، فارتفع عنه شبيب الى شهرزور . ولحقه عبد الرحمن ، وصار شبيب لا يلقاه الا وجدده على تعبئة او في خندق فلا يصيب له غرة ولا يعثر منه على علة ، فصار كلما دنا منه يتركه ويمضي حتى عذب عسكره وأحفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء ، الى ان وصل الى قرية على تخوم ارض الموصل يقال لها (البت) ليس بينها وبين الكوفة ، الا نهر حولها

(١) قرب الحيرة ضاربة في البر قرب القادسية .

فنزله بها ونزل عبد الرحمن في راذان الاعلى ، من ارض جوحا ، فارسل اليه شبيب ان يوادعه في ايام العيد فاجابه عبد الرحمن الى ذلك ، فكتب عثمان بن قطن الى الحجاج يخبره بذلك ، فامر الحجاج بتولي رئاسة الجيش ففعل واراد ان يناجز الخوارج في الحال فلم يساعده الجو اذ كانت الرياح شديدة ، وكانت تهب على الجيش ، فأقام يوماً وليلة حتى هدأت الرياح ، ثم عصى جيشه وزحف به على شبيب ، وزحف شبيب باصحابه عليه وكانوا نحو مائة وثمانين رجلاً . فهزم الخوارج جنود عثمان ووضعوا السيف فيهم ، وقتلوا معظم عرفائهم ، ثم رفعوا السيف عنهم ودعوهم الى البيعة لشبيب فبايعه كثير منهم ، ورجع عبيد الرحمن بن محمد بن الاشعث الى الكوفة ، فاخْتَبَأَ من الحجاج حتى اخذ منه الامان ، وكان ذلك سنة ٧٧ للهجرة .

وبعد ان هزم شبيب جيش عبد الرحمن وقتل عثمان بن قطن وكان ذلك في صيف شديد الحر ، اتى ماهَ بهراذان ، فصيف بهسا ثلاثة اشهر ، واثاه ناس كثير ممن يطلب الدنيا ، وممن كان الحجاج يطالبهم بمال او غيره فلحقوا به ، ولما انفسخ الحر عن شبيب خرج من ماه بهراذان ، في نحو ثمانمائة فاقبل نحو المدائن ، فكتب دهمقان بابل مهروز ، الى الحجاج يخبره بذلك ، فقام الحجاج في اهل الكوفة ، يدعوهم الى المدافعة عن بلادهم وعن فيثهم ، وإلا بعث الى اهل الشام ليقوموا مقامهم ، فوعد الناس من كل جانب بالقتال والعمل بما يسره ، وقام اليه زهرة بن حوية ، وهو شيخ كبير لا يقدر على القيام إلا اذا أخذ بيده ، فإشار عليه باستنفار الناس جميعهم الى الخوارج تحت امره رجل ثبت شجاع مجرب للحرب . فرغب اليه الحجاج ان يكون هو امير المسكر ، فاعتذر بانه شيخ هرم ضعيف البدن ضعيف البصر ، وانما يصلح لهذا رجل يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على متن الفرس ، وتطوع على ان يكون مع الامير في عسكره يشير عليه برأيه ، فجزاه الحجاج خيراً على نصحه وصدقه ، ثم أمر الناس بالمسير فساروا ولا يدرون من هو اميرهم .

وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان ان شيبياً شارف المدائن ، وانما يريد الكوفة ، وقد عجز اهلها عن قتاله في مواطن كثيرة ، ورجب اليه في ان يبعث اليه جنداً من أهل الشام ، فارسل اليه سفيان بن الابرذ في اربعة الاف ، وحبیب ابن عبد الرحمن الحکمي المذحجي في الفين ، فسار اهل الشام حتى دخلوا الكوفة ، من طريق مختصر ارشد اليه الحجاج ، وارسل الحجاج الى عتاب بن ورقاء ، فجاء اليه عتاب فجعله اميراً على جيش اهل الكوفة ، فخرج بهم وعسكر بحمام اعين ، واقبل شبيب ، فقطع دجلة ونزل بمدينة بهرسير وصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة فقطعه مطرف وارسل الى شبيب ان يرسل اليه بعض وجوه اصحابه ليدرسمهم القران وينظر في رأيهم ، فارسل اليه شبيب رجالاً منهم قعنب وسويد والمحلل ، فمكثوا عند مطرف اربعة ايام دون ان يتفقوا على شيء . فلما تبين لشبيب ان مطرفاً غير نابعه ، تهيأ للسير الى عتاب واهل الشام ، وخاف مطرف ان يبلغ الحجاج ما كان منه مع شبيب فينتقم منه فخرج الى المدائن ، مع اصحابه وسار شبيب مع اصحابه الى عتاب بسوق حكمة . وكانوا نحواً من الف تخلف منهم اربعمائة . وكان مع عتاب عدة آلاف .. ونشب القتال بين الخوارج وجيش عتاب فهزم جيش عتاب .

وكان عتاب جالساً في قلب الجيش مع زهرة بن حوية اذ غشيم شبيب . فقال عتاب لزهرة : هذا يوم كثر فيه العدد وقل الغناء .

فقال زهرة : ابشر فاني ارجو ان يكون الله قد اهدى اليها الشهادة عند فناء اعمارنا .

فلما دنا منه شبيب وثب في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل قتالا شديداً حتى قتل ، وقتل معه زهرة بن حوية ، واستمكن شبيب من اهل العسكر وامر اصحابه برفع السيف عنهم ، ودعاهم الى البيعة ، فبايعه الناس ، ولكنهم هربوا من ليلتهم ، ثم اقبل شبيب الى الكوفة ... وقد دخلها سفيان بن الابرذ

بأهل الشام ، فاشتد الحجاج بهم واستغنى عن أهل الكوفة وقال لهم :
« يا أهل الكوفة لا أعزّ الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر »
وانتهى شبيب حتى نزل موضع حمام عين ، فدعا الحجاج الحارث بن معاوية
بن أبي زرعة الثقفي فوجهه في ناس من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب ، ومهمم
نحو مائتين من أهل الشام ، فبلغ عدد الجميع نحو ألف مقاتل ، فالتقوا بشبيب
في زرارة ، فحمل عليهم فهزمهم وقتل رئيسهم الحارث ، وأقبل إلى الكوفة ،
ونزل بالسبخة وابتنى بها مسجداً ، وأمر الحجاج أهل الكوفة ، بالاختدابواها
وصار يخرج إلى شبيب جماعة بعد أخرى ، وعلى كل جماعة أحد علماته في
ثياب فاخرة وخيل فارهة ، وشبيب يظنه الحجاج فيقتله ويقول : إن كان
هذا الحجاج فقد أرحمكم منه .

ودخل أخيراً الكوفة ومعه امرأته غزالة ، وكانت نذرت أن تصلي في
مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآل عمران ففعلت .

الحجاج يقاتل شيبياً :

فما رأى الحجاج ذلك نزل إليه بنفسه في أهل الشام وهو على بغل محجل
تباشر به وقال :

— هذا اليرم اغر محجل .

وكان شبيب في ستمائة فارس ، فاقبل عليه شبيب يقاتله ، ودعا الحجاج
بكرسي وجلس عليه وحث أهل الشام على صدق القتال . فاستقبلوا القوم
باطراف الاسنة ، وجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، وثبتوا لأصحاب
شبيب ، وصاروا يطعنونهم قدماً ، وصار الحجاج يقدم كرسيه شيئاً فشيئاً ،
وهو يحرّض أهل الشام على القتال . وصار شبيب يستحث أصحابه ويحرضهم
على الصبر . واقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً وأهل الشام يدفعون أصحاب

شبيب الى ان اقتموا الى المسجد الذي ابتناه . فقال الحجاج : يا اهل الشام ، يا اهل السمع والطاعة ، هذا اول الفتح ، والذي نفس الحجاج بيده ... وحمل خالد بن عتاب بن ورقاء على شبيب واصحابه من ورائه حملة موتور حران ، فقتل مصاداً اخا شبيب ، وقتلت في هذه الوقعة غزاة امرأته ، وانهمز شبيب ومن بقي معه من اصحابه ، فأمر الحجاج خالد بن عتاب باتباعهم فاتبعهم ، حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا ديراً هناك فحصرهم خالد فيه ، فخرجوا عليه فهزموه ومن معه نحواً من فرسخين حتى القوا بانفسهم وخيلهم في دجلة ، والقي خالد بنفسه وفرسه .

فنظر اليه شبيب فقال : قاتله الله فارساً وفرسه... هذا اشد الناس ، وفرسه اقوى فرس ..

ف قيل له : هذا خالد بن عتاب .

فقال : معرق في الشجاعة والله لو علمت لاقحمت خلفه ولو دخل النار .

مقتل شبيب :

ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحكمي وبعثه في اثر شبيب في ثلاثة آلاف من اهل الشام وقال له :

- احذر بياته وحيثما لقيته فنازله ، فان الله قد فلّ حده وقصم نابه .

فسار وراءه حتى بلغ الانبار ، وهناك بيّتهم شبيب فوجدهم حذرين ، فقاتلهم هو واصحابه - وكانوا ثلاثين - قتالا شديدا حتى قال بعض اصحاب حبيب : لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة رجل لاهلكونا ، فلما يئس شبيب واصحابه من القوم انصرفوا عنهم ومضوا حتى قطعوا دجلة الى الاهواز ، ثم الى فارس ثم ارتفعوا الى كرمان ، فأمر الحجاج سفيان بن الابرذ ان يسير

اليه ، فلحقه يجسر دجيل الاهواز ، وانضم اليه زياد بن عمرو العتكي في اربعة آلاف . فقاتلهم شبيب واصحابه اشد قتال قاتله قوم ، فلما اتى عليهم المساء أمر شبيب اصحابه ان يعبروا النهر حتى اذا اصبحوا باكروهم ، فعبروا امامه فوقع حافر جواده على حرف السفينة ، فسقط في الماء وسقط معه شبيب وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر وغيرهما، فغرق وقال له بعض اصحابه وهو يغرق : أغرقاً يا امير المؤمنين ؟

قال : ذلك تقدير العزيز العليم .

فلما رأى اصحاب شبيب غرق اميرهم انصرفوا وتركوا معسكرهم ليس فيه احد .

ولما اصبح سفيان وبلغه غرق شبيب وانصراف اصحابه كثر وكثر اصحابه معه ، وطلبوا شبيباً واستخرجوه من النهر ، وشقوا بطنه واخرجوا قلبه قرأوه مجتمعاً صلباً كأنه صخرة ، وكان يضرب به الارض فينزو نحو قامة انسان . فشقوه قرأوا في داخله قلباً صغيراً كالكرة، فشقوه فاصابوا علقة الدم في داخله .

وكان غرقه في سنة ٧٧ على اختلاف في الرواية ، ودجيل الذي غرق فيه شبيب هو دجيل الاهواز منبعه من جبال اصبهان ، وهو غير دجيل بغداد فان ذلك منبعه من دجلة بين تكريت وبغداد .

وام شبيب يقال لها جهيزة اصلها من سبي الروم ، رآها بالشام ابو شبيب يزيد بن نعيم - وكانت جميلة تأخذها العين - فاشتراها واحبته حباً شديداً ، وأسلمت معه بعد أن امتنعت عليه زمناً وأولدها شبيباً وهي مسلمة . وكانت ولادته يوم النحر سنة ٢٥ او ٢٦ . وقد رأت في حملها انه خرج منها شهاب طلع بين السماء والارض وملاً الافاق ، ثم وقع في الماء فخبأ ، فأولتسه ان

ولدها سيعلو ويعظم سريعاً . وانه بولادته يوم النحر سيكون صاحب دماء
يهرقها . وان منيته ستكون بالفرق . فكان ينمي اليها بالقتل فلا تصدق .
حتى اذا قيل لها : غرق صدقت . وحيات هي وامراته غزاة من
الشجاعة بكان عظيم .. وكانتا شهدان مع الحروب والمعارك ، وتشاركتان
فيها ..

القضاء على الخوارج

السياسة العسكرية عند المهلب

اختلاف الخوارج :

وقع الاختلاف بين الازارقة - اصحاب قطري بن الفجاءة - سنة ٧٧ هـ . فخالفه بعضهم واعتزله عبد ربه الكبير . و اقام بعضهم على بيعة قطري .

وسبب ذلك ان المهلب بعد ان اخذ الحجاج منه عتاب بن ورقاء لقتال شبيب اقام بسابور ، يقاتل قطرياً واصحابه نحواً من سنة ، ثم انه زاحفهم يوم البستان ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وكانت كرمان في ايدي الخوارج ، وقارس في يد المهلب . فبعثت على الخوارج ديارهم ، وانقطعت عنهم المواد من فارس فخرجوا حتى أتوا مدينة كرمان ، فقاتلهم المهلب بها اكثر من سنة ، وملك عليهم فارس جميعها ، فاخذها الحجاج منه وبعث اليها عماله . فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فكتب الى الحجاج يأمره بأن يترك للمهلب خراج فارس ، وجملة كور اخرى ليستعين به على قتال الخوارج ، فتركها ، فبعث المهلب عليها

عماله ، فكان له من ذلك قوة .

وبعث الحجاج الى المهلب البراء بن قبيصة لينهضه الى قتال الخوارج ، فأخرج المهلب بنه ، كل واحد منهم في كتيبة ، واخرج الناس على راياتهم ومصافهم ، ووقف البراء على تل قريب منهم ليشاهد القتال . فاقتتل الفريقان اشد قتال رآه الناس ، من الصبح الى منتصف النهار ثم انصرفوا . فجاء البراء الى المهلب فقال له : لا والله ، ما رأيت فرسانا كبنيك قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا ، ولا رأيت قط اصبر وأبأس من القوم الذين يقاتلونك ، فأنت والله معذور ..

ثم ان المهلب خرج بالناس وبأبنائه الى قتال الخوارج عند العصر فقاتلهم كقتالهم في اول النهار وانصرفوا عند المساء .

فقال المهلب للبراء : كيف رأيت ؟

قال : رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم إلا الله .

فاعاده المهلب الى الحجاج ، وكتب اليه ان يسأله عما شاهد ، فاخبره بما رأى وقال له ما قاله للمهلب ، ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهراً لا ينال منهم كبير شيء الى ان قتل عامل لقطري على ناحية من كرمان يقال له المقطر الضبى ، رجلاً من الخوارج كان ذا بأس وكان كريماً عليهم ، فجاءوا الى قطري يسألونه ان يسلم اليهم الضبى ليقتلوه فأبى ، فانكروا عليه ذلك . وكان رجل من الازارقة حداد يسمى (ابزي) يعمل لهم نصالاً مسمومة فيرمون بها اصحاب المهلب ، فشكوا اليه ذلك ، فقال لهم : سأكفيكموه ان شاء الله ، ثم وجه رجلاً من اصحابه الى ابزي بالف درهم ومعه كتاب نصه بعد الديباجة : «اما بعد فان نصالك قد وصلت الي وقد وجهت اليك بالف درهم فاقبضها . » وقال للرجل : التى هذا الكتاب والدرهم فى عسكر قطري ، واحذر على نفسك ... فوقع الكتاب والدرهم الى قطري ، فدعا بابزي فقال :

- ما هذا الكتاب ؟

قال : لا ادري .. قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما اعلم علمها ...
فأمر به فقتل .

فجاء عبد ربه الصغير فقال له : اقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ؟
فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟

قال : يجوز ان يكون امرها كذبا ، ويجوز ان يكون امرها حقا .
فقال له قطري : قتل رجل في صلاح الناس غير منكر ، وللامام انت
يحكم بما يراه صلاحا ، وليس للرعية ان تعترض عليه .
فتنكر له عبد ربه في جماعة ولكنهم لم يفارقوه .

فلما بلغ ذلك المهلب دس الى قطري رجلا نصرانيا وقال له :
- اذا رأيت فاسجد له ، فاذا نهاك فقل : انما سجدت لك .

ف فعل النصراني ذلك . فقال قطري : انما السجود لله .

فقال : ما سجدت إلا لك .

فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله .

وقام رجل من الخوارج الى النصراني فقتله ، فانكر عليه ذلك وقال :
- آقتلت ذميا ؟

فكان ذلك مما قوّى الاختلاف بين الخوارج .

وبلغ المهلب فوجه اليهم رجلا يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين اليهم ،
فمات احدهما في الطريق ، ووصل اليهم الآخر ، فامتحنوه في عقيدتهم فلم
يؤمن بها . ما قولهم فيها ؟

فقال بعضهم : اما الميت فمؤمن من اهل الجنة .. واما الآخر فكافر .

وقال آخرون : بل هما كافران .

فاشند الخلاف بينهم فناروا على قطري وخلصوه (١) ، ولولا عليهم عبدربه
الكبير ، وبقي مع قطري عصابة قليلة منهم ، ووقع القتال بينهم ، واعلم
المهلب الحجاج بما كان من اختلافهم واقتتالهم ، فامر به الحجاج ان يناهضهم
وهم على اختلافهم ، فأبى المهلب وكتب الى الحجاج : « ان الرأي ان يتركهم
يقتل بعضهم بعضاً فان في ذلك إما هلاكهم وإما انصافهم ، وليس من الرأي
ان يناهضهم لئلا يتفقوا عليه ... » وقد اصاب فانهم مكثوا نحو شهر يقتل
بعضهم بعضاً . ورحل عنهم قطري مع من تبعه ، ثم رجع اليهم فقام فيهم
صالح بن خرقاق احد رؤسائهم وقال : يا قوم انكم اقررتم عين عدوكم ،
واطعمتموهم فيكم لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا الى سلامة القلوب ،
 واجتماع الكلمة . ثم خرج الى اصحاب المهلب فنادى :

يا ايها المتحاون . هل لكم في الطراد فقد طال المهدي به .

فتهايج القوم واسرع بعضهم الى بعض وأبلى المغيرة يومئذ بلاء حسناً ،
 وصرعه عبيدة بن هلال .

فاستنقذ المغيرة فرسان من الازد ، وقال له رجل :

كنا نعجب كيف تصرع ، والان نعجب كيف تنجو .

وربعث الحجاج الى المهلب رجلين أحدهما من كلب والآخر من سلمية
يستحشانه على القتال ، فتمثل المهلب بقول أوس بن حجر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زينته الحرب لم يترمرم

وقال ليزيد ابنه : حرّك الخوارج . فحركهم فتهايجوا ، وحمل رجل منهم
على رجل من اصحاب المهلب فطعنه فشك فخذه بالسرج . فقال المهلب
للسامي والكلبي : كيف تقاتل قوماً هذا طعنهم ، وجاء الرقاد -- وهو من
اعظم فرسان المهلب - وبه نيف وعشرون جراحة وضع عليها القطن ، وحمل

(١) الكامل للمبرد جزء ٧ ص ٢٣٠ ٢٣١

يزيد بن المهلب على جماعة منهم فولوا، فصاحم فرسان، فحمل رجل يقال له قيس الحشني على أحد الفارسين فصرعه . وحمل عليه الآخر وتعانقا فسقطا جميعاً على الارض ، فصاح قيس : اقتاونا جميعاً ، فاسرع فرسان من الفريقين فحجزوا بينهما : فاذا معانقه امرأة . فقام قيس مستحيماً . فقال له يزيد :

– اما انت فبارزتها على انها رجل .

فقال : رأيت لو قتلت ، أما كان يقال : قتلت امرأة ؟

ثم حاربهم المهلب بعد ذلك بالسيرجان حتى نكسهم عنها الى جيرفت ، وهناك اختلفت كلمتهم مرة اخرى . وكان سبب ذلك ان عبيدة بن هلال كان يختلف الى امرأة رجل حداد في بيته ويدخل عليها بغير اذن ، فشكوه الى قطري ، فقال لهم : ان عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيت . فقالوا : انا لا نقارّه على الفاحشة ، فبعث اليه قطري فقام فيهم وقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ان الذين جاؤوا بالافك عصبّة منكم لا تحسبوه شر لكم بل هو خير لكم .. الآيات . فبكوا واعتنقوه وقالوا : استغفر لنا .

فقال لهم عبد ربه الصغير : لقد خدعكم .. فرجعوا الى اعتقادهم الاول ، ولكنهم لم يجدوا سبيلاً الى اقامة الحد عليه . وكان قطري قد استعمل رجلاً من الدهاقين فظهرت له اموال كثيرة . فقالوا لقطري :

.. ان عمر بن الخطاب لم يكن يقارّ عماله على مثل هذا .

فقال قطري : اني استعملته وله ضياع وتجارات ... فاوغر ذلك صدورهم وقالوا له : ألا تخرج بنا الى عدونا ، فقال : لا . فقالوا : كذب وارتد ، فأتبعوه يوماً فأحس بالشر منهم فدخل داراً مع جماعة من اصحابه ، فصاحوا به : يا دابة اخرج الينا . فخرج اليهم وقال : رجعت بعدي كفاراً . فقالوا : اما انت فانك دابة . قال الله تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » . فقالوا : واما نحن فلسنا كفاراً . فانت كافر بتكفيرك ايانا . فقال له بعض اصحابه :

قل لهم : اني استفهمت ولم اخبر . فقبلوه منه . ولما رأى منهم هذا التغير بايع المقمطر العبدى . فكروهوا ذلك وسألوه اعفاءهم من مبايعة المقمطر فأبى ، فاختلفوا وتهايجوا ، وحمل قتي على صالح بن محراق ققتله . ثم اقتتلوا فيما بينهم قتالاً شديداً . وارتحل قطري مع اتباعه الى طبرستان .

وجلس المهلب للناس بعد ارتحال قطري ، فدخل اليه وجوههم يهنئونه ، ووجه المهلب الى الحجاج يبشره بالنصر على الخوارج وتمزق شملهم ، فقدم اليه رسول المهلب وانشده قصيدة في مدحه ومدح المهلب .

فلما انتهى من انشاده اقبل عليه الحجاج وقال له :

فكيف خلفت جماعة الناس ؟

قال : خلفتهم بخير : قد ادركوا ما امّوا وامنوا ما خافوا .

قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟

قال : كانوا حماة السرج نهاراً ، فاذا ألبكوا ففرسان البيات .

قال : فأيهم كان انجد ؟

قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفها .

قال : فكيف كنتم انتم وعدوكم ؟

قال : كنا اذا اخذنا عقوننا . واذا اخذوا يئسنا منهم . واذا اجتهدوا

واجتهدنا طمعنا فيهم .

قال الحجاج : ان العاقبة للمتقين . كيف افلتكم قطري ؟

قال : كدنا . ببعض ما كادنا فصرنا الى الذي نحب .

قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟

قال : كان لنا منه شفقة الوالد وله منا برّ الولد .

قال : فكيف كان اغتباط الناس ؟

قال : فشا فيهم الامن وشملهم التّفكّل .

قال : أكنت اعددت لي هذا الجواب ؟

قال : لا يعلم الغيب الا الله ... (اي ما كنت تسألني عنه كان مغيباً عني
ولا يعلم الغيب الا الله) .

فقال الحجاج : هكذا والله تكون الرجال . كان المهلب اعلم بك حيث
وجبهك ..

ثم استقدم الحجاج المهلب . فلما قدم عليه اجلسه الى جانبه واطهر اكرامه
وبره ...

قطري في طبرستان :

ولما توجه قطري الى طبرستان ، وجه اليه الحجاج سفيان بن الابردي في
جيش عظيم من اهل الشام ، وامر اسحاق بن محمد بن الاشعث ، رئيس جيش
الكوفة بطبرستان ، ان ينضم بجيشه الى سفيان ، فسار سفيان بجيش الشام
وجيش الكوفة في طلب قطري حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان ،
فقاتلوه ففترق عنه اصحابه ، ووقع عن دابته في اسفل الشعب ، وتدحرج
حتى خر الى اسفله . وكان معه خمس عشرة امرأة عربية ، كن في الجمال
والبزازة وحسن الهيئة كما شاء ربك ، ما عدا عجوز فيهن . فساقهن بعض رؤساء
الجند الى سفيان ، فلما دنا منهن منه ، انتحلت له العجوز بسيفها فضربت به عنقه
فقطعت المغفر وقطعت جلدة من حلق درعه ، وكاد سيفها يصيب جسمه .
فاخترط سيفه وضربها به فحرف رأسها فخرت ميتة ، فضحك سفيان من
العجوز ، وقال ، لذلك الجندي : ماذا اردت من قتل هذه المرأة ؟ فقال له :

- اصلح الله الامير ، أو ما رأيت من ضربتها ايبي ! والله كادت تقتلني !
ونظر عالج من اهل البلد الى قطري حيث تدحرج من الشعب فأناه - وكان
قد اشتد به العطش - فقال له : اسقني ماء . فقسمال له : اعطني شيئاً حق

اسقيك . فقال له ويحك ، والله ما معي الا ما ترى من سلاحي ، وانا اعطيكه اذا سقيتني . فقال له : اعطني الان . فأبى . فارتفع العلي في الشعب وحدد عليه حجراً عظيماً من فوقه ، فأصاب احدى رجليه فارهنها . وصاح العلي بالناس ليقتلوا قطرياً وهو لا يعرفه ، وانما ظن انه من اشراف الناس لحسن هيئته وكال سلاحه . فاقبل اليه نفر من اهل الكوفة ، فقتلوه وأتوا برأسه الى اسحاق بن محمد بن الاشعث ، فبعث به الى الحجاج .

ثم ان سفيان بن الابرذ اقبل منصرفاً الى عسكر عبيدة بن هلال ، وقد تحصنوا في قصر بقؤوس ، فحاصروهم حتى جهدوا وأكلوا دوابهم . ثم انهم خرجوا اليه فقتلهم وبعث برؤوسهم الى الحجاج . وكان ذلك سنة ٧٧ .
وفي سنة ٧٨ ولى عبد الملك بن مروان الحجاج على خراسان ، وعبيدالله بن ابي بكرة على سجستان .

وفي سنة ٨٠ ، غزا المهلب كش ، وصالح جنده اهلها على فدية حملوها اليهم . واغزى ابنه حبيباً (ربيسنخن) من اعمال بخارى ، واحرق قرية للترك فسميت المحترقة .

وفي سنة ٨١ بلغ المهلب شقاق عبد الرحمن بن محمد الاشعث ، وخروجه على الحجاج وعبد الملك ، فكتب اليه ينصحه ويدعوه الى الطاعة والدخول في الجماعة . وارسل الى الحجاج ينصحه بترك قتال اهل العراق ، وهم جيش عبد الرحمن ، حتى يسقطوا الى اهلهم ويشتموا اولادهم ، فتضعف قوتهم . فخالفه الحجاج وخرج اليهم فهزموه . فلما قفل راجعاً دعا بكتاب المهلب فقرأه ، ثم قال : - لله ابوه اي صاحب حرب هو ! . اشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل .

موت المهلب :

وفي سنة ٨٢ توفي المغيرة ، وأتى خبره اخاه يزيد ، فاحب ان يبلغه اباه ، فأمر النساء ، فصرخن ، فقال المهلب : ما هذا ؟ فقيل : مات المغيرة .

فاسترجع وجزع جزعاً شديداً ظهر على وجهه . وكتب اليه الحجاج يعزیه .
وكان المهلب حينئذ (بكش) لحرب اهلها ، فصالح اهلها على قديية ، ومضى
منصرفاً يريد مرو ، فلما كان بزاعول ، من مرو الروذ اصابه مرض ، فدعا حبيباً
ومن حضره من ولده ، ودعا بسهام فحزمت ، وقال :

--- اترونكم كاسريها مجتمعة ؟

قالوا : لا .

قال : أفترونكم كاسريها متفرقة ؟

قالوا : نعم .

قال : فهكذا الجماعة . فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم .. فان صلة
الرحم تسيء في الاجل ، وتترى المال ، وتكثر العدد وانها كم عن القطيعة فان
القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلة . فتحابوا وتواصلوا واجمعوا امرم ،
ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع اموركم . وعليكم الطاعة والجماعة . وليكن فعالكم
افضل من قولكم ، فاني احب للرجل ان يكون لعمله فضل على لسانه . واتقوا
الجواب وزلة اللسان ، فان الرجل تزل قدمه ، فينتعش من زلته ، ويزل
لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقه .. فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم
تذكرة له . وآثروا الجود على البخل واحبوا العرب ، واصطنعوا معهم العرف :
فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك ، فكيف بالصنيعة عنده ؟
عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة : فانها انفع في الحرب من الشجاعة ، واذا
كان اللقاء نزل القضاء ... فان اخذ رجل بالحزم ، فظهر على عدوه قيسل :
اتى الامر من وجهه ، ثم ظفر فحمد ، وان لم يعد يظفر بعد الاناة قيل : ما
فرط ولا ضييع ، ولكن القضاء غالب . وعليكم بقراءة القرآن ، وتعلم السنن
وادب الصالحين واياكم والحفة ، وكثرة الكلام في مجالسكم .

ثم استخلف عليهم يزيداً ، وجعل حبيباً على الجند حتى يقدم يزيد فيكون
عليهم ، ومات وكان اوصى الى حبيب فصلى عليه .

اخبار الخوارج وجرأتهم في سبيل عقيدتهم

القول الفصل في عقيدة الخوارج واغراقهم

اسباب انتصارات الخوارج :

لقد تلتطفنا في التبسط قليلاً باخبار الخوارج ، وزحوفهم وحملاهم ومعاركهم وغرضنا من ذلك ان نلقي في روع القارىء صورة حية عن هؤلاء الاعراب الاشداء الذين حاربوا الامويين فائضوا فيهم ، وقارعوا جنوداً تفوقهم عدداً وعدةً فاستأصلوهم ومزقوهم شرّاً ممزق .

وهنا يحار القارىء في معرفة الاسباب التي مكنت للخوارج من هذه الانتصارات الرائعة ، على جيوش تفوقهم عدداً وسلاحاً كما قدمنا ، ثم لا توفق هذه الجيوش العديدة الى تشتيت شملهم الا بعد حروب دامت اربعين سنة .. ومع ذلك فالدولة لا تزال في نشاطها وقوتها ، ورعاياها يناضلون معها ضد الخوارج ويحاربونهم حرباً شديدة مفرجة ، ثم لا يوقفون معهم في كثير ولا قليل ..

ولعل السبب في ذلك ، ان الخوارج كانوا عرباً بكل ما في الكلمة من معنى ، كانوا ابطال حروب وفرسان معامع ، ينزلون الى الهيجاء في شجاعة الاسد وبأس الحديد ، ومضاء السيف ، ومروق السهم ، وانقضاض النسر ، والتهاب النار ، ويحرصون على الموت في سبيل عقيدتهم حرص اهل الدنيا على الحياة ، ويستعدون مناياهم كما يستعذب الظمان الماء الفرات ، ولا يهدأ لهم بال الا اذا تنادوا الى القتال ..

كانوا عرباً ، والعرب بطبيعتهم شجعان محاربون ، انظر الى قول معقل بن قيس الرياحي للامام علي كرم الله وجهه : « اصلحك الله يا امير المؤمنين . انه كان ينبغي ان يكون مع من يطلب هؤلاء القوم مكان كل رجل منهم عشرة ليستأصلوهم فاما ان يلقاهم عددهم فلعمري ليصبرن لهم ... فانهم عرب .

اكسبتهم هذه الشجاعة وهذا البأس الشديد والصبر على شذائد الحروب طبيعة بلادهم التي يعيشون فيها في الاراضي الموحشة بين الوحوش الكاسرة ، وما كان بينهم في الجاهلية من الاغارات بعضهم على بعض ، وزاد في شجاعتهم وبأسهم واقدامهم على النزال ودربتهم على القتال ما باشروه من الحروب في الاسلام ، لاسيما مع ما وصلوا اليه من استعمال آلات الوقاية كالدرع والمغافر وغيرها .

ويدلك على ما لهم من تلك الصفات ما قاله البراء بن قبيصة فيهم ، لما ارسله الحجاج الى المهلب ليستحثه على قتالهم ، فشاهد من بأسهم وشدة مراسهم للحرب ما راعه ، فقال للمهلب :

-- ما رأيت قط اصبر ولا أبأس من القوم الذي يقاتلونك .

وقال له ايضاً وللحجاج لما رجع اليه : رأيت قوماً لا يعين عليهم الا الله ، كما يدللك على ذلك ايضاً قول المهلب ، للكلي والسلمي اللذين بعثن الحجاج اليه ليحرضاه على قتال الخوارج - وقد طعن عبيدة بن هلال امامها رجلا من

اصحاب المهلب فشك فخذته بالسرّج - :

- كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ؟

وقد كان رؤساء جيوشهم وقادة جنودهم بالدرجة العالية من البطولة والجلد والايدي والصلابة ، مع سعة العلم بتدبير الحروب والتمرن على اعمالها وتام الخبرة بحيلها ومكايدها ، كتعبية الجنود والخذقة عليهم وتموينهم بالاسلحة والذخائر واثارة الحماسة فيهم ، واذكاء العيون على الخصوم ، واستطلاع اخبارهم والغلبة عليهم وما اشبه ذلك .

وقد ذكر ابن خلكان^(١) ان قطري بن الفجاءة احد زعمائهم ، خرج في بعض حروبه وهو على قرس اعرجف ويده عمود خشب ، فدعا الى المبارزة فخرج اليه رجل من الاعداء ، فحسر قطري عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى هارباً ، فقال له قطري : الى اين ؟

فقال الرجل : لا يستحي الانسان ان يفر منك .

وكان قطري شاعراً بليغاً ، وفارساً مقداماً ، انظر الى شعره ، فانه يمثله

كل التمثيل :

اقول لها وقد طارت شعاعا	من الابطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم	على الاجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي	وداعيه لاهل الارض داعي
ومن لا يغتبط ياسام ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير من حياة	اذا ما عدت من سقط المتاع

وقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكترائه يجيوش الحجاج ان دخل الكوفة وطاف فيها ، وقتل كثيراً ممن كانوا في مساجدها ، وادخل الفزع والهلع في

(١) وفيات الاعيان جزء ١ ص ٤٣٠ .

قلوب اهلها حتى اغلقوا بيوتهم دونه .

وفي شبيب يقول الشاعر :

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدرأ والريح عاصفة والموج يلتطم

زعماء الخوارج :

وكان كل زعماء الخوارج على هذا الفرار ، بسالة وجراًة وتضحية ، وكان الخوارج بهذه القوة البالغة ، والبأس الشديد ، والمعرفة التامة بأمر الحرب ، يستغنون عن كثرة العدد ووفير العدد ، وقد رأينا كيف ان مرداسا واصحابه - وكانوا لا يزيدون على اربعين رجلاً - هزموا جيش بن زرعة وكان عدد مقاتلته الفين . فقال في ذلك شاعرهم :

أألفا مؤمن منكم زعتم ويقتلهم (بأسك) اربعونا

وانظر الى ما قاله في اصحاب شبيب ، بعض اصحاب حبيب بن عبدالرحمن الحكمي ، احد قواد الحجاج ، وكان جيشه ثلاثة آلاف ، وكان اصحاب شبيب ثلاثين رجلاً فقط : « لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة لأهلكونا » . ويجب ان تأخذ بعين الاعتبار ظاهرة اخرى لها خطورتها واهميتها ، وهي ايمان الخوارج بعقيدتهم ، وبندهم انفسهم في سبيلها ، ثقة منهم ان في ذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وقد كان لهذا الاعتقاد اثره العظيم في بسالتهم واسراعهم الى الموت ، والموت يهرب منهم ، وفيما روي عن الخوارج من الاقوال ، وحكي عنهم من الافعال ، ما يدل دلالة بينة على انهم كانوا يؤمنون ايماناً قوياً بأنهم يحاربون في سبيل الله ، هذا الى ما تزويوا به من لباس التقوى ، وتزينوا به من حلى الصلاح والنسك والزهد في متاع الحياة الدنيا ، وغير ذلك مما يدل على زهدهم في الحياة الدنيا وحبهم في الآخرة ، ورغبتهم في الوصول اليها والعمل في سبيلها .

هذا (حوثرة) اول من خرج بعد قتل الامام علي رضوان الله عليه ، دعاه ابوه الى الطاعة والدخول في الجماعة فابى ، فأداره فصم . فقال له : يا بني

أجيتك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه . فقال : يا ابت انا والله الى طعنة نافذة
اتقلب فيها على كعوب الرمح اشوق مني الى ابني ! (١)

وقال ابو بلال مرداس بن ادية احد رؤسائهم الكبار الاولين في عبد الله بن
وهب الراسبي قائد الخوارج الذين خرجوا على الامام علي كرم الله وجهه :
ابعد ابن وهب ذي النزاهة والتقوى

ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحبّ بقاء او ارجى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى آلاقي اولثكا (١)
وكان مرداس هذا مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، وكان من التقشف
والتنسك والعبادة بمكان عظيم ، حتى انتحلته الشيعة والمعتزلة فضلاً عن الخوارج .
وفيه يقول عمران بن حطان :

يا عين ابكي لمرداس ومصرعه يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائماً ابكي لمرزئتي في منزل موحش من بعد ايناس
انكرت بعدك ما قد كنت اعرفه

ما الناس بعدك يا مرداس بالناس (٢)

وكان عروة بن ادية اخو مرداس ، مثل اخيه مرداس في الظهور بالعبادة
والاجتهاد والتنسك ، ولما قتله عبيد الله بن زياد دعا مولاه فقال : صف لي
اموره . فقال : أأظنّب ام اختصر ؟ قال : بل اختصر .
قال : ما اتيتّه بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشاً بليل قط (٣) .
وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصي بها ، وهي

(١) الكامل - جزء ٢ صفحة ١٥٠ .

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٦ .

(٣) الكامل جزء ٢ صفحة ١١٦ .

محفوظة عنه . منها قوله : لو ملكت الارض بخذافيرها ، ثم دعيت الى ان
استفيد منها خطيئة ما فعلت .

وقال قطري بن الفجاءة :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم يجنات عدن عنده ونعيم^(١)

تأمل صياحهم امام الامام علي كرم الله وجهه ، وبحضرة اصحابه ،
وتناديهم : لا تخاطبوم ولا تكلموم . وتتهيؤوا للقاء الرب ، الرواح الرواح
الى الجنة .

وروي ان ابن عباس لما وجه اليهم الامام علي كرم الله وجهه ليدعوم
الى الطاعة ، رحبوا به واكرموه . قرأى منهم جياها قرحة لطول السجود
وعليهم قمص مرخصة^(٢) .

وروي ان رجلا من الخوارج طعن فنفذ فيه الرمح فجعل يسعى الى قاتله
وهو يقول : وعجلت اليك رب لترضى .

واعتبر مبلغ زهدهم في متاع الحياة الدنيا ، بصياحهم على من اخذ رطبة
سقطت من نخلة ، وقذف بها في فمه ، فلم يلبث من انتهارهم اياه ان لفظها .
وبما روى عن جماعة منهم انهم ساوموا ذميا على ثمار نخلة ، فقال : هو لكم .
فقالوا : ما كنا لناخذها الا بثمن ، وغير ذلك مما روى عنهم من هذا القبيل .
وكانوا - على ما كانوا عليه من غلظ الاكباد على اعدائهم - في غاية الرقة
والرحمة بعضهم على بعض ، كما يرشدنا اليه وقوفهم على قبور اصحابهم
بالنهر وان ، وبكاؤهم عليهم بكاء طويلا وترحمهم عليهم واستغفارهم لهم .

واخبار الخوارج مملوءة من امثال هذه الآثار ويجد المطلع على تاريخهم

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٨٣

(٢) مقسولة

انهم - مع ما قدمناه من تلك الاوصاف - كانوا على جانب عظيم من العلم والفهم ، وبدرجة عالية من البلاغة والبيان : ذكروا ان عبد الملك بن مروان - وكان من اكثر الناس علماً وابعدهم ادباً واحسنهم ديناً - اتى برجل منهم فيبحثه فرأى منه ما شاء علماً وفهماً، ثم بحثه فوجد ما شاء ادباً وذهياً. فرغب فيه واستدعاه الى الرجوع عن مذهبه فراه مستبصراً محققاً، فزاده في الاستدعاء . فقال له : لتغتك الاولى عن الثانية . وقد قلت فسمعت ، فاسمع اقل . قال له : قل .

فجعل يبسط له من قول الخوارج ، وزين له مذهبهم بلسان طلق والفاظ بينة ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يوقع في خاطرني ان الجنة خلقت لهم ، واني اولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت الى ما ثبت الله علي من الحجية وقرر في قلبي من الحق فقلت له : الله الآخرة والدينا . وقد سلطني في الدنيا ومكّن لنا فيها . وارك لست تجيب بالقول ، والله لاقتلنك ان لم تلج .

فبينما عبد الملك في ذلك ، اذ دخل عليه بابنه مروان وهو يبكي لان مؤدبه ضربه . فشق ذلك عليه . فاقبل الخارجي عليه وقال : دعه يبك . فانه ارحب لشدقه واصحّ لدماعه واذهب لصوته واحرى الاتأبي عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها .. فاعجب ذلك من قوله عبد الملك . فقال له متعجباً : اما يشغلك ما انت فيه عن هذا ؟

فقال : ما ينبغي ان يشغل المؤمن عن قول الحق شيء .

فامر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله .

وقال يمتذر اليه : لولا ان تفسد بالفاظك اكثر رعيتي ما حبستك . ثم قال عبد الملك : من شككني ووهمني حق مالت بي عصمة الله ، فغير بعيد ان يستهوي من بعدي^(١)

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٤٦

ويروى ان عمران بن حطان رأس القعدة من الصفرية، وخطيبهم وشاعرهم نزل عند روح بن زنباع سمير عبد الملك بن مروان ، وهو لا يعرفه ، فكان روح لا يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران الا عرفه وزاد فيه ، فذكر ذلك لعبد الملك . فقال له : خبرني ببعض اخباره فخبّره وانشده . فقال : ضيفك عمران بن حطان ، اذهب فجنّني به . فرجع اليه فقال : ان امير المؤمنين قد احبّ ان يراك . فقال له : امض فاني بالاثر . فرجع روح الى عبد الملك فاخبره . فقال عبد الملك : اما انك سترجع فلا تجده . فرجع وقد ارتحل وخلف فيها ابيات منها :

يا رَوْحُ كَمْ من اخي مثوى نزلت به

قد ظن ظنك من لحم وغسّات

حشي اذا خفته فارقت منزله من بعدما قيل: عمران بن حطان

قد كنت جارك حولاً ما تروّعني

فيه روائع من انس ومن جسان

حتى اردت بي العظمى فادركني

ما ادرك الناس من خوف ابن مروان

واعذر اخاك ابن زنباع فان له في النائبات خطوباً ذات الوان

وكان نافع بن الازرق ينتجع عبد الله بن عباس ، ويتباحث معه في مسائل

كثيرة في التفسير واللغة .. ذكر المبرد جملة منها في الكامل ... وساق الامام الراغب في سفينته طائفة عظيمة منها (١) .

الرأي في الخوارج :

وليس من شك اليوم في ان الخوارج قد شوهوا محاسن الدين الاسلامي

(١) نقلها من الاتقان للسيوطي .

تشويهاً غريباً ، فان هذا الاغراق في التأويل والاجتهاد اخرجهم عن روح الاسلام وجماله واعتداله . وهم في تعمقهم قد سلكوا طريقاً ما قال به محمد ، ولا دعا اليه القرآن ، واما التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العمياء ، والصلاح الذي كانوا يزینون به في الظاهر كان ظاهر التأويل بادي الزخرفة ، وقد طمعوا في الجنة وارادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين غلوأ اخرجهم منه ، ومجاوزه الحد توقع في الضد . وقد تبسط عمر بن عبد العزيز في ذلك لما ناظر شوذب الخارجي وصاحبه ، اذ بعثها اليه الخوارج فقال مخاطباً انصارهم في شخصيتها :

« انكم اردتم الآخرة فاخطأتم طريقها .. فانتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله حين بعثه الله اليهم وهم عبدة اوثان ، فدعاهم الى ان يتركوا الاوثان وان يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله . فمن قال ذلك حقن دمه واحرز ماله ووجبت حرمة وامن به عند رسول الله ﷺ ، وكان اسوة المسلمين وكان حسابه على الله . افلستم تلقون من خلع الاوثان ورفض الاديان وشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ... فتستحلون ماله ودمه ويلعن عندكم ؟ ومن ترك ذلك واباه من اليهود والنصارى واهل الاديان فتحرمون دمه وماله ؟ (١) »

وقد رأينا في تاريخهم الاول كيف قتلوا عبدالله بن خبّاب وامرأته ، وكيف كانوا يستحلون اموال المسلمين ويحترمون اموال الذميين ، وكيف كانوا يستعرضون الموحدين ويقتلون رجالهم ونساءهم واطفالهم ، وقد روي انهم كانوا يلقون الاطفال في القدور وهي تفور (٢) ، وكانوا يعتقدون ان ذلك من

(١) المقدم الفريد لابن عبد ربه جزء ١ صفحات ٢٦٤ و ٢٦٥

(٢) المقدم الفريد لابن عبد ربه جزء ١ صفحة ١٦٤ في رد الامام عمر بن عبد العزيز على الخوارج .

الدين وانهم ينالون به الثواب من رب العالمين ، ولقد بعث تناقض امرهم هذا عجب ذلك الذمي... الذي لم يقبلوا منه جنى نخلته الا بئس منه ، مع انهم قتلوا عبد الله بن خباب فقال :

— ما اعجب هذا ! أتقتلون مثل عبدالله بن خباب ولا تقبلون منا جنى نخلة . (١)

ولقد كان الناس حين يرونهم يعترهم الفزع الاكبر ويرتاعون منهم اشد الارتياح . ولبصيح بعضهم على بعض : الحرورية الحرورية (٢) ليهربوا منهم . واخيراً انظر ماذا كانوا ينقمون من المسلمين ومن ولاة امورهم !

كانوا يزعمون انهم محلون ، اي يجيزون ما حرم الله كتحكيم الرجال في الدين وتعطيل الحدود وجباية الاموال من غير حلها ، وانفاقها في غير حقها وما مائل ذلك . وهو زعم باطل .

الخواارج ثوريون :

والحق ان الخوارج قوم ثوريون ، قصر فهمهم عن حكمة الحكومة ، ولم يهتدوا الى مذهب سياسي يعتمدون عليه في الخروج على الولاة . فلما عجزوا عن مثل ذلك الطريق السياسي زعموا ذلك الزعم الباطل ليكون مبرراً لخروجهم على الحكام من طريق الدين ، وهو اشد الطرق تأثيراً في الناس واسرعها في اجتذاب الانصار لمن يدعوا اليه ، ألم تر ان اولهم وهو (الخدج) انتقد على رسول الله ﷺ... انه في قسمة بعض الغنائم ، فضل بعض القوم على بعض ؟ وانما كان هذا التفضيل منه عليه الصلاة والسلام تأليفاً لقلوب الذين فضلوا ، مع علمه برسوخ الاسلام في قلوب الذين قلّ عطاؤهم عن الاولين ،

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٣٥

(٢) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٣

فلم يفقه ذلك الخارجي هذه الحكمة العالمة ، وان التمييز في هذه القسمة هو عين العدل لانه الكفيل بالمصلحة العامة . لقد كان ذلك الخارجي يريد ان ينال نصيباً من المال فلما لم يستطع الى ذلك سبيلا ذهب به الجرد الى انتقاء القسمة من جهة العدل . ثم انظر الى اولئك الذين اكرهوا علياً كرم الله وجهه على التحكيم حتى اذا حكم على كره منه عظيم ، ثاروا عليه وقالوا : لا حكم الا الله . وتأمل في اجابته رضي الله عنه على ذلك بانها كلمة عادلة يراد بها جور ، وانهم يريدون بها ابطال الامارة ، ولا بد من امارة برّة او فاجرة .

تعاليم الخوارج ومذاهبهم

مختلف فرقهم والقول الفصل فيها

تعاليم الخوارج :

اثارت نظريات الخوارج وتعاليمهم عناية بعض المستشرقين الاوروبيين ، فاسمام (فان فلوتن) بالجمهوريين . وهم في الواقع اقرب في مبادئهم الى الجمهورية والشورى منهم الى شيء آخر ، ومبادئهم الديموقراطية متطرفة ، ولا يصح ان يقال انهم اصحاب المذهب الجمهوري لان هذا المذهب قد اعتمده الاسلام قبلهم ، واصرّ الحكم شورى بين الناس ، وكان اول ما بدأوا ببحث الخلافة ، لان العراك كان دامياً حولها ، والدم يسيل في سبيلها ، فقالوا : ان الخلافة حق لكل عربي حر ، ولا يصح للخليفة ان يتنزل عنها اذا ما اختير لها ، واذا جار الخليفة استحلوا عزله وقتله اذا قضت الضرورة بذلك . ثم عمد الخوارج الى تعديل نظريتهم الاولى في الخلافة ، فاطلقوها بين المسلمين جميعهم لا فرق عندهم بين العربي وغير العربي

شرط ان يكون مسلماً عادلاً..^(١) ولعل سبب ذلك انضمام بعض المسلمين من غير العرب اليهم ، فجعلوا عندئذ حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين احراراً او عبيداً .. فخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تحصر الخلافة في آل محمد صوات الله عليه ..

وانضم الى الخوارج وغذّى صفوفهم عرب خالص من ابناء الصحراء ، وبعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن كقبيلة بني تميم مثلاً ، وابطال القادسية ، ورؤساء الجند، وغيرهم وانضم اليهم بعض القراء من جند علي خصوصاً بعد فشل المصلحين وخيبة الامل في حقن دماء المسلمين ، ومن غريب امرهم انهم كانوا يغرقون في التدين اغراقاً ليس له ما يبرره ، ويتأولون الاحكام الاسلامية تأويلاً لم يقل به محمد ، ولا دعا اليه القرآن ، وقد اجس الخوارج واذكى نفوسهم ما رأوه من سعي اولي الامر الملح لمصالحهم الخاصة ، وآذام انهيار الشورى في السلام ، وقبول سكان المدن الاسلامية بالملك العضوض .

السياسة والدين :

وتعاليم الخوارج منذ ظهورهم مزيج من السياسة والدين ، فشعارهم (الحكم لله) شيء يمتزج بالدين والسياسة معاً ، فلا يصح والحالة هذه ان يقال ان دعوتهم هذه كانت دينية محضة او سياسية محضة^(٢) وظلت دعوتهم بسيطة حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا فيها كثيراً من التعاليم الجديدة ، وذهبوا يتأولون الاحكام الدينية تأويلاً فيه كثير من الاغراق ، والتعقيد كما قدمنا ، فقالوا : «ان العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الايمان، وليس الايمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب ، فمن اعتقد ان لا اله الا الله وان

(١) السعدي مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) يقول نيكلسون ان الدافع الاسمي للحركة الخارجية انما هو دافع ديني رغم ما كانت يشوبه من المظهر السياسي .

محمداً رسول الله ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر ، فهو كافر ، وكذلك نرى ان اغراقهم في الدين كان على غرار اغراقهم في السياسة ، وانهم في ذلك قد شوّهوا روعة الدين الاسلامي الذي كان يسراً لا عسراً ، سهلاً هيناً ...

وقد امتازوا بشدة تمسكهم بالقرآن واتباع احكامه ، وغلوا في ذلك غلواً شديداً ، حتى لقد تأولوا آياته على غير حقيقتها ، وعدوا مرتكب الكبيرة ، بل مرتكب الصغيرة منافقاً كافراً ، وخرجوا على ائمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبها احدهم ، وتشدد كثير منهم في امر مخالفهم في الرأي من المسلمين ، فعدوهم كفاراً ، حتى ليحكى ان واصل بن عطا رأس المعتزلة وقع في ايديهم ، فادعى انه مشرك مستجير ، اذ رأى ان هذا ينجيه اكثر مما تنجيهِ دعواه انه مسلم مخالف لهم (١) ..

ولو تكلفوا الترويج لنظرياتهم دون ارهاق مخالفهم ، لتلطف التاريخ في شأنهم ، ولكنهم اغرقوا اغراقاً هو اقرب الى الاحراج منه الى شيء اخر ، فقد كانوا لا يرحون المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني ، وكانوا يأتون افطع المنكرات واكبر الكبائر ، دون ما شفقة ولا رحمة ، ثم يتحرمون عن نافة الاشياء وصغير الامور . . . ومثل هذا التناقض في اعمالهم كان كفيلاً مع الايام بافنائهم والقضاء عليهم ، وهو ما اصبح امراً واقعاً ...

الخوارج وفوقهم :

وقد انقسم الخوارج الى عشرين فرقة كانت تخالف كل منها الاخرى في تعاليمها كلها او بعضها ، واشهر فرقهم :

الازارقة :

وهم اصحاب نافع بن الازرق المكنى بأبي راشد ، وكان من اكبر فقهاءهم

(١) الكامل للبردج ص ١٠٦ .

ولم تكن من الخوارج فرقة اكثر عدداً من جماعة الازارقة ولا اشد شوكة ، وقد كفر هو واصحابه علي بن ابي طالب وجميع المسلمين ؛ وقال نافع : انه لا يحل لاصحابه المؤمنين ان يجيبوا احداً من غيرهم اذا دعاهم للصلاة ، ولا ان يأكلوا من ذبائحهم ولا ان يتزوجوا منهم . وهم في نظره مثل كفار العرب وعبد الاوثان . وقال عن بلادهم : انها دار حرب . وحلل قتالهم وقتل اطفالهم ونسائهم . وكان لا يميز (التقية) في قول ولا في عمل ، وكان يستحل الغدر بمن خالفه ، ويكفر القعدة ممن كانوا على رأيه .. عن القتال مع قدرتهم عليه ، او عن الهجرة اليهم ، واوجب امتحان من ينضمون اليهم فكان يدفع اليه واحداً من اسرى مخالفيهم ويأمره بقتله فان فعل صدقوه وان ابي قالوا : « هذا منافق ومشرك »... وقتلوه .

وهم يكفرون ايضاً مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر ابليس الذي يقولون عنه انه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود قابى . وزاد نافع على ذلك ان اسقط حد الرجم عن الزاني المحصن ، لانه لم يرد عليه نص في القرآن ، واسقط الحد كذلك عن قذف الرجل المحصن ، ولكنه اقامه على من قذف المحصنات من النساء ، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير .. وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها (١) .

النجدية :

وهم اتباع نجدة بن عامر الحنفي . ومن تعاليمه التي انفرد بها ان المخطيء بعد ان يجتهد معذور ، وان الدين امران : معرفة الله ومعرفة رسوله ، وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب اموالهم والاقرار بما جاء من عند الله جملة ، وما عدا ذلك فالناس معذورون يجهله الى ان تقوم عليهم الحجة ، ومن اداه اجتهاد الى استحلال حرام او تحريم حلال فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المجتهد

(١) الفرق بين الفرق للبيهقي ، والملل والنحل للشهرستاني .

المخطيء قبل قيام الحجّة عليه فهو كافر ، وعظّم جريمة الكذب على الزنا :
واستقط حدّ شرب الخمر ، واجاز التقية ، وقال أن القعود عن القتال جائز ،
والجهاد اذا امكن . . افضل ، واستحل دماء اهل الذمة وامواهم ، وحكم
بالبراءة ممن حرمها، واجاز عدم اقامة امام ، وانما على الناس ان ينصف بعضهم
بعضاً فيما بينهم، فان رأوا ان ذلك لا يتم الا بامام يحملهم عليه فاقاموه جاز..

البيهسية

وهم اصحاب ابي بيهس بن جابر ، ومن تعاليمه انه لا يسلم احد حتى يقر
بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ ، والولاية لاولياء الله .
وكان يكفر (الواقفية) وهم الذين يقولون اننا نقف فيمن اقرتف فعل الحرام وهو
لا يعلم احرام ام حلال، لانه يعتبر ان من ضمن الاشياء التي جاء بها النبي والتي
تجب معرفتها ، المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها ، فهذه يجب على
المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها ، ويقول ان هناك اشياء
اخرى لا يجب على المسلم ان يعرفها الا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها . وكان
يقول ان الايمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل . اما مخالفوهم فهم كاعداء
رسول الله ﷺ تحمل الاقامة معهم... كما فعل المسلمون في اقامتهم .

الاباضية

وهم اتباع عبد الله بن اباض التميمي . ويختلفون عن غيرهم من فرق
الخوارج في انهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم ؛ بل قالوا انه يحل التزوج
منهم ، ويتوارث الخارجي وغيره . وهم الى المسئلة اميل حتى قالوا : انه لا
يحل قتال غير الخوارج غيلة ولا سبيهم الا بعد الدعوة واقامة الحجّة واعلان
القتال ، فاذا قاتلهم وغنموا امواهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيول . اما
الذهب والفضة او غيرها فانهم يردونه الى اعدائهم ، وكانوا يرون ان بلاد

مخالفيهم من المسلمين هي ديار توحيد ... إلا معسكر السلطان (يقصدون منها عامل بني امية او غيره من الامراء الجائرين) ، فانه دار بني . كما قالوا : ان مرتكب الكبيرة من اهل القبلة موحد لا مؤمن ، فهو كافر.. كفر نعمة الله عليه ، وان افعال العباد مخلوقة لله تعالى احداثاً وابداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولم يعتبروا اوامر الله وفوايه موجبة الى المؤمن فحسب ، بل ان الكافر مطالب بها ايضاً ، وليس في القران تخصيص الامر والنهي بواحد منها ، وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم .

الصفوية :

وهم اصحاب زياد بن الاصفر ، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ما داموا متفقين في الدين والاعتقاد . وقال ان التقية جائزة في القول دون العمل ، ولم يحكم بقتل اطفال المشركين ولا بتكفيرهم او تخليدهم في النار ، وفرق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لا حد عليها ، فلم يكفر مرتكب الاولى ، وانما كفر مرتكب الثانية . هؤلاء هم اشهر فرق الخوارج وان الناظر الى مبادئهم ليجد انهم قد اشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الاوثان . فلا عجب اذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم . وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا - كما رأينا - الحزب الاموي وغيره مدة قليلة من الزمن ... وكلفوا الامة الاسلامية ثمناً غالياً من الارواح والاموال .

رأي نيكلسون :

ويرى الاستاذ نيكلسون ^(١) « ان الخوارج كانوا المثل الاعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم ، وقد لانت قناتهم

(١) تاريخ العرب الادبي ..

قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب الى نفوسهم ويسود افكارهم ،حين وجدوا انفسهم امام خطر داهم كاد ينتهي بابادتهم واستئصال شأفتهم .
«ويري انه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون الى تحقيقها من وراء حركتهم هذه كما كان لغيرهم من الاحزاب السياسية الاخرى من شيعة وامويين وزبيريين » .

وفيا يقول الاستاذ نيكلسون بعض الصواب ،وقد ذكر الطبري عن شبيب الخارجي وقد انتهى الى احدى المدن ، فندب من اصحابه من يأتيه برأس عاملها ، فساروا حتى اتوا دار العامل : ونادوا : اجيبوا الامير ...
فقالوا : اي الامراء

قالوا : امير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شيبياً... فاغتر العامل بذلك وخرج اليهم ، فضربوا عنقه ، وقبضوا على ما كان في دار الامارة من مال ولحقوا بشبيب ، فلما انتهوا اليه قال :
ما الذي اتيموا به ؟

قالوا : جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال ، والمال على دابة في بدره .
فقال شبيب : اتيمونا بقتنة للمسلمين . هلم الحرية يا غلام .
فخرق بها البدر وامر فنحس بالدابة والمال يتناثر من بدرها على الارض
هنا وهناك ...

ثم قال : ان بقي شيء فاقدفه في الماء ..
وفي هذا ما يدل على انهم في الواقع كانوا أبعد الناس عن المال والعمل له وانهم كانوا يروجون لمذهبهم ، ويعملون لعقيدتهم ..

الاضطرابات الداخلية

وثورة ابن الأشعث

فترة من الهدوء والسلام :

وفق قواد عبد الملك بن مروان حوالي سنة ٧٨ للهجرة الى تهدئة الثورات الخارجية في اطراف الامبراطورية ، فاستتب السلام وفشا الامن ، وعاد الناس الى زراعتهم واعمالهم ، وانصرف القواد والجنود الى الراحة بعد عناء الحروب وكثرة الزحوف .

ورأى عبد الملك بن مروان تقديراً لجهود عامله الحجاج ، وتعزيزاً لشأنه ان يضم اليه خراسان وسجستان ، وكان عامله على الاولى امية بن عبد الله ، ولا يقدم خراجها الى الخزانة العامة في دمشق الا غراراً ، بينما الحجاج على العكس من ذلك كان لا يتأخر ابداً عن تقديم خراج البلاد التي كانت تحت حكمه وسلطانه ، ومن هذا التاريخ ٧٨ للهجرة ، حتى موته ، ظل الحجاج - اي مدى سبع عشرة سنة - حاكماً مطلقاً على الامصار الشرقية ، للامبراطورية

العربية ، فكان يحكم العراقيين ، وفارس وكرمان ، وسجستان وخراسان ،
وضمت اليه بعد ذلك عمان واليمن والبلاد العربية ، ثم انصبت عليه ثروة ما
وراء النهرين حتى حدود السند .

وفي هذه السنة عهد الحجاج الى المهلب بولاية خراسان ، والى عبيد الله ابن
ابي بكره بولاية سجستان ، فعهد المهلب الى ابنه حبيب للقيام مقامه ، باعباء
هذه الولاية ، ريثما يتمكن من انتهاء اعماله في العراق . وكان الحجاج في الوقت
نفسه يطالبه بخراج الاهواز ، وقدره مليون درهم ، والظاهر ان المهلب كان
من هؤلاء الامراء الذين يتلطفون كثيراً في البذل ، ويفرقون في العطاء ، فلما
طالبه الحجاج بالخراج المتأخر ، صعب عليه دفعه ، اذ لم يكن عنده شيء منه
فقام المفيرة ابنه بدفع النصف ، وساعده مولى له ببعض الباقي ، وباع المهلب حلى
امراته فتمكن بذلك من دفع المبلغ المطلوب .

ثورة مطرف بن المفيرة :

ومن الحق ان نختم حديث الخوارج بما كان من مطرف بن المفيرة بن شعبة ،
وكان بنو المفيرة بن شعبة صلحاء شرفاء بانفسهم مع شرف ابيهم ومنزلتهم من
قومهم ، فلما قدم الحجاج العراق ورأى على انهم رجال قومهم ، استعمل عروة
على الكوفة ، ومطرفاً على المدائن وحمزة على همدان ، وكانوا في اعمالهم احسن
الناس سيرة ، وأشدم على المريب .

وكان مطرف على المدائن عند خروج شبيب وقربه منها ، فكتب الى
الحجاج يستمده ، فأمده بسيرة بن عبد الرحمن بن مخنف وغيره ، واقبل شبيب
حقن نزل بهرسير وكان مطرف بالمدينة المتينة وهي التي فيها ايوان كسرى فقطع
مطرف الجسر ، وبعث الى شبيب يطلب اليه ان يرسل بعض اصحابه لينظر
فيها يدعون ..

فبعث اليه عدة منهم ، فسألهم مطرف عما يدعون اليه .

فقالوا : ندعو الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وان الذي نقمنا من قومنا الاستئثار بالفيء ، وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية .

فقال مطرف : ما دعوتكم الا الى حق ، وما نقمتم الا جوراً ظاهراً ، فبايعوني على ما ادعوكم اليه ليجتمع امري وامركم .

فقالوا : اذكره ... فان يكن حقاً نجيبك اليه .

قال : ادعوكم الى ان نقاتل هؤلاء الظلمة على احداثهم ، وندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وان يكون هذا الامر شورى بين المسلمين يؤمرون من يرتضون على مثل هذا الحال الذي تركهم عليها عمر بن الخطاب ، فان العرب اذا علمت انما يراد بالشورى الرضا من قريش ، رضوا ، وكثر تبعكم واعوانكم .

فقالوا : هذا ما لا نجيبك اليه ..

وقاموا من عنده ، وترددوا بينهم اربعة ايام فلم تجتمع كلمتهم ، فساروا من عنده ، واحضر (مطرف) نصحاءه وثقاته فذكر لهم ظلم الحجاج وعبد الملك ، وانه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناهضتهم ، وانه يرى ذلك ديناً لو وجد عليه اعواناً ، وذكر لهم ما جرى بينه وبين اصحاب شيب ، وانهم لو تابعوه على رأيه لخلع عبد الملك والحجاج .. واستشارهم فيما يفعل .

فقالوا له : اخف هذا الكلام ولا تظهره لاحد .

وقال له يزيد بن ابي زياد مولى ابيه المغيرة بن شعبة :

— والله لا يخفى على الحجاج ما كان بينك وبينهم كلمة واحدة ، وليزاد على كل كلمة عشرة امثالها ، ولو كنت بالسحاب لالتمسك الحجاج حتى يهلكك ، فالنجاة النجاة ... فوافقه اصحابه على ذلك فسار الى المدائن نحو الجبال .

ثم ذكر مطرف لاصحابه بالدسكرة ما عزم عليه ودعاهم اليه ، وكان رأيه خلع عبد الملك والحجاج ، والدعاء الى كتاب الله وسنة نبيه ، وان يكون الامر شورى بين المسلمين يرتضون لانفسهم من احبوه ، فبايعه البعض ،

على ذلك ، ورجع عنه البعض ، وكان ممن رجع سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف فجهاء الى الحجاج ، وقاتل شيبياً مع اهل الشام ، وسار مطرف نحو حلوان ، ثم الى همدان ، وبها اخوه حمزة ، فارسل اليه يستمده بالمال والسلاح ، فارسل اليه اخوه سرأ ما طلب ، وسار مطرف حتى بلغ (قم وقاشان) وبعث عماله على تلك النواحي ، واتاه الناس ، وكتب البراء بن قبيصة وهو عامل الحجاج على اصبهان اليه يعرفه حال مطرف ويستمده ، فأمدته بالرجال بعد الرجال على دواب البريد ، وكتب الحجاج الى عدي بن زياد عامل الري يأمره بقصد مطرف ، وان يجتمع هو والبراء على محاربتة ، فسار عدي من الري فاجتمع هو والبراء ، وحاربوا مطرفاً فكسروه وقتل مطرف ..

والواقع ان هذه هي المحاولة الثانية التي يحاول فيها بعض وجوه اهل العراق الثورة على الحجاج ، وقد قصصنا ثورة الجارود في فصل سابق ، واذا كان الجارود قد ثار على الحجاج ، لما اعتزم هذا انقاص العطاء ، فان مطرفاً ثار عليه لمذهبه السياسي ، وبطشه وسوء سيرته ، واجتمع مطرف الى الخوارج واستماعه الى كلامهم ، يدل على انه كان يؤمن ببعض مبادئهم ، او انه كان يحاول استمالتهم الى تعضيده ، لما رآه من فتكهم وبأسهم .

ابن الاشعث والحجاج :

فاذا اشرفت سنة ٧٩ للهجرة ، رأينا الحجاج يفكر في القيام بالغزوات في الشرق ومحاربة ملك كابول ، رتبيل التركي .. الذي كان لا يدفع الجزية المفروضة عليه إلا غراراً ، فأوغر ذلك صدر الحجاج عليه فبعث الى عميد الله بن ابي بكرة عامله على سجستان ان يناجزه وان لا يرجع عنه حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعته ، ويقيد رجاله ، فسار عميد الله في اهل البصرة واهل الكوفة ، ودخل بلاد رتبيل ، فاصاب من الغنائم ما شاء ، وهدم حصوناً ، وغلب على ارض من اراضيهم ، واصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم ارضاً

بعد ارض ، حتى امعنوا في بلادهم ، ودنوا من مدينتهم ، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً ، فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب ، فارتد الغزاة عنهم وتراجعوا بعد ان حدثت بينهم موقعة صغيرة لم تكن بذات شأن ، ولا كبير امر ..

واغضب الحجاج تراجع جنوده ، وكتب الى عبد الملك بن مروان ينبئه بالامر ، ويطلب منه الاذن ليرسل الى رتبيل جيشاً قوياً ، مخافة ان يدخل في روعه ان الامبراطورية الاسلامية تعجز عنه ، او لا تستطيع الوصول اليه ، فيفرق في سرفه ، ولا يبعد ان يهدد الامبراطورية ، وفي هذا ما فيه من الخطر الدام ، والشر العظيم .

فاذن له عبد الملك في ذلك ، فاخذ الحجاج في تجهيز الجيش ، واخذ من اهل الكوفة عشرين الفا ومن اهل البصرة مثل ذلك ، واعطى الناس اعطياتهم كاملة غير منقوصة ، وانفق فيهم الاموال ، وانجدهم بالخيال والسلاح الكامل ، ولما فرغ من ذلك ، عين عبد الرحمن بن محمد الاشعث قائدا عليهم ، فسار عبد الرحمن بهذا الجيش الكبير حتى قدم سجستان ، فجمع اهلها فخطبهم وقال : -- ان الحجاج ولا في ثغركم ، وامرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم فاياكم ان يتخلف منكم احد فتمسه العقوبة ، فمسكروا مع الناس وتجهزوا .

وسار بن الاشعث بجيشه نحو بلاد رتبيل ، فلما بلغ هذا خبره ، ارسل يعتذر ويبذل الخراج ، فلم يقبل منه وسار اليه ، ودخل بلاده وترك له رتبيل الارض بعد الارض ، والحصن بعد الحصن ، وعبد الرحمن يحوي ذلك ، وكلما حوى بلدا بعث اليه عاملاً وجعل معه اعواناً وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان خطر ، حتى اذا جاز ارضاً كثيرة ، وملا الناس ايديهم من الغنائم ، منع الناس من الوغول في ارض رتبيل وقال :

- نكتفي بما قد اصنناه العام من بلادهم نجيبها ونعرفها ، ويحتريء المسلمون على طرقها ، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها من بلادهم ان شاء الله حتى نقاتلهم في آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، واقصى بلادهم حتى يهلكهم الله تعالى . ثم كتب الى الحجاج بما فتح الله عليه ، وبما يريد ان يفعل ..

اول الاختلاف :

فلما اتى كتابه الى الحجاج كتب اليه : ان كتابك كتاب امرىء يجب الهدنة ، ويستريح الى الموادة ، قد صانع عدواً قليلاً قليلاً قد اصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً ، فامض لما امرتك به من الوجود في ارضهم والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتلتهم وسي ذراريهم .

وكتب اليه الحجاج كتاباً ثانياً بمنى ذلك ، وكتاباً ثالثاً ، يقول له فيه :

-- ان مضيت لما امرتك ، والا فاخوك اسحق بن محمد امير الناس .

فدعا عندئذ عبد الرحمن بن الاشعث الناس وقال لهم :

-- ايها الناس اني لكم ناصح ولصالحكم محب ، ولكم في كل ما يحيط به نفعكم ناظر ، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضيه ذور احلامكم واولو التجربة منكم ، وكتبت بذلك الى اميركم الحجاج ، فانني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتمجيل الوجود بكم في ارض العدو . وهي البلاد التي هلك فيها اخوانكم بالامس ، وانما انا رجل منكم امضي اذا مضيت ، وآبى اذا آبيت .

فثار اليه الناس وقالوا : بل نأبى على عدو الله . . ولا نسمع ولا نطيع .

وتكلم بعض ذوي الرأي فقالوا بخلع الحجاج ومبايعة عبد الرحمن ابن الاشعث ، ومحاربة الحجاج واخراجه من العراق ، وتبعمهم الامراء وقادة الجند والناس على اختلافهم ، فلم بلغ الحجاج خلمه كتب الى عبد الملك بنجر عبد

الرحمن ، وسأله ان يعجل في بعث الجنود اليه ، ونزل الحجاج الى البصرة ، ثم خرج منها الى (تستر) ، فالتقت طلائمه بطلائع ابن الاشعث ، فانهزم رجال الحجاج امامهم ، فلما اتى خبير الهزيمة الحجاج عاد الى البصرة ، وتبعه اصحاب الاشعث فقتلوا منهم واصابوا بعض ائقاهم ، فترك عندئذ الحجاج البصرة فدخلها ابن الاشعث ، فبايعها اهلها جميعهم ، وكان السبب في سرعة بيعتهم معاملة الحجاج لمن اسلم من اهل الذمة ، وتوزعوا في الامصار ، فكتب الحجاج الى البصرة وغيرها يقول : ان من كان له اصل من قرية فليخرج اليها ، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية ، فجعلوا يبكون ولا يدرون اين يذهبون ، فلما قدم ابن الاشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج .

الاتفاق مع رتبيل :

واذا فنحن امام ثورة عراقية ثالثة لعل المسؤول عنها في هذه المرة هو الحجاج نفسه ، لان الزحوف والحروب في بلاد بعيدة وارض صعبة جبلية ، لا يجب ان يقرر امرها وفاقاً لاهواء السياسة ، وانما يترك ذلك الى القائد في ساحة القتال ، وقد رأينا كيف ان عبد الرحمن بن الاشعث قائد الجيش رأى عدم الوجود في ارض العدو صيانة لارواح جنده ، وتعويداً لهم على مجابهة الملاحم في هذه الارض الصعبة البعيدة خصوصاً وقد سبق عبد الرحمن بن الاشعث قائد من قواد الحجاج اوغل في ارض العدو فسدوا عليه طريقه ، واحاطوا به من كل جانب ، ولم ينج من عدوه الا بعد صعوبات كثيرة ، وخسائر عظيمة في الارواح والاموال ... وكان هذا الفشل حافزاً لعبد الرحمن على ان لا يعرض جنده الى مثل هذا الفشل ، ومن ذلك كان تقديره لموقفه ... وامعانه في التؤدة امعانا انكره الحجاج عليه ... وعده مخالفاً لرأيه ، وخرجوا عن طاعته ...

ويذكر لنا المؤرخون فيما يذكرونه عن ابن الاشعث والحجاج ان ابن

الاشعث كان تياراً فخوراً ، وانه كان يعتقد ابداً انه فوق كل امير ، ويقول
ابن الاثير : ان الحجاج كان يبغضه ويقول لاصحابه :
- ما رأيته قط إلا اردت قتله .

وسمع الشعبي من الحجاج ذلك ذات يوم فاخبر ابن الاشعث به فقال
هذا :

- والله لاحاولن ان أزيل الحجاج عن سلطانه .
ولما اراد الحجاج ان يبعثه على ذلك الجيش اتاه احد اعوانه فقال له :
- لا تبعه ، فوالله ما جاز جسر الفرات ، فرأى لوالٍ عليه طاعة ، واني
اخاف خلفه .

فقال الحجاج : هو اهيب لي من ان يخالف امري ...
وذكر غيره من المؤرخين قصصاً اخرى على غرار ما ذكرنا ، فاذا كان
كل هذا صحيحاً ، فكيف بعث به الحجاج قائداً للجيش دون غيره من اهل
الطاعة ??

هذا ما يحار المؤرخ في تعليقه الا ان يكون الحجاج من الايمان بنفسه والاعتداد
بسلطانه بحيث لم يظن الى ان احداً يستطيع مخالفته فيه .. ?

سنة ٨٢ للهجرة :

وتشرف سنة ٨٢ للهجرة والخلاف بين الحجاج وعبد الرحمن بن الاشعث
لا يزال على حاله ، واهل العراق مع ابن الاشعث يحاربون جنود الحجاج من
اهل الشام ، ويناجزوم حتى تمكن جند الحجاج من كسر شوكة العراقيين
وهزموم^(١) فانسحبوا نحو الكوفة ، وتبعته طائفة من اهل البصرة ، فلما
علم اهل الكوفة بقدوم ابن الاشعث اليهم اخرجوا عامل الحجاج واستقبلوا
ابن الاشعث استقبالا حافلا ..

(١) وذلك يوم الزاوية في اواخر المحرم من سنة ٨٢ للهجرة .

وهنا يذكر لنا المؤرخون فيما يذكرونه من اخبار هذه المعركة ، ان الحجاج
قتل من اهل العراق احد عشر الفا خدعهم بالامان ، وامر منادياً فنادى لا
امان لفلان بن فلان ، فسمى رجلاً ، فقال العامة :
- قد امن الناس ، فحضروا عنده ... فامر بهم فقتلوا ...

دير الجماجم :

ولما انتهى الحجاج من امر الناس في الزاوية والبصرة ، مشى الى الكوفة
لقتال ابن الاشعث فنزل (دير قرة) ، وترك ابن الاشعث الكوفة فنزل (دير
الجماجم) واجتمع الى عبد الرحمن اهل الكوفة واهل البصرة والقراء
واهل الثغور والمسالح . . . اجتمعوا جميعهم على حرب الحجاج
لبغضهم له ، وكانوا مائة الف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم ، وجاءت الحجاج
الامدادات من الشام بكثرة عظيمة ، واخذ الناس يقتتلون ، وقد خندق كل
منهم على نفسه .

ونظر عبد الملك الى هذه الثورة الجديدة ، فخاف منها على ملكه وعرشه
فقال :

- ان كان يرضي اهل العراق بنزع الحجاج نزعناه ، فان عزله ايسر من
حربهم ، ونحقق بذلك الدماء .

وبعث عبد الملك ابنه عبدالله واخاه محمد بن مروان - وكان محمد بارض
الموصل - الى الحجاج في جند كثيف ، وامرهما ان يعرضا على اهل العراق
عزل الحجاج ، وان يجريا عليهم اعطياتهم ، كما يجري على اهل الشام ، وان
يتزل عبد الرحمن بن الاشعث اي بلد اراد من العراق ، فاذا نزله كان والياً
عليه ما دام حياً ، وعبد الملك خليفة ، فان اجاب اهل العراق الى ذلك ،
عزل الحجاج عنها ، وصار محمد بن مروان امير العراق ، وان ابى اهل العراق
قبول ذلك ، فالججاج امير الجماعة ، ووالى القتال ، ومحمد بن مروان وعبدالله

بن الملك في طاعته .

وما كاد الحجاج يعلم بسياسة عبد الملك هذه ورغبته في انهاء النزاع وقتل الخصومة ، حتى اضطرب اضطراباً عظيماً وأسقط في يده ، ولم يكن امر اشد عليه ، ولا اوجع لقلبه من ذلك ، فخاف ان يقبل اهل العراق عزله ، فيعزل عنهم ، فكتب الى عبد الملك يقول :

« والله لو اعطيت اهل العراق نزعي ، لم يلبثوا الا قليلاً حتى يخرج الفوك ويسيروا اليك ، ولا يزيدهم ذلك الا جرأة عليك ، ألم تر وبلغك وثوب اهل العراق مع الاشر على عثمان بن عفان ، وسؤاله نزع سعيد بن العاص ، فاذا نزع لم تتم لهم السنة... حتى ساروا الى عثمان فقتلوه ، وان الحديد بالحديد يفلح . »
ومن هذا نرى اختلاف الرجلين في سياستها ، فعبد الملك كان يرغب السياسة الوداعة والاتفاق ، والحجاج ينادي بسياسة الشدة والقمع ، وحجته ما اورده في كتابه ، ولكن عبد الملك ابي الا ان يعرض عزله على اهل العراق ، فلما اجتمع عبدالله ومحمد مع الحجاج خرج عبدالله بن عبد الملك الى اهل العراق وناداهم قائلاً :

— يا اهل العراق ، انا ابن امير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا ..

وقال محمد بن مروان :

— انا رسول امير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا ...

وذكر لهم شروط الصلح والموادعة وحقن الدماء .

فقال اهل العراق : نرجع العشية .

الاجتماع :

واجتمع الناس عند عبد الرحمن بن الأشعث فقال لهم :

- قد أعطيتكم امراً .. انتهازكم اليوم اياه فرصة ، وانكم اليوم على النصف ،

فان كانوا يعتدّون عليكم بيوم الزاوية ، فانتم تعتدّون عليهم بيوم تسير ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وانتم اعزاء اقوياء لقوم هم لكم هائبون وانتم لهم منتقضون ، فوالله لا زلتم عليه جراء وعندهم اعزاء ابداً . . . ما بقيتم ان انتم قبلتم .
فوثب الناس من كل جانب فقالوا :

-- ان الله قد اهلكهم فاصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القوية ، لا والله لا تقبل . . .
واعادوا خلعه ثانية .

فقال عندئذ عبدالله بن عبد الملك ، ومحمد بن مروان للحجاج :
- شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فانا قد أمرنا ان نسمع لك ونطيع ..

فقال الحجاج : قد قلت لكم انه لا يراد بهذا الامر غيركم .
وعاد القتال سيرته الاولى ، والقوم يتزاحفون كل يوم ويقتلون ، واهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة وسواها ، وهم في خصب ، واهل الشام في ضنك شديد قد غلت عليهم الاسعار ، وفقد عندهم اللحم كأنهم في الحصار .
ودام القتال بين اهل العراق وجنود الحجاج بالموضع المعروف بدير الجماجم طويلاً ، وكانت الحرب سجالاتاً بين الفريقين ، فوقعت بينهم اكثر من ثمانين واقعة دارت الدائرة بعدها على ابن الاشعث^(١) ، فهرب الى البصرة حيث لحقه الحجاج ودارت عدة معارك بينها ، ثم انهزم ابن الاشعث الى سجستان حيث استقبله رتييل استقبالاً حسناً وانزله عنده واکرمه وعظّمه ، وكان رجال عبد الرحمن وانصاره من الذين هربوا من وجه الحجاج قد وصلوا في هذا الحين - او اخر سنة ٨٣ للهجرة - الى سجستان ، ويقدرهم بعض المؤرخين بستين

(١) وكانت الهزيمة في دير الجماجم في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٨٣ .

الفا وهو عدد نعتقد انه مبالغ به ، وان كانوا لا يقلون عن بضعة آلاف ،
وسألوا عبد الرحمن ان يأتيهم ، فقدم اليهم ، فقالوا له :
- اخرج بنا من سجستان الى خراسان .

فقال لهم : ان بها يزيد بن المهلب وهو رجل شجاع ولا يترك لكم سلطانه ،
ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا اهل الشام ، فيجتمع علينا اهل خراسان واهل
الشام ...

فقالوا : لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا اكثر من يقاتلنا .

فرضي عبد الرحمن بما دعوه اليه ، ودخل خراسان ، فبعث اليه يزيد بن
المهلب عامل الحجاج فيها ان يخرج منها ، وذكر له فيما ذكره من كتابه انه يكره
ان يحاربه ويقاتله ، فتردد ابن الاشعث في امره ، ثم اخذ يجي الحجاج فشى
اليه يزيد وحاربه ، فلم يكن بينها كثير قتال ، وتفرق اصحاب عبد الرحمن
عنه ، وصبر وصبرت معه طائفة ثم انهزموا ، واسر يزيد بعضهم وانقذهم الى
الحجاج بعد ان استبقى عنده بعض من كانوا يمتون الى قبيلته بجمال من العصبية
او النسب .

موت ابن الاشعث

ومضى ابن الاشعث على وجهه مع بقية اصحابه حتى انتهى الى بلاد رتبيل
ثانية ، فحذره اصحابه من رتبيل هذه المرة وقالوا : قد يكتب له الحجاج
يرغبه ويرهبه فاذا هو قد بعث بك اليه اسيراً او قتلك واصحابك ، فحمد
رأيهم ودخلوا حصناً تحصنوا فيه ، وقدم عليهم عمارة بن تميم في جند من
جنود الحجاج فحاصروهم فامتنعوا حتى امنتهم فخرجوا اليه ، فوفى لهم ، وهنا
يختلف المؤرخون في مصير ابن الاشعث فبعضهم يقول ان رتبيل قبض عليه
وقطع رأسه وارسله الى الحجاج ، والبعض يقول انه أصيب بسهم في اثناء
المعركة فمات ، فارسل رتبيل اليه من قطع رأسه قبل ان يدفن ، وارسله الى

الحجاج ، وقيل ان رتبيل لما اتفق مع رسول الحجاج على تسليم ابن الاشعث اليه مقابل اعفاء الحجاج رتبيل من الحجاج سبع سنوات ، وقيل عشرأ ، ارسل رتبيل الى عبدالرحمن وثلاثين من اهل بيته ، فحضروا فقيدهم وارسلهم الى عمارة قائد جند الحجاج ، فالقى عبد الرحمن نفسه من سطح قصر فمات فأخذ رأسه وسيره الى الحجاج ... فسيره الى عبد الملك ...

الحجاج والاسرى

اما ان الحجاج قد اغرق في التقتيل والقمع فهذا ما لا ريب فيه ولا شك ،
واما ان عبد الملك بن مروان قد اطلق يده في ذلك ، فهذا ما يزال مسداراً
لكثير من البحث والتأويل .

لقد كان الحجاج يكره العراقيين ، ولا يثق باحد منهم ، وكان يذكر فيما يذكره من امورهم كيف انهم لم يتركوا له فرصة للاستمتاع باجماد الولاية التي غمرت المشرق من ادناه الى اقصاه ، فما يكاد ينتهى من ثورة حتى يعلق في ثورة ، وما يكاد يغمد سيفه من حرب ، حتى يعود الى سله لحرب ثانية ، وقد ظهرت نغمته هذه على العراقيين وشدته على المعارضين في ثورة ابن الاشعث ظهوراً تاماً ، وقد ذكرنا في فصل سابق كيف اسلم الحجاج للقتل احد عشر الفاً من العراقيين يوم الزاوية بعد ان امتهم ، ولعل سبب ذلك ، انه كان يخشى ثورتهم عليه مرة ثانية ، ولكن هذا لا يدفع عن الحجاج ما لحق به من نكث الوعد وخيانة العهد ...

ومن اعمال الحجاج بعد معركة (دير الجماجم) ما لا يتفق في قليل ولا كثير مع اسرى الحروب ، ومنكوبي الزحوف والمعارك ، فقد جلس الحجاج بعد المعركة في الكوفة يبايع الناس ، وكان لا يبايع احداً إلا قال له :

— اشهد انك كفرت .

فان قال نعم ، بايعه وإلا قتله ، فانه رجل من (ضغم) كان معتزلاً للناس

جميعاً فسأله عن حاله ، فاخبره باعتزاله ، فقال له :
- انت متربص ، أتشهد انك كافر . ؟
فقال له : بشس الرجل انا ، اعبد الله ثمانين سنة ثم اشهد على نفسي
بالكفر .

فقال الحجاج : اذا اقتلك ...

قال : وان قتلتني .

فقتله . فلم يبق احد من اهل الشام والعراق الا رحمه .

. . . .

واتي بآخر من بعده ، فقال له الحجاج :

. ارى رجلاً ما اظنه يشهد على نفسه بالكفر .

فقال له الرجل : اتخادعني عن نفسي ، وانا اكفر اهل الارض واكفر من

فرعون ... فضحك منه وخلي سبيله ..

. . . .

وجيء الى الحجاج باحد الفرس (فيروز) وهو من الذين ايدوا ابن الاشعث

وحاربوا معه ، وكان كثير الغنى وافر الثروة ، فقال له الحجاج :

... ابا عثمان ما اخرجك مع هؤلاء ، فوالله ما لحك من لحومهم ولا دمك

من دمائهم . !

فقال : فتنة عمت الناس ... قال : اكتب لي اموالك ..

فقال : وانا امن على دمي .

قال : والله لتؤدينها ثم لاقتلك .

قال : والله لا يجمع بين دمي ومالي .

. . . .

وسيق (الشعبي) فقيه اهل العراق الى الحجاج وكان مع ابن الاشعث فقال له :
- ايها الامير ان الناس قد امروني ان اعتذر بغير ما يعلم الله انه الحق ،
وايم الله لا اقول في هذا المقام إلا الحق ، قد والله مردنا عليكم وحرصنا
وجهدنا ، فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا بالاتقياء البررة ، ولقد نصرك الله
علينا ، واطفرك بنا ، فان سطوت فينوبنا ، وان عفوت عنا فيحلمك ، ويعد
فالحجة لك علينا .

فقال الحجاج : انت والله احب الي قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من
دمائنا ، ثم يقول ما فعلت ولا شهدت ، وقد امتنك يا شعبي ..

. . .

ويروى ان الحجاج جلس لقتل اصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث
فقام رجل منهم فقال :

- اصلح الله الامين ان لي عليك حقاً ...
قال : وما حقتك ؟

قال : سبك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه .
قال : من يعلم ذلك ؟

قال : انشد الله رجلاً سمع ذلك الا شهد به .
فقام رجل من الاسرى فقال : قد كان ذلك ايها الامير .
قال : خلوا عنه ... ثم قال للشاهد :
- فما منعك ان تنكر سي كما انكر ؟
قال : لقد يم بغضي اياك ! قال : ويخلى عنه لصدقه .

. . .

وقال الحجاج لرجل من الخوارج : والله اني لأبفضكم .

فقال له الخارجي : ادخل الله اشدنا بغضاً لصاحبه الجنة .
واتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعلت لا تنظر اليه ، وكان يزيد بن ابي
مسلم يرى رأي الخوارج ويكتم ذلك . فاقبل على المرأة فقال :
- انظري الى الامير .

فقالت : لا انظر الى من لا ينظر الله اليه .
فكلها الحجاج وهي كالساهية ، فقال لها يزيد :
- اسمعي وبيك من الامير .

فقالت : بل الويل لك ايها الكافر الردي ...
والردي عند الخوارج الذي يرى رأيهم ويظهر خلافه رغبة في الدنيا .
ويروى عن (ابن ميره) انه قال :

- انا لنتغدى معه يوماً - مع الحجاج - إذ جاء رجل من سليم برجل
يقوده فقال :

- اصلح الله الامير ، ان هذا الرجل عاص .

فقال له الرجل : انشدك الله ايها الامير في دمي ، فوالله ما قبضت ديواناً
قط ، ولا شهدت عسكرياً ، واني لحائك .
فقال : اضربوا عنقه .

فلما احس بالسيف سجد ، فلحقه السيف وهو ساجد ، فامسكنا عن
الطعام . فاقبل علينا الحجاج فقال :

- مالي اراكم صفرت ايديكم واصفرت وجوهكم وحدت نظركم من قتل رجل
واحد ، ان العاصي ، يجمع خلافاً : يخل بمرکزكم ويعصى اميره ، ويفر المسلمين
وهو اجير لهم ، وانما يأخذ الاجرة لما يعمل ، والوالي بخير فيه ، ان شاء قتل ،
وان شاء عفا .

بناء واسط

ولقد اشتد كره الحجاج للعراقيين بعد ثورة ابن الاشعث ، واخذ يخشى غوائلهم عليه ، بعد ان قتل كبارهم ، ومزق اوساطهم ، وادمى قلوبهم ، فرأى ان يعمد الى بناء مدينة خاصة له ، يقيم فيها مع جند الشام ، خصوصاً بعد ان اخذت تكثر الحوادث بين بعض الجنود وبعض العراقيين .

ويقول (ياقوت) ان الحجاج فكر في بناء مدينة واسط بين سنة ٨٣ وسنة ٨٦ للهجرة ، وانه بعث بعض الاطباء يفحصون له افضل مكان في العراق لبناء مدينته الجديدة ، فاختراروا له (واسط) لطيب مائها واعتدال اقليمها . ويذهب بعض المستشرقين الى ان اختيار واسط كان لاغراض عسكرية ادارية ، ولوقوعها بين البصرة والكوفة في مكان متوسط بينها ، بحيث تسيطر على العراق كل السيطرة وتقوم في الجهة الجنوبية من نهر دجلة .

وقد اسرف الحجاج في البذخ على بناء مدينته هذه ، فصرف على القصر والمسجد والجدران الخارجية ما لا يقل عن ثلاثة واربعين مليوناً من الدراهم . ويذكر لنا (ياقوت) ان كاتب الحجاج انتقد عليه امرافه واثار الى ان عبد الملك بن مروان قد ينكر عليه اسرافه هذا ، فاثار عليه الحجاج ان يذكر في قيوده مبلغ تسعة ملايين درهم لبناء المدينة ... و٤٣ مليوناً لمصارفات الحروب .

ولم يسمح الحجاج لغير السوريين من جنده وبعض الاجانب من غير العرب من سكان بخارى وما وراء النهر وغيرهم من اسرى الحروب بالسكنى في واسط ..

ولما انتهى الحجاج من بنائها ، نقل مركز الامة اليها ، وظلت واسط بعد الحجاج مركزاً لعامل الخليفة في العراق .

عبد الملك والحجاج

وصف للسياسة الداخلية في عهد عبد الملك

عبد الملك والحجاج :

كيف كان موقف عبد الملك بن مروان امير المؤمنين من سياسة عامه
في العراق ... ??

اما ان عبد الملك كان اكثر ميلا الى سياسة اللين والمسالمه فهذا مما لا شك
فيه ، ولكنه كما يظهر لنا كان يترك الامر لعامله حين يستعصي عليه اقرار
الشرط الاول من سياسته ، فقد عرض على اهل العراق عزل الحجاج كما قدمنا
فابوا ذلك عليه ، فنفض عندئذ يده من امرهم ، وترك للحجاج مهمة محاربتهم
واخذهم بالشدّة ، ولكنه كان يعود احيانا الى نفسه ، لما يراه من انحراف
الحجاج في سياسة القمع والارهاب ، فينكر ذلك عليه ، ويأسف لما وقع ،
ويود لو يكون بالامكان اصلاح الحال ، وان كان في الوقت نفسه يعلم علم اليقين
ان العراق بحاجة الى شيء من الشدّة والحزم بعد الثورات الكثيرة التي وقعت

فيه ليخذ الناس الى السكينة والسلام ..

ولعل هذه الناحية تفسر لنا الاسباب التي من اجلها كان يمكن للحجاج في الحكم ، ولا يعرض لشؤونه الادارية ولاعماله الشديدة في كثير ولا قليل .. ثقة منه ان اهل العراق قد اخرجوا الحجاج فاخرجوه ، ولو كان غيره ، لما وفق الى توطيد الامان والسلام في هذا القطر العظيم الخطير من الامبراطورية العربية الواسعة .

ويقول الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيقها رأيا وحزما وعابدها قبل ان يستخلف ، ورعا وزهدا ، فجلس يوما في خاصته ، وقبض على لحيته فشمها مليا ثم اجتر نفسه ونفخ نفخة اطالها ثم نظر في وجوه القوم وقال :

« ما اقول يوم المسئلة عن امر الحجاج وقد ادحض المحتج على العليم بما طوته الحجب ، اما ان تليكي له قرن بي لوعة يلهبها التذكار كيف وقد علمت فتعاميت ، وسمعت فتصامت ، عما حمله الكرام الكاتبون ، والله لكأني آلف هذا الطعن على نفسي ، بعد ان نعت الايام بتصرفها نفسا حق لها الوعيد ، بتصرم الزوال ، وما ابقت الشبهة للباقي متعلقا ، وما هو الا الغل الكامن ، اللهم انت لي اوسع ... غير منتصر ولا معتذر . »

قلت : هذا الكلام يختبر به ما في نفوس القوم الذين ظهر منهم امارات الغيظ من الحجاج على ثقة عبد الملك به واختياره على غيره ، وطرح كل ما يقال فيه علما منه بان لا يقوم احد بما قام به الحجاج ثم قال :

– يا كاتب هات الدواة والقرطاس .. فقعد كاتبه بين يديه واملى عليه :

« من عبد الله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف ، اما بعد فقد اصبحت بامرك برما ، يقعدني الاشفاق ، ويقيمني الرجاء ، عجزت في دار السعادة ، وتوسط الملك ، وحين المهل ، واجتماع الفكر التمس العذر في امرك ،

فانا لعمر الله في دار الجزاء وعدم السلطان واشتغال النفس والركون الى الزلة من نفسي ، والتوقع لما طويت عليه الصحف اعجز ..

« وقد كنت اشر كنتك فيما طوقني الله حمله .. والآث بحقوي من امانة الله في هذا الخلق المرعي ، فدلت منه على الحزم والجد في امانة بدعة وانعاش سنة ، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها ، حتى صرت حجة العائب ، وعذر اللاعن والشاهد القائم ، فلعن الله ابا عقيل وما نجبل ، فالأم والد ، واخبت نسل ، فلعمرى ما ظلمكم الزمان ولا قعدت بكم المراتب ، لقد البستمك ملبسكم ، واقعدتكم على روايي خططكم ، واحلتكم على قدر منعتكم ، فكنتم بين حافر وناقل وماتح في الفلوات القفرة ، ما تقدم بكم الاسلام ولقد تأخرتم ، وما الطائف منا ببعيد يجهل اهله ، ثم قتت بنفسك ، وطمحت بهمتك وسرك انتضاء سيفك ، فاستخرجك امير المؤمنين من اعوان (روح بن زباج) وشرطته وانت على معاوته يومئذ محسود ، فهما امير المؤمنين والله يصلح بالتوبة والغفران زلته ، وكان بك ، وكان ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان ، كل ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي امير المؤمنين فقرعت صفاتنا وهتكت حجبنا ، وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والارحام الواشخة ، في اوعية ثقيف ، فاستغفر الله لذنب ما له عذر ، فلئن استقال امير المؤمنين فيك الرأي ، فلقد حالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي ﷺ ، اذ ائتمنه على الصدقات وكان عبده ، فهرب بها عنه وما هو الا اختبار للثقة ، والمطلب لمواضع الكفاية ، فقعد فيه الرجاء كقاعد بامير المؤمنين فيما نصبك له ، فكان هذا ألبس امير المؤمنين ثوب العزاء ونهض بعذره الى استشاق نسيم الروح ، فاعتزل عمل امير المؤمنين واطمن عنه باللعة اللازمة والعقوبة الناهكة ان شاء الله اذا استحك لامير المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام . »

سفر الرسول :

ودعا عبد الملك مولى له يقال له (نباتة) له لسان وفضل رأي ، فناوله الكتاب ثم قال له :

– يا نباتة العجل ثم العجل حتى تأتي العراق ، فضع هذا الكتاب في يد الحجاج وترقب ما يكون منه ، فان سجن عند قراءته واستيعاب ما فيه ، فقلعه عن عمله وانتقل معه حتى تأتي به ، وهدىء الناس حتى يأتهم امري ، بما تصفي به في حين انقلاعك من حيي لهم السلامة ، وان هس للجواب ولم تأخذ الحيرة فيخذ منه ما يجيب به ، واقرره على عمله ، ثم اعجل عليّ يجوابه .

قال نباتة: فخرجت قاصداً الى العراق فضممتي الصحارى والقباني واحتواني القر واخذ مني السفر .. حتى وصلت فلما وردته أدخلت عليه وعليّ شحوب مضني ، وقد توسط خدمه من نواحيه ، وتدثر بمطرف خز أدكن ، ولاث به الناس من بين قائم وقاعد ، فلما نظر الي وكان لي عارفاً ، قعد ثم تبسم تبسم الوجل ، ثم قال :

– اهلا بك يا نباتة اهلا بمولى امير المؤمنين ، لقد اثر فيك سفرك ، واعرف امير المؤمنين بك ضيناً .. فليت شعري ما دهمك او دهمني عنده . ?

نباتة عند الحجاج :

فسلمت وقعدت فسأل :

– ما حال امير المؤمنين وخوله . ?

فلما هداً اخرجت له الكتاب فناولته اياه فاخذه مني مسرعاً ويده ترعد ، ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت الا وانا معه ليس معنا ثالث ، وصار كل من يطيف من خدمه يلقاه خالياً لا يسمعون منا الا الصوت فلا يقربون ، ففك الكتاب فقرأه ، وجعل يتشاءب ويردد تشاؤبه ويسيل العرق على جبينه وصدغيه

على شدة البرد من تحت قلنسوته ، وعلى رأسه عمامة خبز خضراء ، وجعل
يشخص اليّ ببصره ساعة كالتوم ، ثم يعود الى قراءة الكتاب ويلاحظني النظر
كالتفهم ، الا انه واجم ثم يعاود الكتاب واني لأقول ما اراه يثبت حروفه من
شدة اضطراب يده ، حتى استقصى قراءته ثم مالت يده حتى وقع الكتاب
على الفراش ، ورجع اليه ذهنه فمسح العرق عن جبينه ثم قال متمثلاً :

وإذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تيمة لا تنفع

« قبح والله منا الحسن يا نبأة ، وتواكلتنا عند امير المؤمنين الالسن ، وما
هذا الا سانح فكرة تمقها مرصد يكلب بقصتنا مع حسن رأي امير المؤمنين
قيناً... يا غلام »

فتبادر الغلمان الصبيحة ، فلىء علينا منهم المجلس ، حتى دفأني منهم
الانفاس .

فقال : الدواة والقرطاس .

فاتي بدواة وقرطاس ، فكتب بيده وما رفع القلم الا مستمداً حتى سطر
مثل خدّ الفرس ، فلما فرغ قال لي يا نبأة :

— هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا ؟

قلت : لا .

قال : اذا حسبك منا مثله .

ثم ناولني الجواب وامر لي بجائزة فاجزل وجرى لي كساً ودعا لي بطعام
فأكلت ، ثم قال :

— نكلك الى ما أمرت به من عجلة او توان ، واني لاحب مقارنتك

والانس برؤيتك ..

فقلت : كان معي قفل مفتاحه معك ، ومفتاح قفلك عندي ، فاجدت

لك الوافية بالامرین ، فاقفلت المكروه وفتحت العافية ، وما ساءني ذلك وما احب ان ازيدك بياناً .

ثم نهضت وقام مودعاً لي فالتزمني وقال :

- يا بني انت وامى ، رب لفظه مسموعة ، ومحتقر نافع فكن كما اظن ..

فخرجت مستقبلاً وجهي حتى وردت على امير المؤمنين ، فوجدته منصرفاً من صلاة العصر فلما رآني قال :

- « ما اجتواك المضحج يا نباتة »

فقلت : « من خاف من وجه الصباح ادلج » ، فسلمت واتبذت عنه فتركني حتى سكن جأشي ، ثم دفعت اليه الكتاب فقرأه مبتسماً فلما مضى فيه ضحك ، حتى بدت له سن سوداء ثم استقصاه فانصرف اليّ فقال :

- « كيف رأيت اشفاقه » ؟ فقصصت عليه ما رأيت منه ، فقال :

- صلوات الله على الصادق الامين ان من البيان لسحرا ...

ثم قذف الكتاب اليّ فقال اقرأ فقراته فاذا فيه :

كتاب الحجاج

« بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل الفعل بكفالة الله الواجبة لذوي امره .. من عبد اکتنفته الذلة ومدّ به الصغار الى وخيم المرتع ووبيل المكرع ، من جائل قادح ومعتز فادح ، والسلام عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت وكان بها التقوى الى اهلها قائداً ...

فاني احمد الله اليك راجياً لعطفك بعطفه ، الذي لا إله الا هو ، اما بعد كان الله لك بالدعة في دار الزوال ، والامن في دار الزلزال ، فانه من عنيت به فكرتك يا امير المؤمنين مخصوصاً . . فما هو الا سعيد يؤثر او شقي يوتر ،

وقد حججني عن نواظر السعد لسان مرصد وناث حقد ، انتهز به الشيطان
ساعة الفكرة ، فافتتح به ابواب الوسواس بما تحتويه الصدور ..

فواغوثاه باستعاذة امير المؤمنين من رجم انما سلطانه على الذين يتولونه ،
واعتصاماً بالتوكل على من خصه بما اجزل له من قسم الايمان وصادق السنة ،
فقد اراد اللعين ان يفتق لاوليائه فتقاً نبا عنه كيده ، وكثر عليه تحسره ،
بليلة قرع بها فكر امير المؤمنين ملبساً وكادحاً ومؤثراً ، ليقل من غربه الذي
نصبي ، ويصيب ثأراً لم يزل به موتوراً ، واذكره قديم ما مت به الاوائل
حتى لحقت بمثله منهم ، وبما كنت ابلوه من خسة اقدار ، ومزاولة اعمال ،
الى ان وصلت ذلك بالشرط لروح ابن زنباع ، وقد علم امير المؤمنين بفضل
ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي ، بان الذي عير به القوم
مصانعهم من اشد ما كان يزاوله اهل القدمة الذين اجتبي الله منهم ...

وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان وارثعوا بما يكون ، وما جهل
امير المؤمنين والبيان موقعه غير محتج ولا معتد ، ان متابعة روح بن زنباع
طريق الى الوسيلة لمن اراد من فوقه ، وان روحاً لم يلبسني العزم الذي به
رفعتي امير المؤمنين عن خوله ، وقد الصقتني بروح بن زنباع همة لم تزل نواظرها
ترمي بي البعيد وتطالع الاعلام ...

وقد اخذت من امير المؤمنين نصيباً اقتسمه الاشفاق من سخطه والمواظبة
على موافقته ، فما بقي لنا بعد الاصابة امر تجول به النفس وتطرف النواظر ،
ولقد سرت بعين امير المؤمنين سير المتشبط لمن يتلوه ، المتطارول لمن يقدمه ،
غير منبت موجف ، ولا متناقل مجحف ، ففت الطالب ولحقت الهارب ، حتى
ثارت السنة وبادت البدعة ، وخساء الشيطان وحملت الاديان الى الجادة العظمى
والطريقة المثلى ، وامير المؤمنين ولي المظلوم ومعدل الخائف وستظهر له المحنة
نبأ امري ولكل نبا مستقر ...

وان امير المؤمنين لاربع اربعة احدهم ابنة شعيب النبي ، إذ رمت بالظن

غرض اليقين تفرساً في النجى المصطفى بالرسالة فحق لها فيه الرجاء ...
وزالت شبهة الشك بالاختبار ، وقبلها العزيز في يوسف ، ثم الصديق في
الفاروق رحمة الله عليها ... و امير المؤمنين في الحجاج ..

وما حسد الشيطان بامير المؤمنين خاملاً ولا شارق بغير شجن ، ولقد سمعت
لامير المؤمنين في صالح صلوات الله عليه في ثقيف ، مقالا هجم بي الرجاء لعدله
عليه ، بالحجة في رده بحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد
المرسلين ﷺ ، فقد اخبر عن الله عز وجل بحكاية غرّ الملائكة من قريش عند
الاختبار والافتخار ، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم ، قالوا: لولا نزل هذا
القرآن على رجل من القريرتين عظيم ... فوق اختيارهم عند المباهاة بنفخة
الكبر وكبر الجاهلية على الوليد بن المغيرة المخزومي ، وابي مسعود الثقفي فصارا
في الافتخار بها صنوين ، ما انكر اجتماعها من الامة منكر في مد صوت
القرآن ومبلغ الوحي ، وما قدمتي يا امير المؤمنين ثقيف في الاحتجاج لها
وان لها مقالا رحباً ومعاندة قديمة ، إلا ان هذا من ايسر ما يحتج به العبد
المشفق على سيده الغضب والامر الى امير المؤمنين عزل ام اقرت ، وكلامها عدل
متبع وصواب معتدل ، والسلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله .

قال نباته : فاتيت على الكتاب يحضر امير المؤمنين عبد الملك فلما
استوعبته سارقتة النظر على الهيبة منه ، فصادف لحظي لحظه ، فقال :

— اقطعه ولا تعلمن بما كان احدأ .

فلما مات عبد الملك فشى عني الخبر .

وانتشر بين الناس ..

بين الحجاج وانس بن مالك

وهناك قصة ثانية جرت بين الحجاج وانس بن مالك خادم رسول الله ،

فقد شتم الحجاج انس بن مالك واغرق في ايدائه ، فكتب انس الى عبد الملك بالامر يشكوه ، وادرج كتاب الحجاج في جوف كتابه .

قال اسماعيل ابن عبد الله بن ابي المهاجر : بعث اليّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث اليّ في مثلها ، فدخلت عليه ، وهو اشدّ ما كان حنقاً وغمظاً ، فقال :

. يا اسماعيل ، ما اشدّ عليّ ان تقول الرعية ضعف امير المؤمنين ، وضاق ذرعه في رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل له حسنة ، ولا يتجاوز عن سيئة .

فقلت : وما ذاك يا امير المؤمنين .؟

قال : انس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، كتب اليّ يذكر ان الحجاج قد اضرّ به واساء جواره ، وقد كتبت في ذلك كتابين ، كتاباً الى انس بن مالك ، والاخر الى الحجاج ، فاقبضها ثم اخرج على البريد فاذا وردت العراق فابدأ بانس بن مالك ، فأدفع له كتابي وقل له : اشتد على امير المؤمنين ما كان من الحجاج اليك، ولن يأتي امر تكرهه ان شاء الله، ثم اتت الحجاج فادفع اليه كتابه وقل له : قد اغتررت بامير المؤمنين غرة لا اظن يخطئك نشرها ، ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه ، حتى تفهمني اياه اذا قدمت عليّ ان شاء الله .

قال اسماعيل : فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق فبدأت بانس بن مالك في منزله ، فدفعت اليه كتاب امير المؤمنين وابلغته رسالته ، فدعا له وجزاه خيراً . فلما قرغ من قراءة الكتاب قلت له :

-- ابا حمزة ان الحجاج عامل، ولو وضع لك في جامعة ... لقدران يضرك

وينفعك ، فانا اريد ان تصالحه .

قال : ذلك اليك . لا اخرج عن رأيك . ثم اتيت الحجاج ، فلما رأني

رحب وقال : والله لقد كنت احب ان اراك في بلدي هذا .
قلت : وانا والله قد كنت احب ان اراك واقدم عليك بغير ما أرسلت به اليك .

قال : وما ذاك ؟ قلت : فارقت الخليفة وهو اغضب الناس عليك .

قال : ولم ؟

فدفعت اليه الكتاب ، فجعل يقرأه وجبينه يعرق فيمسحه بيمينه ، ثم
قال : اركب بنا الى انس ابن مالك .

قلت له : لا تفعل ، فاني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك ،
وذلك للذي اشرت عليه من مصالحته .

وكان كتاب امير المؤمنين ما يأتي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد
الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف ، اما بعد . فانك عبد طمت بك الامور ،
فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدرك وعدوت طورك ، وائم الله لاغمرنك
كبعض غمزات الليوث للشعالب ، ولا ركضك ركضة تدخل فيها في وجارك ،
اذكر مكاسب آباءك بالطائف اذ كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ويحفرون
الابر في المناهل بايديهم ، فقد نسيت ما كنت عليه انت وآباؤك من الدناءة
واللؤم والضراعة ، وقد بلغ امير المؤمنين استطالة منك على انس بن مالك
خادم رسول الله ﷺ . جرأة منك على امير المؤمنين وغرة بعمرة نقاته وسطواته
على من خالف سبيله وعمد الى غير محبته ونزل عند سخطته ، واطنك اردت
ان تروزه بها لتعلم ما عنده من التخيير والتنكير فيها ، فان سوغتها مضيت
قدماً ، وان غصصت بها وليت دبراً ، فعليك لعنة الله من عبد اخفش العينين اصك
الرجلين ، ممسوح الجاعرتين . وائم الله لو ان امير المؤمنين علم انك اجترمت
منه جرماً وانتهكت له عرضاً فيما كتب به الى امير المؤمنين لبعث اليك من
يسحبك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك الى انس بن مالك فيحكم فيك بما احب ،

ولم يخف على امير المؤمنين نبؤك ... ولكل منا مستقر وسوف تعلمون .
قال اسماعيل فانطلقت الى انس فلم ازل به حتى انطلق معي الى الحجاج
فلما دخلنا عليه قال :

— يغفر الله لك ابا حمزة عجلت باللائمة واغضبت علينا امير المؤمنين .
ثم اخذ بيده فاجلسه معه على السرير .

فقال انس : انك تزعم اننا الاشرار والله اسمانا الانصار، وقلت اننا من
ابخل الناس ، والله يقول فينا « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة »
وزعمت انا اهل نفاق والله تعالى يقول فينا غير ذلك ، فكان الخرح والمشتكي
في ذلك الى الله ، والى امير المؤمنين فتولى من ذلك ما ولاه الله ، وعرف من
حقنا ما جهلت وحفظ من حقنا ما ضيعت ، وسيحكم في ذلك رب هوارضى
للمرضى واسخط للمسخط ، في يوم لا يشوب الحق فيه الباطل ولا النور الظلمة ،
ولا الهدى الضلالة ، والله لو ان اليهود او النصارى رأيت من خدم موسى بن
عمران او عيسى بن مريم يوماً واحداً ... لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول
الله ﷺ عشر سنين .

قال فاعتذر اليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره وترضى عنه ، وكتب
برضاه وقبوله عذره ، ولم يزل الحجاج له معظماً هائباً حتى هلك رضي الله
عنه .

جواب الحجاج

وكتب الحجاج الى امير المؤمنين عبد الملك بن مروان . « بسم الله الرحمن
الرحيم ، اما بعد اصلح الله امير المؤمنين وابقاه وسهل حظه وحاطه ولا عدا
مناه ، فان اسماعيل بن ابي المهاجر رسول امير المؤمنين اعزّ الله نصره قدم عليّ
بكتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه ، يذكر

شتيمتي وتوبيخي بأبائي وتعيري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند امير المؤمنين اتم الله نعمته عليه واحسانه اليه ، ويذكرني امير المؤمنين جعلني الله فداه استطالة مني على انس بن مالك خادم رسول الله ﷺ جراءة على امير المؤمنين وغرة بمعرفة تقماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد الى غير محبته ونزل عند سخطه ، وامير المؤمنين اصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله ﷺ امام الهدى وخاتم النبيين احق من اقال عثرتي وعفا عن ذنبي فامهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائمه وما قلده الله من امور عباده ، فرأى امير المؤمنين اصلحه الله في تسكين روعتي وافراج كربتي ، فقد ملئت رعباً وفزعاً من سطوته وفجأة تقمته ، وامير المؤمنين اقاله الله العثرات وتجارز له عن السيئات وضاعف له الحسنات واعلى له الدرجات احق من صفح وعفا ، وتعمد وابقى ولم يشمت في عدواً مكباً ولا حسوداً مصباً ولم يجرعني غصصاً ، والذي وصف امير المؤمنين من صيفته الي وتنويه لي بما اسند لي من عمله وارطائي من رقاب رعيته فصادق فيه ، يجزي بالشكر عليه والتوسل مني اليه بالولاية والتقرب بالكفاية ، وقد عين اسماعيل بن ابي المهاجر رسول امير المؤمنين وحامل كتابه من نزولي عند مسرة انس بن مالك وخضوعي عند كتاب امير المؤمنين ، واقلاقه اياي ودخوله بالمصيبة علي ما سيعلمه امير المؤمنين ، فان رأي امير المؤمنين طوقني الله بشكره واعانني على تأدية حقه ، وبلغني الى ما فيه موافقة مرضاته ، ومدت لي من اجله ان يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمنني به من سفك دمي ويرد ما شرد من نومي يطمئن به قلبي فقد ورد علي امر جليل خطبه ، عظيم امره ، شديد علي كربه ، اسأل الله ان لا يسخط امير المؤمنين وان يثبتني في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه بما يحمد به حسن رأيه ، وبعد همته انه ولي امير المؤمنين والذاب عن سلطانه والصانع له في امره والسلام .

فحدث اسماعيل انه لما قرأ امير المؤمنين الكتاب قال :

- يا كاتب افرخ روع ابي محمد .

فكتب اليه بالرضا عنه ، ويرى القارىء من كتاب عبد الملك هذا وجوابه للحجاج والى العراق من قبله ان القوم كانوا يستخبرون العقوبة بالشم ، والافحاش في السب واللعن عند عظم الجناية ، وكيف يتملق الضعيف للقوي ، ويحتمل ما يرد عليه منه ويتلقاه بالرضا والتسليم .

ونحن في الواقع فيما ذكرناه من هذين الكتابين ، وتكلفناه من نشرهما قد اغفلنا اموراً كثيرة فيها احراج فظيع ، وتوبيخ شديد ، ما كان يجب ان يصدر مثله من امير المؤمنين ، وهو الذي يستطيع ان يقطع ويصل ، ويعزل ويبقي ، ولكنها عادة درجت ، لم يكن القوم كما يظهر يجدون فيها شراً ولا حرجاً .

ونشرنا هذين الكتابين لتؤكد امراً واحداً ... وهو ان عبد الملك كان يشعر بشدة الحجاج في العراق وسؤ أثره في سياسته الداخلية بينهم ، ولكنه لم يكن يجد من يقوم مقامه في هذا القطر المضطرب الثائر دائماً وابدأ ، ثم انه كان يحفظ للحجاج خدماته ، ويقدر مآثره في توطيد الدولة وتوحيد الامصار فكان هذا من الاسباب التي حملت عبد الملك على ابقائه بعد ان فكر غير مرة في عزله وتولية غيره مكانه .

شخصية الحجاج :

والحجاج شخصية غريبة حقاً ، خلقه الله صارماً مرأ ، يقتل الناس في سبيل تأييد الدولة لأهون مظنة واضعف شبهة ، ولا حيلة له في ذلك ، حتى ان هناك من المؤرخين من يقول انه كان يحب الدم ، ويسر للقتل ، وقد حاول عبد الملك غير مرة ان يرده في بعض الحالات الى اللين والسجاجة فلم يوفق .

والمعراقون لم يكرهوا احداً كما كرهوا الحجاج ، ولم ينكروا ولاية احد
نما انكروا ولاية الحجاج ، حتى لقد خالط بعضهم له اللحم ولصق بالعظم ،
وجرى في اعراقهم مجرى الدم ، فلم يأت في ايام حكمه بحسنة إلا جعلوها
موضع اساءة وعنت وإحنة ، ولا احسن يوماً في امر من الامور او شأن من
الشؤون إلا احواله الى ظلم واستبداد ، حتى بلغ بهم الامر ان لعنوه وكفروه ،
وبلغ الامر ببعضهم ان جعل ذلك فرضاً واجباً .

والشيء الذي يظهر انه لا يحتمل الشك ولا يقبل الجدل ، هو ان الحجاج
كان من هؤلاء الناس الذين يعتمدون بشخصيتهم القوية الممتازة ، وجرته هذا
الاعتداد الى نوع من الشذوذ ، بلغ به الى هذا التطرف والاعراق ، والوثوق بان
الناس لن يسمعوا له ، ويطيعوا امره ، الا اذا اخذهم بالشدة وتولاهم بالغلظة
فكان ما كان من امره وشأنه في سياسته وادارته .

ولا بد من الاشارة الى شيء خطير وظاهرة عظيمة يتعلقان بالبلدين الكوفة
والبصرة ، وهما كل العراق ، فان وقوع هذين البلدين في هذا المركز الجغرافي
البديع جعلها اكثر استقلالاً واعظم حرية من غيرهما من المدن ، هذا الى ان
سكانها وقد بلغوا اكثر من مائة وخمسين الف نسمة في البلد الواحد سنة ٥٠هـ
للهجرة ، كانوا من العرب البدو الذين فتحوا الفتوح ، وسعوا رفعة الامبراطورية
بسيوفهم مما كان يدعوهم الى الفخر والمباهاة ، فلذلك رأيناهم ما نزل عليهم
حاكم وخضعوا له خضوع اهل الشام لحكامهم ، ولا جاءهم ثائر إلا سمعوا
له وأيدوه احياناً ، وكما رفعوا راية الاستقلال السياسي ... رفعوا راية
الاستقلال ايضاً في التشريع والقانون ، فمدرسة العراق في الحديث والتشريع
هي مدرسة الرأي الحر ، وتحكيم العقل .

ولقد كان الحجاج من هؤلاء الذين يقبلون على الدنيا فاذا مولدهم مطلع عهد
جديد ، ويمضون لمآبهم فاذا وفاتهم تاريخ ، رجل كان له الفضل الاكبر في

توطيد ملك عبد الملك بن مروان واولاده من بعده، وقد ظهر في امة كان يعرف فضائلها ومساوئها كل المعرفة ، وعاش في فترة من الزمن عجبت بالثورات ، وكثرت فيها القلاقل ، واخذ العرب يضربون بعضهم بعضاً بالسيوف والرماح ، فما زال يدور حول العقبات، ويتحايل على الاختلافات بالزجر حيناً ، وبالقسوة والسيف حيناً آخر ، حتى لانت له النفوس على مريض ، واستقامت له الامور قوة وقسراً .

واما ان الحجاج قد تجاوز في الغلظة والجفوة والاستبداد كل حد ، فهذا ما لا شك فيه ، ولكن الرجل كان موظفاً انفذه عبد الملك بن مروان لتهدئة الامور في العراق ، فتكلف خطة اعتقد انها المثل ، فكان ما كان من شدته وغلظته واخذه البريء والمذنب على السواء ، وهو ما ينتقد عليه ، ويستقبح منه ، ولكنه في الوقت نفسه تمكن من توحيد الصفوف ، وتوطيد الامن ، فمشت جيوش العراق الى الهند والسند تدعو الى المثل الالهية العليا ، ونهدت في الوقت نفسه جيوش الشام تقتحم الصحراء الى افريقيا، تنشر فيها هذه الديانة المتواضعة التي دعا اليه محمد بن عبد الله - ولولا توطيد الحجاج للامن الداخلي في العراق ، لما استقام هذا ، ولا استقر ، ولا كان بالامكان تنفيذه واقارره - وما زال هذا شأنها حتى تجاوزت اسبانيا ونزلت منها الى فرنسا ، حتى عقدت ما بين المشرق والمغرب .

ومن غريب امر الحجاج وعبد الملك بن مروان ، انه بقدر ما كان الحجاج شديداً محباً لسفك الدماء ، كان عبد الملك حكيماً محباً للسلم في سياسته واخذ الناس بالحلم واللين .

وفي التاريخ الكثير من اخباره التي تؤيد ما ذكرناه ، وقد كتب غير مرة الى الحجاج يُلح عليه باستعمال الرفق والاقلاع عن القسوة ، ولكن الحجاج كان يعتذر بان مثل هذه السياسة تعد ضعفاً في نظر العراقيين وما دام الحجاج قد

ضبط العراق ، ورتب شؤونه ووطد اموره ، فقد تركه عبد الملك وسياسته لايتعرض لها إلا في الاقل من الحالات .

وكان عبد الملك قد قضى حياة مضطربة قاسية في اول نشأته ، ولعل هذا سبب اعتداله ، فقد كان عمره عشر سنوات لما قتل عثمان ، وحاول المتآمرون قتل ابيه مروان بن الحكم كاتب عثمان ، مما اضطر والده الى الهرب هو وعياله من المدينة ، ولا بد ان يكون هذا القلق والاضطراب والخوف الذي استشعر به في صغره ، قد تولاه في كبره ، فادرك ان الحياة شاقة متعبة ، وانها شيء فان قصير ، مما حمله على الاعتدال في حياته ومعيشته ، وعدم التطرف والاغراق في اموره .

ادارة عبد الملك :

وجرى عبد الملك بن مروان في ادارة الملك على طريقة والده ، وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البلاد ، فزادت الامور استقراراً ، والاعمال تسلسلاً ، والعمال رغبة ورهبة ، والرعايا امناً ودعة ، وكثيراً ما كان يعتمد الى الشدة لاتأخذه رأفة بخصوم دولته ، فقد قتل مصعب ابن الزبير وكان احب الناس اليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال في الاعتذار عن عمله : « ولكن الملك عقيم » .

ولقد قيل له ان يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته ، الا باللين ، فان عثمان لان لهم حتى ركب ، ولو كان غلظ عليهم جنابه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا ، ... »

وقال : اني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ... ان ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة-اي باللين-أغير على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل وتظلم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالي ان يسير في كل زمان بما يعلمه .

وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وامة ، وقال عبد الملك يوماً : انصفونا يا معشر الرعية ، تريدون منا سيرة ابي بكر وعمر ولا تسرون فينا ولا في انفسكم بسيرة رعية ابي بكر وعمر ، نسأل الله ان يعين كلا على كل .

وسأله ابنه الوليد : يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .
ولما ولي عبد الملك العراقيين الحجاج بن يوسف الثقفي قال الحجاج :
- دلوني على رجل اوليه ... فقبل له : اي الرجال تريد ؟

قال : اريده دائم العبوس ، طويل الجاوس ، سمين الامانة ، اعجف الحيانة لا يجنتى في الحق مرة ، يهون عليه سؤال الاشراف في الشقاعة . فقبل له :
- عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ... فارسل اليه فاستعمله فقال له :

« لست اقبلها الا ان تكفيني عمالك ولدك وحاشيتك . »

فقال الحجاج : يا غلام ناد من طلب اليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . فقال الشعبي : فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يجبس إلا في دين ، وكان اذا اتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان اذا اتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً ، واذا اتى برجل قاتل بجديده واطهر سلاحاً قطع يده ، فربما اقام اربعين يوماً لا يؤتى اليه باحد ، فضم اليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

وخطب الحجاج اهل العراق : « اني رأيت آخر هذه الامة لا يصلح الا بما صلح به اولها ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، واني اقسم بالله لاخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقي الرجل اخاه فيقول . انج سعد فقد هلك سعيد ، او تستقيم لي قناتكم . »

ولما اتصل بعبد الملك اسراف الحجاج في القتل وانه اعطى اسحابه الاموال كتب اليه : اما بعد فقد بلغني سرفك في الدماء وتبذيرك الاموال ، وهذا ما لا احتمله لاحد من الناس ، وقد حكمت عليك بالقتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية ، وان ترد الاموال الى اصحابها ، فانما المال مال الله ونحن خزانه وقد متعنا بحق فاعطينا باطلا .

وكتب الحجاج الى عبد الملك يستأذنه في اخذ الفضل من اموال السواد فتمعه من ذلك وكتب اليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك ، وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً . »

وصية عبد الملك لأبنه :

وحرض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الامور لما وسد اليه اماره مصر قائلاً له : انظر بني الى اهل عملك فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ، وان كان لك عشية فلا تؤخره الى غدوة ، واعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، واياك ان يظهر لرعيك منك كذب ، فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك واهل العلم فان لم يستبن لك فاكتب اليّ يأتيك رأيي فيه ان شاء الله ، وان كان بك غضب على احد من رعيك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وانت ساكن الغضب مطلقاً الجرة ، فان اول من جعل السجن كان حليماً ذا اناة ، ثم انظر الى اهل الحسب والدين والمرؤة ، فيكونوا اصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، اقول هذا واستخلف الله عليك .

وهذا من اجل اساليب الادارة وسياسة الناس : لا تأخير في الفصل بينهم ، ولا كذب في الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والمالين ، وجعلهم

وخدمهم بطانة وسماراً وجلساء ، ولا امراع في انزال العقوبات حتى يذهب الغضب ..

الرشوة !!

وبلغ عبد الملك ان بعض كتابه قبل هدية فقال له : « والله ان كنت قبلت هدية لا تنوي مكافأة المهدي لها فأنتك لئيم دنيء ، وان كنت قبلتها تستكفي رجلاً لم تكن تستكفيه لولاها فأنتك خائن ، وان كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وان لا تخون له امانة ولا تثلم له ديناً فلقد رضيت بما بسط عليك لسان معامليك ، واطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هبة سلطانك » .

ثم صرفه عن عمله .

وذلك لان غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على اصول نقية من الشوائب ، والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها حقوق احد المتنازعين او حقوقها معاً .

وكان عبد الملك بن رفاعة امير مصر (٩٦) يقول :

... اذا دخلت الهدية الباب... خرجت الامانة من الطاق . - الشباك - .

عبد الملك والجزية :

وادخل عبد الملك اموراً جديدة في الادارة وهو اول من افرد للظلمات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان اذا جلس للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف .

وزاد عبد الملك الجزية ، واكل الجزية ديناراً واكثرها مفوض الى الاجتهاد ، فقد استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة - وكانت ديناراً على كل ججمة ومدّين قمحاً ، وقسطين زيتاً وقسطين خلا ، وضعها عليهم عياض بن غنم عند الفتح - فاحصى

عبد الملك الجماجم وجعل الناس كلها عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وحذائه، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد اربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ، ثم حمل الاموال على قدر قريبها وبعدها (١) ، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضر به عليهم الامام من الحوائج كاصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

نقل الدواوين الى العربية :

وفي ايامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية الى العربية ، فكان ذلك من اهم الاسس التي اقيمت في بناء القومية العربية في الممالك الاسلامية كافة ، وقطع به اخر مظهر من مظاهر الاعاجم ، فاصبحت البلاد عربية باوضاعها سائرة الى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخثني من اهل الاردن اول مسلم ولي الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والكوفة (٢) ديوانان لاعطاء الجند والمقاتلة والذرية يكتبان العربية ، وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق الى العربية ابو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري ، قدمه لذلك الحجاج ، فكان كتاب العراقيين كلهم غلماناً وتلاميذه (٣) ، ونقل ديوان مصر من القبطية الى العربية عبدالله بن عبد الملك بن مروان امير مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزاري من اهل حص ، وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الادارة ، فان اول من

(١) الحراج لابي يوسف .

(٢) ادب الكتاب للصولي ،

(٣) خطط المقرئزي .

كتب بالعربية في ديوان اصبهان سعد بن اياس كاتب عاصم بن يونس عامل ابي مسلم صاحب الدعوة العباسية وهو اول من اخذ الناس بتعلم القرآن من اهل اصبهان ، يقال انه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلا لم يكن فيهم من يحفظ القرآن الا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

وعبد الملك اول من كتب على الدينار (قل هو الله احد) وذكر النبي في الطوامير ^(١) ، وكانت الدنانير رومية تدخل من بلاد الروم ، والدرهم كسروية وحميرية ^(٢) قليلة ، وهو اول من ضرب الدرهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة ابو ذويب والبريد اليه ، يقرأ الكتب اذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها ^(٣) . ومن اهم اعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ، ومن اعماله ان يجلب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الامويون لا يأذن خلفائهم بالدخول عليهم الا بالترتيب الذي عينوه . والولاة ينزلون في المعسكر تحيط بهم الجند لتسهل المحافظة عليهم فلا يغتالهم مغتال ، وقد يتنقلون في عمالاتهم ، فزياد يقيم بالكوفة ستة اشهر وفي البصرة مثلها ^(٤) ، وهو اول من سير بين يديه بالحرايب والعمد ، واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه . وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثا في المسجد الجامع اولا ، وكان الجامع في الاسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان .

اما الولاة فيديرون ولاياتهم في المعسكرات ، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . و'ليس ^(٥) من مدينة عظيمة الا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم

(١) الطوامير الصحيفة والجمع الطوامير .

(٢) الاحكام السلطانية للواردي .

(٣) طبقات ابن سعد .

(٤) تاريخ ابي الفداء ،

(٥) المسالك والممالك لابن حوقل .

الاموال والصدقات العظيمة .. واذا رحل الجيش واضطر الى النزول في القرى
لشدة البرد في الشتاء يؤيه اهلها ثلاثة ايام ويُطعمونه مما يطعمون .

عبد الملك بن مروان :

ولقد وصف رجل عبد الملك فقال : انه ليرك مخالفة الجليس توكياً
لسؤ المجالسة ..

وقال عبد الملك للشعبي حين وفد عليه وحدثه : لقد حدثتني باحاديث قد
مررت عليّ ، ولكنني أنصتت حتى تظن اني لم اسمعها ، وان ذلك لطرف من
الادب .

ويقول المؤرخون : ان بعض العلماء يعدّون عبد الملك من الفقهاء . وكان
يقال لعبد الملك في المدينة : حامة المسجد... لطول عبادته .

وقال نافع مولى عبدالله بن عمر : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشدّ
تشميراً ولا املك لنفسه ، ولا اظهر مروءة من عبد الملك بن مروان . وكان
عبدالله بن عمر ، يذكره بالصلاح ..

وقال المدائني وغيره : ان عبد الملك قال حين وجه يزيد بن معاوية الجيش
الى ابن الزبير : « ليت السماء وقعت على الارض » اعظماً لذلك ، ثم انه ابتلى
بعد ذلك بان وجه الحجاج اليه فقتله بمكة ورمى البيت .

وكان عبد الملك يرغب في تعليم اولاده الشعر لانه يُنَجِّدُهم ويمجدهم .

وكان عبد الملك بخيلاً ، وكان يقول : اعطاء الشعراء من السرف ، ولكنهم
قوم يتأتى لهم من الدم الباقي السائر مالا يتأتى لغيرهم ، فانا اتقيهم ببعض النوال
ولا اتجاوز القصد .

ودخل اعرابي على عبد الملك فسأله ، فقال عبد الملك :

- ان علينا في مالنا حقوقاً هي اوجب من حقلك .

فقال : والله لو كنت مثلك ما منعت راغباً .

فقال عبد الملك : اعطوه .

فأبى الاعرابي قبول عطيتيه وخرج ، فقبل له : لم امتنعت عن قبول صلته .

فقال : ان يد البخيل ثقيلة . ؟

تأديب عبد الملك لولده :

وقال عوانه : دعا عبد الملك بمؤدب ولده فقال له :

.. اني قد اخترتك لتأديب ولدي ، وجعلتك عيني عليهم واميني ، فاجتهد في تأديبهم ، ونصيحتي فيما استنصحتك فيه من امرهم ، علمهم كتاب الله عز وجل ، حتى يحفظوه ، وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه ، وخذهم من الاخلاق باحسنها ، ومن الاداب باجلها ، وروهم من الشعر اعقته ، ومن الحديث اصدقته ، وجنبهم محادثه النساء ، ومجالسة الأظناء ومخالطة السفهاء ، وخوفهم بي ، وادبهم دوني ، ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ... وكان المنصور يقول :

.. الخلفاء ثلاثة ، معاوية وكفاه زياد ، وعبد الملك وكفاه الحجاج ، وانا ولا كافي لي .

...

وقال عبد الملك للهديل بن زفر ، وحاتم بن النعمان :

- اني اريد اختصاصكما ومجالستكما ، فلا تمدحاني في وجهي فاني اعلم بنفسي منكما ، ولا تطريا عندي ظنينا فاستغشكما ، ولا تكذباني فليس لكذب رأي ، ولا تغتابا عندي احداً ، وقولا ما شئتما .

وكان عبد الملك يشتم بالصنبرة من الاردن، فاذا انسلخ الشتاء نزل الجابية،
فاذا مضت ايام من اذار دخل دمشق فنزل دير مروان، حتى اذا جاءت حمارة
القيظ اتى بعلبك فاقام بهسا حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع الى دمشق، فاذا
اشتد البرد خرج الى الصنبرة .

قال المدائني : وبها مات يوم مات .

ايام عبد الملك الازخيرة

الفتوح والسياسة الخارجية

سياسة الفتوح :

نشط الحجاج بعد القضاء على الثورات الداخلية في العراق الى سياسة الفتوح ، وانصرف الى بسط سلطان الامبراطورية العربية فيما وراء النهر ، ومنغوليا والهند الى السند .

وقد بقي الحجاج في واسط لا يتحرك منها ، ولكنه كان يبعث البعث ويخند الجنود ، ويعين القواد ، ويذهب بفخر الانتصارات المختلفة .

ومن المؤكد لدينا اليوم ان غلبة الحجاج على الخوارج والثورات الداخلية المختلفة ، هو الذي مكن لهذه الفتوح ، ولولا ذلك ، لظلت هذه الامصار البعيدة السحيقة ، بعيدة عن سيوف العرب المسلمين ..

ولكن هناك مستشرقاً افرنسياً يدعى «رينو» ، رأى في هذه الفتوحات التي يقوم بها قواد الحجاج ، اكثر ما رأينا ، فهو يذهب الى ان غاية الحجاج

منها كان مصلحته الخاصة لا المصلحة الاسلامية العربية العامة ، وان الحجاج كان يخشى تبدل نجمه ، وانقلاب امره ، وافلات الامر من يده ، فذهب يهد لباقيات ايامه ، بفتوح جديدة يستطيع الالتجاء اليها حين يهوي نجمه ، ويذهب سلطانه ، وهذه نظرية غريبة ، هي اقرب الى الخيال منها الى الامر الواقع والشيء المنظور ..

وشيء آخر ايضا وهو ان الحجاج في الواقع كان يعلم علم اليقين ان سلطانه مستمد من امية وخلفاء امية ، وانه يستحيل عليه الاعتماد على غير بني امية وجنود الشام في تثبيت سلطانه ومحاربة اعدائه وخصومه ، ولذلك كان يخدم العرش الاموي خدمة الرجل الذي يخدم نفسه ويحافظ على حياته . فاتهامه اذاً في الرغبة بشق عصا الطاعة اذا نزعوا عنه سلطانه امر بعيد عن الاحتمال غريب عن الحقيقة .. اذا كان هذا غرض المستشرق الفرنسي من قوله ..

والواقع ان المعارك بين العرب والترك على حدود خراسان كان دائماً وابدأً امراً واقعاً منذ عهد معاوية ، فقد كانت هذه المنطقة الواسعة الاطراف ممزقة الى دويلات صغيرة يدفع بعضها الجزية للدولة العربية ، ويرفض البعض الآخر ذلك ، فكانت الزحوف والمعارك تقع دائماً بين هذه الدويلات الصغيرة والدولة العربية الناشئة ... هؤلاء يعملون للمحافظة على استقلالهم ، وهذه تسمى لبسط سلطانها عليهم ..

فلما كان المهلب في خراسان سنة ٧٩ هـ ، لم يوفق الى انتصارات حربية كما وفق مع الخوارج ، ولكنه تمكن من ضبط خراسان وتهدئة الاحوال فيها في الفترة التي كانت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث تهدد سلطان الحجاج في الشرق ، وتعمل على تمزيق الروابط السياسية التي تربط العراق بأمية ..

ومن المؤكد لدينا اليوم انه لو انضم المهلب الى ابن الاشعث ، ومشى يجنوده لنصرته ، لقضي على الحجاج القضاء المبرم ، ولتمزقت الامبراطورية العربية

الى دولتين كبيرتين ... واحدة في الشرق واخرى في الغرب ..

ففي سنة ٨٠ للهجرة قطع المهلب نهر بلخ ونزل على (كش) فحاصرها، بينما كان ابنه يزيد يحارب ملك الختل ، ويتغلب عليه ، وفي هذه الاثناء مات المغيرة ابن المهلب بخراسان ، وكان قد استخلفه ابوه المهلب عليها ، مات في رجب سنة ٨٢ للهجرة ، فأتى الخبر يزيد بن المهلب ، واهل المعسكر ، فلما علم المهلب بالفاجعة استرجع وجزع حتى ظهر جزعه ، ثم دعا يزيداً ووجهه الى مرو ... ووصاه بما يعمل وان دموعه تنحدر على لحيته .

ثم صالح المهلب اهل كش ورجع الى مرو فمات في مرو الروز واستخلف ابنه يزيد ليقوم مقامه من بعده .

ولما علم الحجاج بوفاة المهلب اقرّ ابنه على خراسان ... وكان موت المهلب في سنة ٨٢ هـ .

فلما جاءت سنة ٨٤ للهجرة ، فتح يزيد قلعة (نيزك) ، وكان قد وضع عليها العيون، فلما بلغه خروج (نيزك) عنها، سار اليها فحاصرها ، فلما حوى ما فيها من الاموال والدخائر ، وكانت من احصن القلاع وامنعها ، وكان نيزك اذا رآها سجد لها تعظيماً واكباراً ، ولما فتحها كتب الى الحجاج بالفتح ، وكان يكتب له يحيى بن يعمر العدواني فقال : « انا لحقنا العدو ، فمحننا الله اكتافهم ، فقتلنا طائفة واسرنا طائفة ، ولحقت طائفة برؤوس الجبال ، وعرائر الاودية واهضام الغيطان واثناء الانهار » .

فقال الحجاج : من يكتب ليزيد ؟

فقيل : يحيى بن يعمر ، فكتب اليه ليحمله على البريد ، فقدم اليه افصح الناس ، فقال له الحجاج :

— اين ولدت ؟

قال : بالاهواز .

قال : فهذه الفصاحة !
قال : حفظت من كلام ابي ، وكان فصيحاً .
قال : اخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟
قال : نعم كثيراً .
قال : ففلان ؟ ... قال : نعم .
قال : فاخبرني هل الحن انا ؟
قال : نعم تلحن لحناً خفياً ، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً .
فقال له الحجاج . قد اجلستك ثلاثاً ، فان وجدتك بارض العراق بعدها
قتلتك ...

فاذا كانت سنة ٨٥ للهجرة عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان ،
واختلف الرواة في سبب ذلك ، وان كان الحجاج في كتابه الى عبد الملك بن
مروان الذي يستأذنه فيه بعزل يزيد ، يتهمهم بانهم (زبيرية) . . فكتب له
عبد الملك يقول :

.. اني لا ارى طاعتهم لآل الزبير نقصاً بآل المهلب ، وفاؤهم لهم يدعوهم
الى الوفاء لي ...

فكتب اليه الحجاج يخوفه غدره فكتب عبد الملك اليه :
.. انت قد اكرهت في يزيد وآل المهلب ، فتم لي رجلاً يصلح لخراسان ..
فسمى قتيبة بن مسلم .

فاذن له عبد الملك عندئذ بعزل يزيد . فكره الحجاج ان يكتب له
بذلك ، فكتب اليه يأمره ان يستخلف اخاه المفضل ويقبل اليه . ففعل ،
وخرج يزيد من خراسان في ربيع الاول سنة خمس وثمانين ، واقر الحجاج اخاه
المفضل تسعة اشهر ، ثم عزله ... وقيل ان السبب في عزله ان الحجاج لما

فرغ من عبد الرحمن بن الأشعث ، لم يكن له هم الا يزيد بن المهلب واهل بيته ، وقد كان اذلّ اهل العراق كلهم الا آل المهلب (١) ومن معهم بخراسان . ويقال ايضاً ان الحجاج كان يبعث الى يزيد ليأتيه ، فيعتل عليه بالعدو والحروب ، فكان ما كان من اعتزاه عزله .

والواقع ان عزل يزيد بن المهلب مع صدقه في الخدمة ، واخلاصه لآل امية والحجاج ، امر يستلفت النظر ، ويبعث على اطالة الفكرة ، والحجاج في الواقع كان غريباً مع عماله ، شديداً عليهم ، يحاول حملهم على رأيه حتى في سير الحروب ، وخطط الزخوف ، مع بعده عن ساحة المراك ، وقلة معرفته بالحرب والقتال ، وقد يكون من الاسباب التي حملت الحجاج على التنكر لآل المهلب ، ما استطار من شأنهم ، وفشا من امرهم ، وازدياد حب الناس لهم ، واذاً فنحن امام ظاهرة هي اقرب الى الحسد منها الى شيء آخر ...

عبد الملك والروم :

ولقد وجد عبد الملك نفسه في اول خلافته في حالة حرجة جداً ، فقد كان هناك ابن الزبير في مكة يزاحمه على الخلافة ، كما كان هناك في دمشق وغير دمشق من امصار الامبراطورية ... جماعات من الناس ترتقب الفرصة السانحة لتعلن الثورة وتشق عصا الطاعة .

ورأى عبد الملك بثاقب نظره ، ان بطوقه توطيد عرشه وتثبيت ملكه في العراق والحجاز ومصر ، اذا كانت سورية وهي قلب دعوته ، ومصدر قوته ، ومادة خبزه ، هائلة وادعة ، لا يعكر اديمها خلاف ولا شقاق ...

ولم يكن من خطر على سورية الا من الامبراطورية البيزنطية التي كانت تقوم على حدودها وثغورها الشرقية . فرأى عندئذ من الحكمة وحسن

(١) ابن الاثير .

الرأي ان يحدد المعاهدة بين الدولة العربية والدولة البيزنطية وذلك سنة ٦٨٥ ميلادية .

على ان تدفع الدولة العربية مبلغاً من المال ، وعددأ من العبيد والخيول في في السنة للدولة الرومانية .

ولما مات قونسطنطين وخلفه جوستينيان الثاني طلب عبد الملك تعديل المعاهدة قليلاً لمصلحته ، وذلك فيما يتعلق بالمبلغ المالي المقرر دفعه ، على ان توافق حكومة القسطنطية بان يأخذ العرب نصف خراج ارمنييا وقبرص وبعض الجزر الاخرى .

ولعل اهم شيء في التعديلات التي أدخلت على المعاهدة المادة المتعلقة (بالمردة) ... والتي تنص على اخراجهم من لبنان حيث صار توزيعهم في امصار الامبراطورية البيزنطية ، وبذلك استطاع عبد الملك ان يمد سلطانه على الساحل والجبل .

وكانت هذه المعاهدة المعدلة لمصلحة عبد الملك بن مروان والدولة العربية ما في ذلك شك ولا ريب ، فقد اطمان عبد الملك الى حدوده الشرقية ، وحدود سورية من حيث الساحل ولبنان ، كما ان انسحاب المردة من الجبل وكانوا قد اخذوا يثورون ويغيرون على الحدود السورية ... ساعد على اقرار السلام والامان في ربوع لبنان والسواحل .

ولما انتهى عبد الملك من تسوية علاقاته مع الروم ، وجه همه للقضاء الى ابن الزبير وشيعته . وقد وفق الى ذلك توفيقاً تاماً وذلك في المعارك التي جرت بينه وبين مصعب بن الزبير في العراق ، وفي المعارك التي جرت بين الحجاج وعبدالله بن الزبير في مكة ، ولما قتل ابن الزبير في ١٤ تشرين الاول ٦٩٢ ، اصبح عبد الملك سيد الامبراطورية العربية .

المعارك مع الروم :

ولم يحاول عبد الملك تبديل سياسته مع الروم في اول الامر ، وبعد انتصاراته الاخيرة ، فقد ظل حتى بعد نجاحه في القضاء على الفتن الداخلية يدفع المفروض عليه من المال والعبيد والخيول ، ولكن البلاط الروماني لم يحافظ على بنود المعاهدة ، فقد تقدم احد قواد الروم وهاجم بعض الاراضي الواقعة تحت الحكم العربي في ارمينيا ، فلم يحرك عبد الملك ساكناً ...

وليس يستطيع المؤرخ المعاصر معرفة السبب الذي حمل عبد الملك على التريث والهوادة ، وقد يكون سبب ذلك خروجه من الحروب الداخلية تعباً منهوكاً ، ففضل دفع المترتب عليه ، والسكوت على بعض حركات الحدود ، بدلاً من الاقدام على حرب جديدة ، لا يعرف احد ما تكون نتائجها ومصايرها ..

ولكن الامبراطور جوستنيان الثاني ، كان قصير النظر كما يظهر فلم يفتن الى مرامي السياسة العربية ، وشجعت بعض العناصر في دولته ، فاعتبر موقف عبد الملك دليلاً على ضعف الدولة ، ورفض الدراهم المرسله اليه والتي كان قد صار ضربها مجدداً في دمشق وعليها بعض آي القرآن الكريم ، فاعترض عبد الملك على الرفض ، وعده بعيداً عن المنطق والانصاف ، فاصر الامبراطور على ان يصار الى تسوية الخلاف المالي البسيط بقوة السلاح ، وكانت المعركة التي وقعت في كيليكييا عنيفة جداً ، مزق العرب فيها شمل الجيش الروماني البيزنطي ، واجبروا الامبراطور نفسه على الهرب ، وكان من جراء هذا النصر ان استولى العرب على جنوبي ارمينيا وجزيرة قبرص .

وفي الوقت نفسه كانت الجيوش العربية في افريقيا تطارد القوات الرومانية فيها ، حتى تمكنت من الظفر بها كلها ، وقد كلف فشل الرومان في قرطاجة الامبراطور (ليوناتوس) عرشه ، وفي عهد خلفه تيبوريوس نجد المعارك تجري على

الحدود العربية الرومانية بين العرب والروم ٧٠٢ - ٧٠٣ ، ولكن العرب على الاجمال كانوا اكثر نجاحاً ، وامضى سلاحاً .

وفي السنة التي مات فيها عبد الملك عاد جوستنيان الثاني الى عرشه بعد ان هرب منه اثر فشله في المعركة التي جرت بينه وبين الجيوش العربية وانصرف الى الانتقام من خصومه في الداخل ، تاركاً العرب وشأنهم ، وفي سنة ٧١٠ - ٧١١ نجح الجيش العربي يتخذ خطة الهجوم على حدود الامبراطورية البيزنطية ، كما نجح الامبراطورية في حالة مؤسفة من الانحطاط والفوضى السياسية بعد موت جوستنيان الثاني .

جيش عبد الملك :

وكان جيش عبد الملك ومن بعده من العنصر العربي ، ولما توسع الامويون في فتوحهم شمالي افريقية وفتحوا الاندلس ... جندوا اناساً من البربر ومزجهم بجند العرب .

ويعد عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق، وكان فيهم من قبائل العرب كندة وغسان وقيم وهدان وربيعة وطبي ولخم وجدام وقيس وجماعة من بني امية وقريش ورؤساء اهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر . ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين الفا من اهل البأس والنجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين الفا ، وولى على رؤساء كل طائفة واحداً منهم . ويقول البلاذري (١) ان مسلمة بن عبد الملك لما غزا (عمورية) حمل معه نساءه ، وحمل اناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو امية تفعل ذلك رغبة بالجد في القتال غيرة على الحرم . وكانت امور الحرب بيد الولاة في الولايات تقوم (٢) بها القبائل المهاجرة

(١) فتوح البلدان للبلاذري ...

(٢) معلة الاسلام - مادة امية .

اليها ، اما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن اجناد الشام ، فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ، ويفضل هذه القوى المخلصة للامويين ظفروا في الحروب الاهلية الكثيرة التي جرت في عهدهم .

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج في اخذ نفسه بالتطلع الى استعلاء بواطن امور الرعايا ، وكذلك كان في التطلع الى اخبار الروم وغيرهم ممن كانوا ابدأ يكيدوا للمسلمين ، ولما ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين في سنة سبعين ، صالحهم عبد الملك على ان يؤدي الى ملكهم في كل جمعة الف دينار خوفاً منه على الدولة ، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتال الامة على الملك (١) لما دعا عمرو بن سعد بن العاص الاشدق الى نفسه بالخلافة ، واستولى على دمشق ، وسار عبد الملك بجيوشه الى العراق ، ليملكها من ابن الزبير . فعمل عبد الملك في اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شغل بقتال علي ، فصالح الروم على مال يؤديه اليهم ، وليس من الحزم ان تحارب دولة حريين داخلية وخارجية في وقت واحد . وفعل عبد الملك مثل ذلك في مداراة الروم فجدد الهدنة مع ملكهم على ان يدفع لهم المبلغ الذي ذكرنا ... ويقاسم ملكهم خراج قبرص وارمينية على شرط ان يخرج المردة من جبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم ... وتعارفوا معهم ...

قول الجاحظ في عبد الملك :

ويعدّ عبد الملك في العلماء كما يعد من اكبر الساسة . قال الجاحظ :
« كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها

(١) دول الاسلام للذهبي .

قبل ان يستخلف ورعاً وزهداً : وهو اول من لقب من الخلفاء بلقب الموفق لامر الله ثم لقب الوليد المنتقم لامر الله ، ولم يشتهر ابيهم اللقبين كثيراً . واوصى عبد الملك اولاده ان يعطف الكبير منهم على الصغير وان يعرف الصغير حق الكبير ، وحذرهم البغي والتحاسد ، واوصاهم باخيهم مسلمة وان يصدروا عن رأيه ، وان يكرموا الحجاج وزياذ وعتبة بن ابي سفيان وخالد القسري الذي تولى العراق زمناً طويلاً ، وقتيبة بن مسلم امير خراسان وفتح خوارزم وسمرقند وبخارى الذي دخل الى ملك الصين وضرب عليه الجزية وامثالهم الذين كانوا في بني امية « قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاورها وخزموه الاثوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الامور ، وجربوا الدهور فاحتملوا اعباءها ، واستفتحوا معالقتها حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان . »

ولاية للعهد :

ويذهب بعض المؤرخين الى ان الحجاج كان صاحب الرأي في تولية الوليد بن عبد الملك الخلافة وسبب ذلك انه كان يخشى ان يقضي عبد الملك نجه على حين غرة ، وهو شيخ كبير قبلي الخلافة من بعده اخوه عبد العزيز بن مروان ، ولي العهد ، ولم يكن يعطف على الحجاج ولا يثق به ، وكان الحجاج يعلم ذلك ، ويستشعر في قرارة نفسه خوفاً من عواقبه ، وفتقت له الفكرة يوماً وبعد ان خلا له الجو في العراق واستتب الامن وذلك في اوائل سنة ٨٥ للهجرة ، فكتب لعبد الملك كتاباً يزين له البيعة للوليد من بعده ، وكان عبد الملك يفكر في ذلك طويلاً ، ولكنه لم يكن يجرؤ عليه ، فلما وصله كتاب الحجاج وكان قد نصحه روح بن زبناج بمثل ذلك قبلاً ، استقام له الرأي في ذلك ، وكتب الى عبد العزيز بن مروان فقال :

– رأيت ان يصير هذا الامر لابن اخيك .

فابى عبد العزيز ، فكتب اليه عبد الملك ليجعل هذا الامر له ، ويجعله
للوليد من بعده ، فكتب اليه عبد العزيز :

– «ارى في ابني ابي بكر ما ترى في الوليد» فكتب اليه عبد الملك ليحمل
اليه خراج مصر ، فكتب اليه عبد العزيز :

« اني واياك يا امير المؤمنين قد بلغنا سناً لم يبلغها احد من اهل بيتك إلا
كان بقاؤه قليلاً ، وانا لا تدري اينما يأتيه الموت اولا ، فان رأيت ان لا تقسد
علي بقية عمري فافعل ..»

فرق له عبد الملك وتركه وقال للوليد وسليمان :

– ان يرد الله ان يعطيكما الخلافة ، لا يقدر احد من العباد على رد ذلك .
وبعد اشهر مات عبد العزيز ، فلما اتى خبر موته عبد الملك ، امر الناس
بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان ، فبايعوا ، وكتب بالبيعة لهما الى كل الامصار .

وفاة عبد الملك :

وفي منتصف شوال سنة ست وثمانين للهجرة ، توفي عبد الملك بن مروان
وكان يقول : « اخاف الموت في شهر رمضان وفيه ولدت ، وفيه قطمت ، وفيه
جمعت القرآن ، وفيه بايع لي الناس ..» فمات للنصف من شوال حين امن الموت
في نفسه ، وكان عمره ستين سنة ، وقيل ثلاثاً وستين سنة ، وكانت خلاقته
من لدن قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة واربع اشهر إلا سبع ليال ...

ولما اشتد مرضه قال بعض الاطباء :

– ان شرب الماء مات ...

فاشتد عطشه يوماً فقال : يا وليد اسقني .

قال : لا اعين عليك .

فقال لابنته فاطمة : اسقيني ماء .
فمنعها الوليد ، فقال : لتدعني او لا خلعتك ...
فقال : لم يبق بعد هذا شيء .
فسقته فمات . ودخل الوليد عليه وابنته فاطمة تبكي عند رأسه فقال :
- كيف امير المؤمنين ؟
فقال له : هو اصح .
فلما خرج تمثل عبد الملك :
ومستخبر عنا يريد لنا الردى

ومستخبرات : والدموع سواجم

واوصي بنيه فقال : « اوصيكم بتقوى الله فانها ازين حلية » واحصن
كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ،
وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذي عنه تفترون ، ومجنكم
الذي عنه ترمون ، واكرموا الحجاج ، فانه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ
البلاد واذل الاعداء ، وكونوا بني ام بررة ، لا تدب بينكم العقارب ، وكونوا
في الحرب احراراً ، فان القتال لا يقرب ميتة ، وكونوا للمعروف منساراً ،
فان المعروف يبقى اجره وذكره ، وضعوا معروفكم عند ذوي الاحسان ،
فانهم اصون له ، واشكر لما يؤتي اليهم منه ، وتعهدوا ذنوب اهل الذنوب ،
فان استقاموا فاقبلوا ، وان عادوا فانتقموا . »

عبد الملك في مرضه :

وكان عبد الملك عاقلاً حازماً اديباً لبيباً عالماً ، وقال زياد : كان فقهاء
المدينة اربعة ، سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ،
وعبد الملك بن مروان .

وقال جعفر بن عقبة : قيل لعبد الملك :

- اسرع اليك الشيب ؟

فقال : شيبني ارتقاء المناير ، وخوف اللحن .

وقال عبد الملك عن نفسه : ما اعلم احداً اقوى على هذا الامر مني ، ان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكنه لبخله لا يصلح ان يكون سائساً ...

وقال ابو مسهر : قيل لعبد الملك في مرضه :

- كيف تجددك ؟

قال : اجدني كما قال الله تعالى . « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم . الآية » .

وقال المفضل بن فضالة عن ابيه : استأذن قوم على عبد الملك بن مروان وهو شديد المرض ، فدخلوا عليه ، وقد اسنده خصي الى صدره ، فقال لهم : - انكم دخلتم علي عند اقبال آخرتي ، وادبار دنياي ، واني تذكرت ارجى عمل لي فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل الله ، وانا خلو من هذه الاشياء فاياكم وابوابنا هذه الحبيثة ان تطيفوا بها ..

ويروى ان عبد الملك بن مروان لما اشتد مرضه قال : « ارفعوني على شرف » - على محل عال - ففعلوا ذلك ، فتنسم الروح ثم قال :

- يا دنيا ما اطيبك ان طويلك لقصير ، وان كبيرك لحقير ، وان كنا منك لفي غرور . وتمثل بهذين البيتين :

ان تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
او تجاوز فانت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب

صفات عبد الملك :

وقد روى صاحب العقد ، ان عبد الملك بن مروان خطب الناس يوماً فقال :
« ايها الناس اني والله ما انا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان بن عفان - ولا
بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأمون - يريد يزيد بن معاوية -
فمن قال برأسه كذا ، قلنا بسيفنا كذا » ... ثم نزل
وخطب ايضاً الناس فقال : « ايها الناس ان الله حدّ حدوداً وفرض فروضاً ،
فما زلتم تزدادون في الذنب نزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وانتم عند
السيف » .

ويتبين لنا مقدار ما اتصف به عبد الملك من الاداب الاجتماعية فيما ذكره
المسعودي من ان بعض جلسائه قال له يوماً : اريد الخلو بك . ؟
فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تطر نفسي فأنا
اعرف بها منك ، ولا تعتب عندي احداً ، فليست اسمع منك ، ولا تكذبني
فلا رأي لمكذب .
قال : أتأذن في الانصراف .
قال : اذا شئت .

وقال عبد الملك لسعيد بن المسيب : يا ابا محمد صرت اعلم الخير فلا اسر
به ، واصنع الشر فلا اساء به ..
فقال : الآن تكامل فيك موت القلب .

وكان عبد الملك اول من غدر بالاسلام ، وقد تقدم فعله بعمرو بن سعيد ،
وكان اول من نقل الديوان من الفارسية الى العربية ، واول من نهى عن الكلام
في حضرة الخلفاء ، وكان الناس قبله يراجعونهم ، واول خليفة بخل ، واول

من نهى عن الامر بالمعروف فانه ، قال في خطبة بعد قتل ابن الزبير : « ولا يأمرني احد يتقوى الله بعه مقالي هذا إلا ضربت عنقه » .

بين عبد الملك والحجاج :

قال علي بن عبد الله : سائرت يوماً عبد الملك ، فما حاورنا الا يسيراً حتى لقيه الحجاج قادماً عليه ، فلما رآه ترجل ومشى بين يديه ، فخطب عبد الملك فاسرع الحجاج ، فزاد عبد الملك فهرول الحجاج . فقلت لعبد الملك : أبك موجودة على هذا ؟

فقال : لا ، ولكنه رفع من نفسه فاحببت ان اغض منه .

...

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي . فلما ائنت الوفود على الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاج حاضر ، قال زياد بن عمرو : يا امير المؤمنين ، ان الحجاج سيفك الذي لا ينبو ، وسهمك الذي لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم . فلم يكن احد بعد اخف على قلب الحجاج منه .

العراق مركز الثقل

في الموقف السياسي والعسكري

الموقف السياسي :

يذهب بعض المؤرخين حين يعرضون للحوادث السياسية والداخلية التي بسطناها في هذا الكتاب ، والى هذا الخلاف الذي نشب بين عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم ، الى ان امامة بن الزبير اسبق من امامة مروان ، وانه والحالة هذه احق بالخلافة منه .. وبيعتة اوجب من بيعة مروان المتأخرة .. فكان من اثر ذلك ان انقسمت الامصار العربية الى قسمين . . قسم يؤيد ابن الزبير ، وقسم يؤيد مروان بن الحكم في نزاعهما على الخلافة . . ولمن يجب ان تكون ..

قد يكون هذا منطق القضاء ورجال القانون ، ولكن السلطان عقيم كما يقول عبد الملك بن مروان ، والفضل في مثل هذه الحالات الاستثنائية انما يكون لصاحب القوة والجنده،والكريم الباذل لاكتساب الانصار والاعوان...

وقد رأينا كيف تمكن معاوية بن ابي سفيان من الظفر بالخلافة ، ومحاربة امير المؤمنين بن ابي طالب ، وعليّ ما ذلك شك اقرب الى الخلافة صلة ، واحق بها منه ، ولكنه لم يوفق الى التغلب عليه لتفرق جنده ، واختلاف امرهم ، بينما كان جند معاوية صفاً واحداً ، وجبهة واحدة ..

وكذلك رأينا ان العراق وحده كان محور الحركات السياسية والعسكرية في هذا العهد المضطرب ، إلا ما كان من امر عبدالله بن الزبير في مكة وكان امره حيناً كما رأينا ، واما العراق فقد ظفرت حوادثه بكل صفحات التاريخ في هذا العهد ، فاكثر المعارك خطراً ، وقعت في ارضه ، واكثر الملاحم شأناً حدثت في ربوعه ، وكل الثورات قامت بين قبائله وسكانه ..

فكانت البصرة والكوفة مركز الاخذ والرد ، والثقل والوهن في كل ما نشب في العراق من ثورات ، وحروب وزحوف وقلاقل ..

كانت الكوفة تريد الخلافة لبني هاشم ولآل بيت الرسول بصورة خاصة ، وكان اهلها اول من ساعد علياً ودعا حسيناً ، ولما تناقلوا عن نصرته ، ندموا لما فرطوا في بيعته ، وعادوا فجمعوا صفوفهم ، وتابوا عن تناقلهم ، وحاربوا عميد الله بن زياد ، فقتل اكثرهم ، حتى ظهر المختار وجمع صفوفهم ، وقضى على ابن زياد وقتله ومزق جنده ..

واما البصرة فلم تكن ترى رأي الكوفة في خلافة اهل البيت ، فبايعوا ابن الزبير وكتبوا اليه لبيعته لهم بوال يتولى امرهم ..

ويبدو ان خطر الخوارج الذي كان يهدد البصرة هو الذي حملهم على طلب الحماية من عبدالله بن الزبير .

كما ان العصبية القبلية ، كان لها شأنها في هذا الاختيار إذ كان اهل البصرة يفضون رجلاً من مضر على رجل من اليمن ..

وكانت العصبية القبلية ، اي اختلاف القبائل العربية فيما بينها ، قد افسدت

الامور في البصرة ، واهل البصرة بحاجة الى الاتفاق والتعاون فيما بينهم ليعيدوا خطر الخوارج عنهم ، فكان ان فرض عليهم هذا الخطر التفاهم فيما بينهم على بيعة ابن الزبير ، وايدت قبيلة تمم هذه الحركة ، لان ابن الزبير كان يعود باصوله اليها ..

واما الكوفة فقد وقعت موقفاً وسطاً ، ايدت بيعة ابن الزبير ، نكايه بني امية ، واختارت عامر بن مسعود ليكون عاملاً لابن الزبير عليها ، وكتبت له بذلك فاقرّ الاختيار ..

وظل ابن عامر اميراً عليهم حتى عزله ابن الزبير وولى مكانه عبدالله بن يزيد ..

وكذلك نرى ان موقف ابن الزبير من الحالة في العراق ، كان موقفاً هيناً ليناً ، لا يحاول فرض سلطانه ، ولا اختيار عماله ، تاركاً اهله يختارون ما يريدون ، راضياً ببيعتهم الضعيفة له ، وهي بيعة قلقة لم تكن تقوم على اساس ثابت بالتأكيد ..

فلم يكن سلطان ابن الزبير الذي فرضها ، وانما ظروف الموقف السياسي ، واذاً فقد كان من الممكن طبعاً ان تتبدل هذه البيعة او تضعف ، فيتبدل هذا الموقف ..

عمال يراقبون الموقف :

وكذلك وقف عمال ابن الزبير في المدينتين موقفاً اقل ما يقال فيه انه كان اقرب الى مراقبة الموقف منه الى تسيير الحوادث وتوجيه الامور .

علم عبدالله بن يزيد عامل ابن الزبير على الكوفة بامر التوابين الذين يتهبأون للخروج للطلب بسدم الحسين بن علي ، وان المختار يراقب الموقف مع انصاره ليرى ما يكون مصير (التوابين) .. فلم يحاول التدخل ، ولا اخذ بنصيحة من

حذره من المختار ووثباته ، واكتفى بالقول ، ان القوم يريدون قتلة الحسين بن علي ، وما انا بمن قاتله ولا بمن ساعد عليه ، واذا فهم وشأنهم .. ولن اتعرض لهم بخير ولا شر .. ماداموا يحاولون حرب بني امية ، الذين هم اعداء عبدالله ابن الزبير ..

والواقع الذي اريد ان اصل عليه هو ان هذا العامل لم يقف هذا الموقف بامر من ابن الزبير ، ولا كان هو يسير في موقفه هذا على سياسة مقررة للدولة ..

كان هذا رأيه الشخصي بالتأكيد ..

الجميع اعداء لابن الزبير ، فليضربوا بعضهم بعضاً ما داموا لا يحاولون بنا شراً ..

ولو كان ابن الزبير من اهل الدهاء لكان عليه ان يتكلف ، او يكلف عماله سياسة غير هذه ، بان يساعد التوابين مثلاً لمحاربة ابن زياد المقبل لاحتلال الكوفة ، واستلابها منه ، لا ان يقف مثل هذا الموقف من الحركة ، وكان عليه على الاقل ان يدعو الناس للخروج مع التوابين لمحاربة ابن زياد ، لان الذين خرجوا مع سليمان بن صرد من التوابين لمحاربة ابن زياد لم يكونوا يزيدون عن خمسة الاف ، وكان باستطاعة عبدالله بن الزبير وعامله ان يمدوا هذه الجماعة بعدد اكبر ، وان يفرضوا على المتشاكين الخروج معهم لمحاربة العدو المقبل عليهم ، لانه لو نجح ابن زياد في معركته مع التوابين ، فسوف يمضي متوجهاً الى الكوفة وسيضطّر اهلها عندئذ لمحاربتة ، فلماذا والحالة هذه لا يحاربونه جماعة واحدة بدلاً من محاربتة منقسمين .. ؟

وخروج التوابين وهم بهذه القلة كان خطأ عسكرياً لا سبيل الى انكاره ولكن زعيمهم سليمان بن صرد ، اصرّ على الخروج بهذا العدد رغم نصيحة اصحابه فكان ما كان من فشله ومقتله وانتهزام انصاره ..

ويبدو ان سبب تخاذل بعض اهل الكوفة عنه ، ووقوف عامل ابن الزبير هذا الموقف منه ، ومن جماعته ، يعود الى انهم كانوا يدعون لخلافة آل البيت وطرده عمال ابن الزبير من العراق ، فكان لسان حال ابن الزبير وعماله والحالة هذه منه ومن جماعته ان قالوا في نفوسهم :

« كلهم اعداء ، فليضرب بعضهم بعضاً » ولكن زفر بن الحارث عامل ابن الزبير في قرقيسيا قدّم لهم المؤن والمال وعرض عليهم البقاء عنده ، وتوحيد الجهود لحرب ابن زياد ، ولكن سليمان بن صرد اصرّ على الذهاب اليه بن معه ، ورفض البقاء ..

والغريب في امر (التوايين) وحركتهم انهم ناقضوا انفسهم منذ ابتداء الحركة . فقد كان اكثر الذين قاتلوا الحسين يقيمون فيها ، فلماذا الذهاب والحالة هذه لحرب ابن زياد ، قبل القضاء على الاعداء في الكوفة نفسها ، ولكن ابن صرد وجماعته رفضوا هذا الرأي الذي عرض عليهم ، من محاربة هؤلاء الذين ساهموا في حرب الحسين ، لان منهم من كان من اقربائهم وبني عمومتهم ، فكان ان قلّ من نشط للذهاب معهم ..

وكانت للمختار في الوقت نفسه يد في تشييط الناس عن التوجه مع سليمان بن صرد وجماعته ، وكان يقول في كل مجلس ومكان : « ان ابن صرد لاعلم له بالحرب ولا خبرة ، وانه انما يذهب لقتل نفسه وجماعته في هذه الحملة . »

والقول الفصل في حركة (التوايين) هذه ان عبداً لله بن الزبير قد أفسد امره بتخلفه عن مساعدتهم ، فقد كان الخطر عليه من الامويين أشد من خطر التوايين ، وكان من الحق عسكرياً وسياسياً ان يساعدهم لمحاربة عدوه ، فلما تخاذل عنهم ؟ كان كمن قضى على سلطانه بيده ..

الموالي في العراق :

ولقد تبسطنا فيما سبق من فصول في امر المختار وظهوره ، فلا حاجة بنا

والحالة هذه للعودة الى ذلك ..

والذي يهمننا الآن هو بحث الاسباب التي ادت الى نجاح المختار ، ولعل اهمها تودده الى الشيعة بعد فشل التوابين ، وصرفه الاموال على رجاله ، وانضمام (الموالي) اليه ، وهم غير العرب من المسلمين ، الذين اساء اليهم ابن الزبير ، كما اساء اليهم معاوية قبله ..

فقد كان العمال الامويون يحرمونهم من العطاء والرزق ، ولا يساؤونهم بالعرب المسلمين في كثير ولا قليل .. كما ابعدهم عن الوظائف ، فكان الموالي والحالة هذه ينتهزون الفرصة للانضمام الى كل ثورة ، لعلها ترفع شأنهم وترفع الضيق عنهم ..

وكان المختار رجلاً ذكياً داهية بالتأكيد .. ادرك ان نصف سكان الكوفة من الموالي ، وان في ايديهم مورد الثروة ، فهم اصحاب الحرف والتجارة فعمل على استئثارهم ، كما استمال العرب والاشراف ايضاً ، فظفر بصداقة الفريقين وتأبيدهما ، وانضم عشرون ألفاً من الموالي لجيش المختار ، وكانوا باكثريتهم من الفرس ، فاشركهم المختار مع العرب في العطاء ، ووعدهم بالمزيد من الاموال والارض ، كما يقول (البغدادي) في الفرق بين الفرق .

ولما عاب احدهم على المختار ، انه لم يسمع كلمة عربية في معسكره ، اعتذر ابراهيم بن الاشرق قائد جيش المختار ، وقال مبرراً سياسة المختار هذه : « والله لو لم اجد إلا النمل لقاتلت الامويين بها .. فكيف هؤلاء الذين هم اشد بصيرة في قتال جند الامويين من سوامم ، انهم اولاد الاساورة من اهل فارس والمازنية » .

وقد وفق المختار ايضاً في اختيار ابراهيم بن الاشرق لحرب خصومه ، وكان ابن الاشرق قائداً بارعاً ، ورجلاً باسلاً شجاعاً ، احس جنده فازدادوا بلاء ، وظفروا حيث فشل سوامم ..

واخيراً فشل المختار بعد ان تمكن من جند ابن زياد ومزقه ، وحين ارسل له ابن الزبير شقيقه مصعباً لمحاربته ، فتمكن منه مصعب بعد ان انفض جماعته من حوله وقضى عليه ..

ومن الاسباب التي ادت الى فشل المختار انه لم يكن مخلصاً في دعوته ، كان يدعو لمحمد بن الحنفية في الظاهر ، ويدعو لنفسه في الباطن ، كما انه احدث في الاسلام اموراً لم يقرها المسلمون ، وسخر السماء والخرافات لتأييد دعوته ونظامه ، واخيراً تخلى عنه (ابن الحنفية) الذي كان يتاجر باسمه ، ويقول انه وزيره ، وتبرأ منه ..

وكان من اسباب اخفاق المختار ايضاً مساواته الموالي بالعرب واشراف الناس فغضب العرب عليه والاشراف ، وناصروا مصعباً وجنده .. وان كانت سياسته بشأن الموالي لم تمت بموته ، فقد شعر الموالي ، بعد المعارك التي خاضوها ، انهم قوة سياسية لها وزنها ولها خطرها ، وانهم يستطيعون بتضامنهم التأثير في مصائر الدولة لخيرهم ومصالحهم ..

ولم يكن عبد الملك بن مروان بالرجل الذي تغيب عنه مصائر هذا التطاحن السياسي في العراق ، فترك زعماءه يتطاحنون ويتحاربون ، فقد كفاه ابن زياد ، شر التوابين ، وكفاه المهلب بن ابي صفرة خطر الخوارج ، وكفاه مصعب بن الزبير ثورة المختار ، وكل عدو له ولسياسته ، وكلما ضعف واحد منهم قل خطرهم ، وخف وزن الباقيين .

ولما انجملت المعارك الحربية اخيراً بفوز مصعب تهباً له .. وسار اليه .

وقد وصفنا في الفصول السابقة شأنه معه ، وغلبته عليه ، واذا كان اهل العراق لم يؤيدوه التأييد المطلوب ، فلقسوته واسراقه في سفك الدماء ، خصوصاً في البصرة ، بعد ظفره بالمختار .. وان كان هناك من ينسب ذلك الى اصحابه ، وانهم هم الذين ارغموه على ذلك ، فقد كان المختار في نظر الشيعة

رجلا تمكن من الانتقام من الذين قتلوا اهل البيت ، وكان بين القتلى مئات من العرب، ومئات من الموالي، فنقم الطرفان على سياسة مصعب هذه. كما نعت عليه الشيعة هذا الاسراف في قتل من اخذ بثأرهم ، وعبرّ عبدالله بن عباس عن غضبهم بقوله :

« ذاك رجل - اي المختار - قتل قتلنا ، وطلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا ، وليس جزاؤه منا الشتم والشهانة .. »

كما غضب بنو هاشم لما لحقهم من التعذيب على يد ابن الزبير ، وبلغت كراهية ابن الزبير لبني هاشم ان ابعدهم ، ونفى محمد بن الحنفية ، واخرج عبدالله بن عباس الى الطائف .

ويزيد (اليعقوبي) صاحب التاريخ: ان ابن الزبير ترك الصلاة على رسول الله في خطبه ، نكاهة ببني هاشم ، واليعقوبي هواه مع آل البيت ، ولم يذكر هذا الخبر غيره من المؤرخين ، على ما اعلم .

واذا اضفنا الى هذا كله بخله والتزامه البقاء في مكة ، والدنيا في العراق والشام قاعة قاعدة ، ورغبة اهل العراق في تجنب الحرب بعد ان اقبل عبد الملك بن مروان يجيشه عليهم ، واخذ يفتدق الاموال على كبارهم ، وقعنا على الاسباب التي ادت الى فشل ابن الزبير وانهيار سلطانه ، وقد بسطنا هذا كله في فصول سابقة من هذا الكتاب ، وان كان الذي يعيننا في هذا الفصل هو بحث الحالة السياسية والعسكرية في العراق نفسه ، من حيث انه كان ابعده الامصار الاسلامية العربية عن الاستقرار والهدوء .. في الفترة التي تؤرخ لها. والمستشرقون الى هذا يكادون .. يجمعون على ان الثقل السياسي في الامبراطورية الاموية كان في العراق .. ففيه قامت كل هذه الحركات السياسية والثورية والمذاهب الدينية .

ولأجل استقرار السلام في ربوعه صرف الأمويون اول عهدهم بانشاء دولتهم

كل جهودهم ، ووجهوا له كل جيوشهم ..
كانوا جماعة لا يستقرون على امير ، ولا يهدأون . وكانت الثورات ابدأ
تمصف فيهم فتدفعهم الى امتشاق الحسام لمحاربة السلطان القائم .. حتى ولو
كان هذا السلطان قوياً ثابت الاركان ..

وليس يعني هدوء الحالة في العراق بعد انتصار عبد الملك على مصعب بن
الزبير فيه .. ان السلام قد عاد فانتشر بين ربوعه .. فان هذه الاستكانة .
الموقته كانت هدوءاً يستبق العاصفة او العواصف التي سوف تأتي ، والتي سوف
يغذيها الموالي والخوارج والشيعه ، الذين كانوا يحاربون الدولة الاموية حرباً
شديدة قاسية قوية ، تشتد نارة ، وتسكن اخرى .. ولكنها لا تموت .

مشكلة الموالي

في الدولة الاموية

مشكلة الموالي :

لعبت قضية الموالي دوراً كبيراً في تاريخ الدولة الاموية ، وكان من واجب الدولة ان تفصل في قضيتهم ، وتعطيهم حقوقهم التي اقرتها لهم الاسلام ، وضمنها لهم الخلفاء الاولون ..

والموالي جماعة من غير العرب الذين اسلموا بعد الفتح ، وانضموا الى العرب يحاربون معهم رجاء ان يحصلوا على الحقوق التي وُعدوا بها .. إن القوا السلاح ورضوا بالاسلام ديناً .

فلما استقرت الدولة الاسلامية سواء في عهد الراشدين ، ام في العهد الاموي بعد ذلك ، وجد الموالي انفسهم دون العرب مكانة وعطاء وحقوقاً ، فقد شخ العرب بانوفهم عليهم ، واعتبروا انفسهم احسن منهم مكانة ونسباً وفضلاً .. حتى لقد سماهم بعضهم بالاعاجم ..

وانكروا زواج المولى بفتاة عربية ، وبالغوا في التهوين من شأنهم وخطرهم مع مخالفة هذا كله للاسلام ، وللسياسة التي درج عليها الخلفاء الراشدون ايام ابي بكر وعمر وعلي ..

ولم يكن الموالي بالتأكيد من الطبقات العامة من الشعب ، فقد كان منهم المتعلمون المثقفون ايضاً ، وكان بينهم من ينعم بنسب رفيع في قومه ، كما كانوا الى هذا يمثون الطبقة العاملة في الدولة الجديدة ، إذ كانوا اسحاب الحرف المختلفة ، والمصالح العديدة ، كسكان البصرة من الفرس المسلمين الذين احتكروا تجارة البلدة ومختلف حرفها ، بينما ظل العرب يحافظون على طابعهم العسكري كجند الدولة ، كما كان يريد عمر بن الخطاب ان يكونوا ، وان كان عمر قد اعطى الموالي حقوقهم كاملة غير منقوصة ، فلم يهون من امرهم ولا حاول اذلالهم ، ولا سمح لاحد من العرب باحتقارهم .

وبانصراف العرب للحرب والسياسة ، وعدم اختلاطهم بالموالي ، سيطر هؤلاء على تجارة البلد التي ينزلونها ، وانصرف كثير منهم الى العلم والدرس ، حتى جاء عهد كان فيه الموالي رؤوس العلم والمعرفة في عهدهم ، لا يساوقهم في هذا احد من المسلمين العرب .. كما عرف عنهم شدة التدين والتقوى والمحافظة على شعائر الدين الى ابعد الوجوه والغايات ..

ومما يجب ان يذكر في هذه المناسبة ان اهل العراق كانوا اوثق اسباباً في العلوم ومختلف الصناعات والحرف ، عند الفتح من غيرهم من العرب المسلمين الفاتحين ، وان بلادهم كانت اكثر حضارة وثقافة من ارض العرب انفسهم ، فكان لا بد والحالة هذه ان يتجاوب الاسلام في مبادئه وعقائده مع المسلمين الجدد من ابناء هذا القطر ، وان تتعرض عقائده ونظمه الى بعض التفسير والتعليق يقوم بها ابناء البلاد المثقفين المتعلمين ، فكان ان كثرت المذاهب الدينية والمعائد الاجتماعية في العراق ، وان طغت في عددها على كل البلاد الاسلامية الاخرى ..

ومن الحق ان نقول ان حالة الموالي لم تكن سيئة دائماً وابدأ .. فقد كانت احوالهم تتحسن حيناً وتسوء تارة وفاقاً لرغبة الخلفاء والعمال ، فان كان الخلفاء من اهل العدل والانصاف ، نعموا وسعدوا ، وان كانوا من اهل الجور والظلم ، تعرضوا للظلم والعنف ، وهذا القول يصدق على الطبقة العاملة دون الارستوقراطية منهم كالدهاقين مثلاً ، الذين هم ملاك الارض من الفرس ، فقد امتدت سيادة هؤلاء من العهد الفارسي الى العهد الاموي ، وكان لهم نفوذ كبير على اخوانهم عامة الفرس المسلمين ، كما تركهم الحكام المسلمون وشأنهم في اراضيهم وحفظوا لهم نفوذهم ، ليقوموا بحماية الاموال والضرائب للدولة الجديدة ، وهو ما كانوا يحسنونه ، وما كانوا يتكلفونه قبلاً ، ويقومون به في العهد الفارسي نفسه .

الارض في العراق :

ولقد ذكرنا قبلاً ، ان عمر بن الخطاب رفض توزيع ارض العراق الخصبية على الجند العربي الفاتح ، وقرر ان تبقى الارض ملكاً للدولة يزرعها اهلها ويدفعون عنها الضرائب المقررة فتظل هذه الضرائب مورداً دائماً للدولة الناشئة تصرف منها على جيشها وموظفيها ومصالحها المختلفة .

فلما كان عهد عثمان خرج هذا عن وصية عمر ، وسمح للعرب بشراء الاراضي خارج جزيرة العرب ، فانتقلت الارض الخصبية الطيبة في العراق مع الايام الى اسر قليلة معدودة ، يستغلونها بواسطة الموالي من الفلاحين الذين كانوا يفرضون عليهم العمل في ارضهم ، في احوال صحية فاسدة ..

وكان عمر بن الخطاب كما قدمنا اعفى الداخلين في الاسلام من غير العرب من دفع الضرائب ، والجزية ، وساواهم بالعرب انفسهم ، فكان كثير من غير العرب الذين بقوا على دينهم ، حين يجردون مشقة في دفع الواجبات المفروضة عليهم للدولة الناشئة ، يتقبلون الاسلام تهرباً من الضريبة ، وسوء المعاملة ... فقلت وارادات الدولة ، في الوقت الذي ازدادت فيه حاجة الامويين الى

الاموال للدفاع عن دولتهم ضد الطامعين فيها .. فكان ان اضطر الخلفاء وعماهم الى حرمان الموالي من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، وان كان الامويون في الوقت نفسه لم يتبعوا سياسة مالية ثابتة في العطاء الذي كان ينقص ويقل وفاقاً لرغبة الخليفة ، وحاجته الى المال ، وان كان عطاء الموالي ابدأ ودائماً دون عطاء العرب ..

لقد فرض معاوية للموالي خمسة عشر درهماً ، فرقمها عبد الملك الى العشرين ، وبلغ بها سليمان الخامسة والعشرين ، فلما استوى هشام خليفة زادها الى الثلاثين وهي ظاهرة تدل على ان بعض الخلفاء الامويين كانوا يعملون على زيادة عطاء الموالي وتحسين احوالهم ، وان كان هذا كله لم يصل بهم الى انصافهم الانصاف التام الشامل . واذا فنحن امام طبقة فقيرة من طبقات الدولة ، لم يحسن الامويون تفهم طلباتها فاغفلوها ، فاخذت هذه الطبقة تحاول اصلاح حالتها بمختلف السبل التي تجدها في طريقها ، سواء اكانت هذه السبل ثورة عارمة ، ام فتنة صغيرة ..

كما ان الموالي كانوا من اصل فارسي باكثرية ، والفرس كانوا اصحاب سيادة وسلطان لم يكن للعرب مثلها في ماضيات ايامهم ، فانهار سلطانهم ، وذوبانهم في هذا المجتمع العربي الجديد ، لم يكن يرضيهم ولا يسرهم ، فلا عجب اذا استجابوا لاحلام الماضي ، وراحوا يفكرون في دولة فارسية جديدة يعودون فيها سيرتهم الاولى من الحكم والسلطان ..

ولقد ادى هذا التنافر في الامتيازات والضرائب والمعاملة بين العرب والمسلمين من اصل فارسي ، الى ظهور الشعوبية ، التي قالت بمساواة العرب بالموالي ايام الدولة الاموية ، ثم بتفوق الفرس على العرب في مختلف شؤون الحياة خصوصاً وان معظم العرب لم يكونوا يحسنون شيئاً كثيراً من امور المعرفة في عهدهم الا ما كان من الشعر والخطابة ، فكان ان اضطرت الدولة الجديدة الى الاعتدال على

الموالي المتعلمين في الكتابة والحساب ، ووظائف الدولة ، فاحسن هؤلاء بتفوقهم على العرب ، خصوصاً لما عظم شأنهم في مختلف ميادين المعرفة الأخرى ، فنبغوا في الفقه واصل الدين وتفسير القرآن ، وجمع الحديث ، كما برعوا في الزراعة والصناعة والتجارة ، مما لم يصل العرب في أول عهدهم بإنشاء الممالك الى مثله ..

ولهذا كله نرى ان قسماً كبيراً من الشعب الذي كان يسكن العراق، والذي لم يكن يعود بنسبه الى اصل عربي كان من الموالي ، وكان معارضاً للسياسة الاموية ..

بعضهم عارضها لخروجها على الدين وبعدها عن مناهج السلف الصالح ..
وبعضهم عارضها للسياسة التي اتبعتها في ظلمهم واستعبادهم ..
وبعضهم خالفها لانه كان يؤيد علياً وحفدته من بعده ..

وقد انضموا الى علي وحاربوا معاوية لان علياً ساوى بين الموالي والعرب في العطاء ، وكتب الى عماله يأمرهم بحسن معاملة الموالي ، وكان جيشه في النهروان لما خرج لمحاربة الخوارج ، يتألف من اربعين الف مقاتل عربي ، وستة عشر الفاً من الموالي .

ولما قتل علي ، حارب الموالي مع الخوارج ، لانهم جعلوا الخلافة حقاً لكل واحد من المسلمين شرط ان يكون صالحاً تقياً ..

كما راحوا يوالون الخوارج ويساعدونهم في كل معركة خاضوها ضد الامويين .
وقد رأيناهم يساعدون عبدالله بن الزبير ضد يزيد ..

ثم يجارون مع المختار ضد الامويين ..

ولما ثار عبد الرحمن بن الأشعث ضد الحجاج حاربوا معه .. مما يقطع بانهم كانوا ابدأ سرعاً الى كل ثورة ضد الحكم القائم ..

ولما وقعت المعركة بين مصعب بن الزبير والمختار ، كان العرب في جيش مصعب اكثر عدداً من الموالي ، وكان الموالي في جيش المختار اكثر عدداً ، ولما نجح مصعب في القضاء على المختار ، وقتل انصاره ، وبينهم اربعة الاف من الموالي كما يقول المؤرخون ، غضب الموالي لفعلته هذه ، وتركوه يلقى مصيره مع عبد الملك بن مروان ، دون ان يرفعوا يداً لنصرته ، مع ان عبد الملك كان اعدى من مصعب عليهم واشد واقسى ..

فلما جاء الحجاج الى العراق دهم الموالي ما لم يكن لهم به عهد قبلاً من ظلم وشدة وسفك دماء ..

لقد اوصاه عبد الملك بن مروان حين ولاه العراق بالحزم والشدة ، واقامة النظام وبسط الامن في البلاد ، فاتخذ القوة لاقرار كل هذا ، واستعمل من الشدة لباوغ اغراضه ما لم يعهده العراقيون في حاكم قبله .

وصبّ الحجاج ثقته على الموالي لانهم باعتقاده كانوا يؤيدون كل ثائر مفسد في الارض ، ولما كان في حرب مع الخوارج ، وفي جيش الخوارج بعض الموالي ، فقد اخذ يبعث الموالي الى الحرب ليضرب المولى بالمولى ، وليفيد من ضعف الاثنين معاً ..

كما رأى الحجاج تثبيتاً لسياسته ودعماً لحكمه ان يشغل الناس بالحرب والغزو والقتال ، فاخذ يبعث البعث هنا وهناك ، وقد اقرت هذه السياسة بصراحة تامة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فشغل الناس بالحرب عن الثورات الداخلية والخلافات الحزبية ..

الحجاج وسياسته المالية :

ولقد اشرنا في مكان من هذا الكتاب الى مسألة رفع الجزية عن الذين كانوا يعتنقون الاسلام من الاعاجم ، وكان هؤلاء يعملون في الارض ، فاذا

ضاق بهم الامر وصعبت عليهم سبل العيش ، اعتنقوا الاسلام ، وغادروا الارض التي يعملون فيها الى المدن لينضوا تحت لواء الجيش ، وتقيد اسماؤهم في دفاتر العطاء .. فكان من اثر هذا ان انخفضت موارد الدولة ، وقلت غلال الارض ، فاشتد الحال بالحجاج للنقص الذي ألمّ بميزانيته ، وقرر فرض الجزية على من اسلموا حديثاً ، والزهم بالعودة الى قراهم ليعملوا في الارض ، فلم يقدم اسلامهم كما افاد من سبقهم ، فاستعظموا ذلك وأكبروه ، خصوصاً حين نقش على يد كل واحد منهم اسم القرية التي وجهه اليها ، وامره بالاستقرار فيها .. وكان من اثر هذا ان اشتد الاستياء ، وعمت المظالم . . واستبد اليأس بهؤلاء الموالي ، الذين كانوا يأملون خيراً باسلامهم ، فاذا بالحجاج يعيدهم سيرتهم الاولى قهراً وقسراً ..

وكان من اثر هذا الحقد الذي تولى الحجاج من ثورات الموالي الفرس المختلفة ان قام بتعريب الدواوين الى العربية ، وكانت تكتب قبله بالفارسية ، تماماً كما كانت قبل الفتح الاسلامي ، ليقضي بهذا على اخر صلة للفرس المسلمين بدولتهم القديمة ، كما راح يمسح الاراضي بالعربية ايضاً ، حتى لا تعرض للتلاعب والاستغلال ، وكانت الارض قبلاً تسجل في سجلات قديمة تعود الى العهد الفارسي البائد ، وبلغة غير اللغة العربية ، مما كان من نتيجته استغناء الحجاج عن الكتاب الفرس الذين كانوا يتولون هذه الدواوين والسجلات ، ففقد الموالي والحالة هذه نفوذهم الماضي .

كل هذه العوامل ، دعت الموالي الى مساندة عبدالله بن الجارود في ثورته العربية ، بسبب الزيادة التي زادها عبدالله بن الزبير في العطاء لاهل العراق ، واراد الحجاج رفعها بحجة انها زيادة من رجل منافق وهو لا يميزها . فقام اليه ابن الجارود معترضاً يقول : « ان هذه الزيادة ليست زيارة فاسق منافق ، ولكنها زيادة امير المؤمنين عبد الملك قد اثبتنا لنا . »

فكذبته الحجاج وتوعده ، وايسد الجارود بعض رجالات العراق ، الذين كانت ستلحق بهم الحسارة اذا رفعت هذه الزيادة ، وابعوه على اخراج الحجاج من العراق والكتابة الى عبد الملك ليولي امورهم غيره .

وانضم الموالي طبعاً لثورة ابن الجارود هذه كرهاً بالحجاج وسياسته ، ولكن الحجاج تمكن من تمزيق هذه الثورة والقضاء على رجالها كما قدمنا .

ثم كانت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث ، وقد وصفنا خطرهما في فصل سابق من هذا الكتاب ، واسبابها ، وقد أيد الموالي ابن الاشعث في ثورته هذه كما ايدوا كل ثورة سبقت ، وانضم الى جيشه كل غاضب ناظم على سياسة الحجاج من اهل البصرة والكوفة ، حتى اشراف العراق خرجوا معه وانضموا الى مواليهم لمحاربة الحجاج ، مما يقطع بان النقمة كانت عامرة عليه كما انضم اليه الشيعة والخوارج والقراء والعباد والمسيحيون ، كما يقول (الدينوري) في الاخبار الطوال ، بحيث كانت ثورة عامة شملت كل الطبقات ، وجمعت كل الاوساط ، فلم يجد الحجاج بداً من الاستعانة بجيش من الشام لمحاربة هذه الثورة الجديدة الجارفة ..

ولما وفق الى اخماد الثورة ، عمد الى الموالي يعذبهم ويسيء اليهم ، فازدادت نقتهم ، وعظم عليهم خذلانهم في كل معركة خاضوها ضد الامويين .. حتى اخذ الكثيرون منهم يغادرون العراق هرباً من ظلم الحجاج الى بلاد الله الواسعة الاخرى .. خصوصاً الى الحجاز حيث كان عمر بن عبد العزيز حاكماً ، فأحسن اليهم وآواهم ، ففضب الحجاج وكتب الى الوليد بن عبد الملك الذي خلف والده عبد الملك في الخلافة بعد موته ، يشرح له خطورة هرب الموالي من العراق الى الحجاز وغير الحجاز على موارد الدولة ، فعزل الوليد عمر ابن عبد العزيز وولى مكانه خالد بن عبدالله القسري ، وامره باعادة كل من هرب من الموالي الى العراق .

وما لبث الحجاج بعد ذلك ان قرر اشغال الموالي وغير الموالي من اهمل العراق بشؤون الغزو والفتوح ، فارسلهم في الغزوات التي كلف بها قوداه على حدود الصين والهند ، وهو ما سنبحثه في الكتاب المقبل .

الحجاج والمعارضة :

والواقع ان كل هذه الفتوحات التي وقعت في عهد الوليد بن عبد الملك ، انما كان سببها نجاح الحجاج في القضاء على الخوارج وثوراتهم الداخلية ، فلولا ذلك لظلت الدولة تجمد قواتها لحربهم ، ولا تحرك ساكناً للقيام باي زحف خارجي .

واذا كان الخوارج قد انهكتهم الحروب ، ومزقتهم المعارك ، في عهد عبد الملك ومن اتى بعده من الخلفاء ، فان ثوراتهم في عهد من اتى بعده لم تكن من الخطر بحيث تثير اهتماماً ، فقد أصيب جميع ابطال الخوارج في المعارك المنصرمة وقتلوا ، فلم يبق والحالة هذه في الباقيين همة لقتال او حرب إلا ما كان من بعض الثورات الصغيرة التي لا اهمية ولا قيمة لها كما قدمنا .

واما الحزب الشيعي فقد ظل متناسكاً في عهد عبد الملك بن مروان رغم الصدمات التي تعرض لها . وذلك بفضل سياسة المهادنة التي اتبعوها ، وسياسة (التقية) التي تكلفوها ، والتي كانت تقول ان من حق المرء ان يكتم عقيدته ولا يبوح بها اذا كان في اعلانها الموت والهلاك ..

وهو ما كانت تنادى بنقيضه الخوارج الذين كانوا يجارون مخالفيهم في عقيدتهم ولو كانوا اكثر منهم عدداً او سلاحاً .

واما الشيعة فقد تحولوا الى المقاومة السرية ، والدعاية الخفية لعقيدتهم ضد خصومهم الامويين حين شاهدوا اغراق الامويين في السفك والقتل بكل من يخالفهم ويناهضهم ، فكانوا بذلك اخطر على الدولة الاموية من اية جماعة اخرى ..

وبعض المؤرخين الى هذا يذهبون الى ان ولاية الحجاج على العراق قد اضرّت به وافقرته، وهو ما لا ننكره لان الحروب دائماً تأتي بالتدمير والخراب والفقر ، ولكن العراق بالتأكيد لم تهدأ ثوراته ، لا قبل الحجاج ولا في عهده ، ولهذا فالقول بان الحجاج هو سبب هذه الثورات والفتن ليس من الحكمة في شيء ، وان كنا لا ننكر في الوقت نفسه ان سياسته الشديدة قد اثارت الاحقاد والخصومات ، وادّت في كثير من الاحيان الى بعض الثورات والحروب ..

وكان الحجاج في سياسته شديداً على اهل العراق لعدم ثقته بهم ، وخوفه من عصيانهم ، ويقول الجاحظ في علة عصيان اهل العراق على الامراء وطاعة اهل الشام : «ان اهل العراق اهل نظر وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال ، والتميز بين الرؤساء واطهار عيوب الامراء .. واهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد ، لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيب الاحوال، وما زال العراق موصوفاً اهله بقلة الطاعة والشقاق على اولي الرئاسة» .

ويقول (فان فلوتن) : ان الحجاج كان يرى ان تعود بلاد العراق - مهد المعارضة التي قام بها الموالي - معقلاً للجيش العربي كما كانت في عهد الخلفاء السابقين ، ولذلك اصدر امره الى الموالي الذين كانوا يتطلعون الى مساواتهم مساواة تامة باخوانهم في الدين من العرب للعودة الى ارضهم ودفع الجزية كما كانوا يدفعونها قبلاً .

وقد ذكر لنا (فون كيرير) كيف استطاع الحجاج ان يرغم هؤلاء المتجددين في الاسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار ، ثم تلك المقاومة العنيفة التي قاوموه بها ، بانضمامهم الى صفوف عبدالرحمن بن الاشعث .

وروى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التي كان الغرض منها العودة بنظام الضرائب الى ما كان عليه قبلاً - بعد ان اخذ بالتقصان بسبب

دخول هؤلاء في الاسلام - لان المسلم لم يكن يدفع ضريبة فكانت الضريبة والحالة هذه تؤخذ من غيره وسواه ..

وقد اجمع المؤرخون العرب على ان سياسة الحجاج هذه جعلت العراق في اسوأ حال ، وقد قال اليعقوبي : « وكان الحجاج اول من اخذ بالقذف والظنة وقتل بها الرجال ، وانكسر الخراج في ايامه فلم يجعل كثير امر ، ولم يجمع الحجاج من كل العراق إلا خمسة وعشرين الف درهم ، وكانت خراجه في عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم .. »

وكذلك روى الطبري ان يزيد بن المهلب نظر لما ولاه سليمان بن عبد الملك ما ولاه من امر العراق في امر نفسه فقال :

— ان العراق قد اضرّ بها الحجاج ، وانا اليوم رجاء اهل العراق ، ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه ، صرت مثل الحجاج ادخل على الناس ، واعيد عليهم تلك السجون التي عاقام الله منها .

ولكننا امام هذا لا نستطيع ان ننكر على الحجاج امانته في عمله فلم يسمع عنه انه اختزن المال في عهد ولايته ، وقد مات في عهد الوليد بن عبد الملك ، ولم يترك وراءه غير سلاحه وبعض مئات من العملة الفضية .

وليس في التاريخ شخص وثق به ملك من الملوك او خليفة من الخلفاء كما وثق عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي بالحجاج بن يوسف عامله على العراق وبلاد فارس وخراسان وما وراهما من امصار وبلاد ..

واذا استثنينا بعض الحوادث الصغيرة التي عاتب فيها عبد الملك عامله الحجاج وافضى اليه بغضبه وانكاره ، فان العلاقات بين الرجلين كانت ودية لا تشوبها شائبة ، حتى بلغ من ثقة عبد الملك ان اورثه لولي عهده ، واوصاه بالاحتفاظ به وعدم التفريط في امره ..

والحجاج في الوقت نفسه كان مغرماً في اخلاصه لعبد الملك بن مروان ولاهل

بيته ، فكانت مصلحة عبد الملك فوق كل مصلحة عنده ، وفوق كل اعتبار ،
وعبد الملك كان يعرف ذلك ، ويعلم ان الحجاج قد وطّد له ملكه ، وهزم
اعداءه ، وقتل خصومه ..

خذ مثلاً قصة سعيد بن جبير وهو من الفقهاء اهل التقوى والصلاح ، فقد
خرج مع ابن الاشعث ، وكان الحجاج يأنف ان يعرض له مع تقواه وصلاحه ،
فحدث يوماً ان ارسله خالد عامله على مكة اليه ، بعد ان قبض عليه في بعض
شعاب مكة ، فقال الحجاج : لعن الله خالداً اما كنت اعرف مكانه بل
داره ، والبيت الذي هو فيه بمكة ، ثم اقبل عليه فقال :

يا سعيد الم اشركك في امامتي ، الم افعل ؟ الم استعملك ؟

قال : بلى .

فقال الحجاج : فما اخرجك علي . ؟

قال : اتما انا امرؤ من المسلمين يخطيء مرة ويصيب مرة ..

فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شيء .. فقال سعيد :

– اتما كانت بيعة لابن الاشعث في عنقي ..

فغضب الحجاج ثم قال : افما كانت بيعة امير المؤمنين عبد الملك في عنقك ..

يا حرسى اضرب عنقه ..

ويظهر لنا من هذه القصة ان الحجاج ما كان ليقتل سعيد بن جبير لو لم

يقدم هذا بيعة ابن الاشعث على بيعة عبد الملك ..

الحجاج ومن شبّ باخته :

وفي التاريخ امثلة كثيرة تدل على ان الحجاج كان يعفو حيناً عن خصومه

اذا كان الامر لا يتعلق بعبد الملك وسلطانه ، فمن ذلك ان محمد بن عبد الله بن

غدير الثقفي هرب من وجه الحجاج وكان يشبب بزینب بنت يوسف اخت الحجاج

وهو القائل فيها :

تضوع مسكاً بطن(نعمان) أن مشت به زينب في نسوة عطرات
يخبئن اطراف البنات من التقى ويخرجن شطر الليل معتمرات
فلما اتى به الى الحجاج عفا عنه .

وانظر الى شأنه بعد وفاة شقيقه محمد بن يوسف فقد كتب الى الوليد بن
عبد الملك يقول :

« أخبر امير المؤمنين اكرمه الله ان أصيب لمحمد بن يوسف مائة وخمسين
الف دينار فان يكن اصابتها من حلها فرحمة الله عليه ، وان تكن من خيابة فلا
رحمة الله عليه » .

فكتب اليه الوليد : اما بعد فقد قرأ امير المؤمنين كتابك فيما خلف محمد
ابن يوسف وانما اصاب ذلك المال من تجارة احللناها له فترحم عليه رحمه الله .

* * *

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وقدها عليه ، وقد اكلا :

- هل لك في الشراب ؟

فقال : يا امير المؤمنين ليس بمجرام ما أحلته ، ولكني امنع اهل عملي
واكره ان يخالف قول العبد الصالح .. « وما اريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم
عنه » ، فاعفاه ..

والواقع ان علاقات الحجاج مع عبد الملك كانت اقوى منها مع خليفته من
بعده ، ولعل سبب ذلك هذا الامد الطويل الذي طال به اتصال الرجلين
وتحملها اعباء الملك زمناً طويلاً ..

الحجاج وعائلته :

ولقد بلغ من حظ الحجاج وعظيم شأنه انه استطاع تزويج انسابه من

شباب ونساء ، باشراف القوم في عهده والامراء في زمنه ، كما استطاع في الوقت نفسه ان يوليهم مختلف المراكز العالية والمناصب الرفيعة .

فشقيقة محمد بن يوسف كان والي اليمن وكان شديداً مثله مغرقاً في القسوة والبطش .. وقد بلغ من شأنه وخطره ان زاد الخراج في عهده ، فجمع من ذلك مالا كثيراً، ويحدثنا المؤرخون ان الحجاج وجد عنده بعد موته ما لا يقل عن مائة وخمسين الف دينار كتب بامرها الى الوليد كتاباً اشمرنا اليه سابقاً ، فاجابه الوليد : انه يعلم ذلك ، وانه اتما جمع ماله هذا من تجارته ، فليتركه والحالة هذه لاهله ولا يعرض له ...

ومن المؤكد لدينا ان الوليد سكت عن المال اكراماً للحجاج وخدماته ، واکراماً للميت واخلاصه ، ولو اتبع الوليد الحق والعدل لحجز مال (المرحوم) وصرفه الى بيت المال ، فليس يحق لعامل من العمال يأخذ راتباً من الخزانة العامة ان ينصرف لتجارة غير تجارة الوظيفة التي كلف القيام بامرها ، والعمل لخدمتها ...

والقصة نفسها الى ذلك تدلنا على مبلغ اخلاص الحجاج في عمله الاداري وتعففه ، وهو ما يؤيده التاريخ كل التأيد .

وكان لمحمد بن يوسف والي اليمن هذا ثلاثة ابناء وقتاة ، زوجها الحجاج ليزيد بن عبد الملك ، الذي اصبح خليفة سنة ١٠١ للهجرة ...

فانظر الى الحجاج يفشو امره ، ويخطر شأنه حتى يوفق الى تزويج بنات اخيه بالخلفاء انفسهم ...

وكذلك نرى ان الحجاج زوج ابنته الوحيدة بمروان ابن الوليد بن عبد الملك .

وكذلك نرى كيف راح الحجاج يسمي ابناءه الاربعة باسماء محبيه من بني امية ، فاسمى ابنه الاول محمد ، والثاني ايان ، والثالث عبد الملك ، والرابع

الوليد ...

كما نرى ان عبد الملك نفسه ايضاً اسمى احد ابناؤه (محمد) ، واسمى ابناً اخر الحجاج ، كأنما كان يحاول من ذلك التقرب من عامله ، والتلطف في بره وارضائه ...

وقد ارضى ذلك الحجاج واقرب عينه حتى بلغ من امره ان اهدى الحجاج بن عبد الملك منزلاً في دمشق ...

وبحدثنا المؤرخون ان الحجاج تزوج غير امرأة واحدة ، طلق بعضهم واحتفظ بالبعض الآخر ، ولكنه في الغالب لم يكن موفقاً مع زوجاته ، فقد كان كثير القلق مضطرب الخاطر ، شديد التشاؤم ابداً ، ومثل هذه الحالة لا تساعد على الراحة الزوجية المنشودة ، فقد تزوج الحجاج ام كلثوم بنت عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ، ثم طلقها بامر من عبد الملك ، وكذلك طلق بنت عبدالله بن اسيد ، ويذكر لنا صاحب العقد الفريد بين زوجاته (الفارية) ، وقبل ان يعين الحجاج لولاية العراق تزوج ابنتي النعمان بن بشير ، ثم طلقها ايضاً ، ولكن اشهر زوجات الحجاج ، هند بنت المهلب ، وهند بنت اساء بن خارجة ، ثم طلقها ايضاً وفاقاً لما يرويه الكامل في المبرد لتمام استشعر فيه شراً ، ثم ظهر تفسير هذا المنام بموت ابنه واخيه في وقت واحد .

في ايام الحجاج :

وكان الناس في ايام الحجاج اذا تلاقوا في المجالس والمجامع والمساجد والاسواق ، تساءلوا من قُتل البارحة ومن صُلب ، ومن جُلد ، ومن قُطع ، وانتهى بالحجاج الامعان في الظلم الى ان يأمر الناس بجلق لحامهم ، ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في الحائط ، فيموت جوعاً والمأ ، وهو لا يستطيع سبيلاً الى الحراك ...

وكان قوي البنية، متجسماً الى السمنة ، ولا يزال العرق متصبباً على جبينه
وصدغيه من تحت قلنسوة قد احاطها بعمامة خضراء ، وكانت له مهابة تقصم
ظهر الوافد عليه ، حتى لم ير من الناس من انبسط معه في الكلام او تجرأ
ان يرفع اليه بصره إلا الاقل منهم .

وكان شديد التهويل في خطبه ، واذا صعد المنبر تلتفح بمطرفه ثم تكلم
رويداً فلا يكاد يسمع ، حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم
يزجر الزجرة فيقرع بها اقصى من في المسجد .
وكان يجيد لذة في سفك الدماء وارثكاب مختلف الوان العسف والقمع .

وقال الذهبي : « انه كان شجاعاً مهيباً جباراً عنيداً ، ومخازيه كثيرة ،
إلا انه كان عالماً فصيحاً مفوهاً مجوداً للقرآن .

وكان الحجاج نهماً مبذراً مسرفاً ، خصوصاً في الحفلات والمآدب ، وكان
كثير الخير في هذه الناحية ، حتى ذهب عبد الملك الى انتقاده والتشديد
عليه ، وكان ينصب للناس الف خوان في رمضان ، وخمسمائة في غيره من
الشهور .

شدة الحجاج وعبوسه :

وذكر المدائني ان الحجاج لم يكن يظهر لندمائه منه بشاشة ولا سباحة في
الخلق إلا يوم دخلت عليه ليلى الاخيلية فقال لها :

— بلغني انك مررت بقبر توبة بن الحمير ، وعدلت عنه فوالله ما وفيت له
ولو كان هو بمكانك وانت بمكانه ما عدل عنك .

قالت : اصلح الله الامير لي عذر .

قال : وما هو ؟

قالت : سمعته وهو يقول :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت عليّ وفوقى جندل وصفائح
السلمت تسلم البشاشة او زقا اليها صدى من جانب القبر صائح

« وكان معي نسوة قد سمعن قوله فكرهت ان اكذبه » فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها ، وانبسط في محادثتها ، فلم ير منه بشاشة واريحه مثل ذلك اليوم .

. . .

ومرض الحجاج يوماً - وذلك قبل مرضه الذي توفي فيه - فارجف اهل الكوفة ، فلما تماثل من علته صعد المنبر ، وهو يتثنى على اعواده فقال :
« ان اهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم ، فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج ، والله ما ارجو الخير كله الا بعد الموت ، وما رضى الله الخلود لاحد من خلقه في الدنيا إلا لاهونهم عليه ابليس . »

قتل الحجاج وسجنه :

ولقد احصي من قتل الحجاج صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين الفا ، ومات في حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة ، منهن ستة عشر الفا مجردة ، وكان يجبس الرجال والنساء في موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ، ولا من المطر في الشتاء ، وكان له غير ذلك من العذاب .

وذكر انه ركب يوماً يريد الجمعة فسمع ضجة فقال : ما هذا ؟

فقيل له : المحبوسون يضحون ويشكون ما هم فيه من البلاء ..

فالتفت الى ناحيتهم وقال : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ..

فيقال انه مات بعد تلك الركبة .

وما ذكرناه من عدد المسجونين في سجن الحجاج يكاد يجمع عليه اكثر

المؤرخين ، وان كان بعضهم يذهب الى زيادة العدد ، ويقول اخرون انه هلك في سجن الحجاج ما لا يقل عن خمسين الفا من الرجال والنساء ..

ولما اشتد الحال باهل العراق اخذوا يهاجرون الى الحجاز ، وكان على الحجاج الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ، فكان هذا لا يعرض لهم بخير ولا شر فاعضب ذلك الحجاج ، وكتب الى الوليد يقول له : ان عامله على مكة لا يرى كبير امر في الاحسان الى المراضين والثوار الذين يهربون من وجهه ، ولما كان الوليد مثله شدة ونقمة فقد عزل عمر بن عبد العزيز عن مكة . وولى عليها خالد بن عبدالله القسري الذي كان شديداً جباراً ..

التعليم الحر في الدولة الاموية

وقصة المرأة العربية في عهدها الاول

التعليم الحر :

لقد عرضنا لعهد عبد الملك بن مروان في مختلف الوانه وأشكاله فذكرنا حروبه ومكايده ، وبسطنا القول في حكامه وقواده ، ونشرنا طرفاً من ادارته وسياسته ، وشيئاً من اخباره في مره وعلانيته ، ونعرض الان لناحيتين من النواحي التي برزت وظهرت في هذا العهد ، واولهما التعليم الحر الذي كان يسير سبيله دون ما وازع ولا مؤيد من الدولة ، وثانيها شأن المرأة في هذه الفترة من الزمن التي تقطعت بين الجاهلية واستقرار الاسلام ..

والثابت ان العلم كان حراً لا تشرف عليه الدولة في العهد الاموي ، فلم تكن للمعارف صفة حكومية .. كديوان الجيش او ديوان الخراج ، او القضاء وغير ذلك ، فكان تأسيس المدارس ونشر العلم شيئاً يقوم به الافراد ، لا تدخل الدولة في شأنه ، ولا تحاول فرض سلطانها عليه .

ولقد يذهب بعضهم الى انه كانت هناك مدارس في المدن العربية المتحضرة عهد الجاهلية .. ويشيرون الى وجود الاثار التي تدل على ذلك .. وقد لا يخافوا هذا من مبالغة ، لكن النقوش التي وجدها الباحثون ، تدل على وجود الكتابة كما تدل آلات الزراعة والعمارة على وجود علم وحساب ، وكما يدل الشعر الذي وصلنا ، على نفوس عالية وعقول مرهفة ، وكما تدل أخبار الحروب والايام ، على بطولة وشدة .. فالحياة في الجاهلية - حياة الحضر وحياة البدو - كانت تخضع لبعض نُظُم في التربية والتعليم ، تساعد على إعداد الرجال والنساء للحياة ، وهذا كله من مطالب التربية . اما التعليم فلا يستطيع أن أُؤكد وجود المدارس ، ولكنني أستطيع القول بوجود من يُعلّم ومن يتعلم ، وكان ذلك بالطبع مقصوراً على امور أولية ، أساسها القراءة والكتابة وشيء من الحساب ، وأخبار الماضين ، ورواية الشعر ، والقصص .. والظاهر ان ذلك كان يتم بطريقة بسيطة اولية ..

وقد جاءنا في اخبار الجاهلية شيء عن أهل الكتاب ، وعلمهم كمعلمين لبعض العرب ، ولكنهم كانوا عادة يسكنون المدن ، وتأثيرهم في هذه الناحية يكاد يكون محصوراً في الحضر لا في البدو، كما جاءنا أيضاً خبر الخنفاء ، الذين ظهروا قبل الاسلام ، فبعضهم كان يعرف القراءة والكتابة . ومثل هذا يقال في بعض التجار والزعماء ، الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، وهذا يفسر وجود بعض الكتاب عند ظهور الاسلام ، ومنهم عمر وعلي ومعاوية وغيرهم .

وليس يعتبر هذا ، دليلاً على وجود المدارس، وانتشار المعلمين في الجاهلية ، فوجود المدارس أمر يحتاج الى برهان وفشتؤ الأمية في البادية ، امر يكاد ينعقد الاجماع عليه . أما وجود بعض القادرين على القراءة والكتابة بين الحضر وبين بعض البدو ، فأمر لا يمكن تكرانه . هذا مع العلم بان التربية الجاهلية ، كانت قوية في نواحيها المختلفة . فالعربي في الجاهلية كان قوياً في

ذهنه ، قوياً في روحه ، قوياً في بدنه ، مع افراط سببه حياة البداوة ودواعيها. فلما جاء الاسلام وضع حدوداً لهذا كله ، وبدأ عهداً جديداً في حياة العرب ، فيه تربية يعاونها تعليم ، وفيه تعليم اساسه تربية ...

فشو الامية :

وفي المصادر التاريخية التي بين ايدينا، انه كان في العرب بضعة نفر ، يعرفون القراءة والكتابة . ويُفهم من صيغة هذا الخبر ، ومن القرائن الاخرى ، ان ذلك كان يُعدُّ من المؤهلات النادرة . وتذكر هذه المصادر ايضاً ، ان رسول الله جعل بدل فداء الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى قريش ، تعليم عدد من المسلمين الأولين ، القراءة والكتابة ، وتدل هذه الرواية التاريخية ، على أمرين ، أولهما : 'فشو' الأمية بين المسلمين الأولين ، وعدم وجود من يعلمهم ..

وثانيهما : اهتمام النبي ، بالقراءة والكتابة . ورغبته الملحة في نشر العلم والتعليم ..

وكان مبدأ طلب العلم قراءة القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه ، وكان هذا بدء نشر العلم والتعليم في تاريخ العرب ، فقد انبثق عن حفظ القرآن جماعة القراء الذين كانوا يحفظون القرآن .. والذين يعتبرون اول المعلمين في تاريخ الاسلام ، لأنهم كانوا يعلمون الناس قراءة القرآن ، وحفظه وفي المصادر التي بين ايدينا ما يدل على ان الخلفاء الراشدين كانوا يرسلون هؤلاء القراء الى الامصار المفتوحة لتعليم الناس القرآن ، وحفظه ، وأقدم نص وجدناه في ذلك ما فعله عمر بن الخطاب في السنة السابعة عشرة للهجرة .

وعلى هذا فتدوين القرآن الكريم ، يُعدُّ من أهم الاعمال الدينية والعلمية ، في تاريخ الاسلام ، لأن استشهاد كثير من القراء في الحروب ، أدى الى

الاختلاف في الرواية ، فكُتِب القرآن الكريم ، زمن عثمان بن عفان وأُرسِلت منه النسخ الى الامصار لمنع الاختلاف وكان هذا اول مبدأ حركة طلب العلم ، والاهتمام بالكتابة .

وكما كان القراء أول المعلمين ، كانت المساجد اول المدارس ، في تاريخ الاسلام ، فكان القراء يتلون القرآن ، على الراغبين في العلم ، في المكان المخصص للصلاة ، ويُعلمون القراءة والكتابة لمن شاء ، في اي مكان آخر . أي إنه ربما يصح اطلاق اسم المدرسة ، على كل بيت او مكان يجتمع فيه الذي يتعلم ، والذي يتعلم لغرض الدرس والتحصيل . واما تعلم القرآن ، او تعليم القراءة والكتابة او غير ذلك ، من الحساب او الشعر او القصص ، فكان يتم دون نظام معروف . والظاهر ان التعليم ، كان مجسماً لوجه الله ، في اوائل صدر الاسلام ، ولا نجد رواية عن الاجور والتكسب ، الا في الادوار التي جاءت بعد ذلك .

فالتعليم في زمن الرسول ، والخلفاء الراشدين ، كان اذاً يتناول ناحيتين ، الاولى : حفظ القرآن الكريم وتلاوته وفهم معانيه ، والثانية : القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والشعر والقصص ، أما التربية فكانت خاضعة لتعاليم الاسلام من جهة ، ولعادات العرب من جهة اخرى . وأساسها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمرؤة ، وضبط النفس ، والكرم ، والعفو عند المقدرة ، وكان يمسور المسلم العربي ان يتعلم القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، في الجامع او في البيت ، ولكن تربيته كانت تعتمد على القدوة والمحاكاة ... القدوة برسول الله ، ومحاكاة خلفائه واصحابه ، واذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائج ، جاز القول ، إن المبادئ البسيطة ، التي سادت عصر الخلفاء الراشدين في هذا الباب ، نشأ عنها خير النتائج ، فانها لم تنتج العلماء الكبار فحسب ... وانما انتجت الرجال الكبار ايضاً ..

ونرى في الانتقال الى العهد الاموي ، شيئاً من التقدم في ناحية التعليم ،

ولكننا نلاحظ شيئاً من الاضطراب في التربية ، وتذكر المصادر ، ان خلفاء بني امية كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً ، بتربية ابنائهم وتعليمهم . فمثلاً كانوا يرسون الصبي الى البادية ليتعلم النطق بالعربية الصحيحة ، ولتعود حياة الشدة والقوة ، وكانوا يعينون (المؤدب) ، ليقوم على تعليم الصبي ، القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، والحساب والقصص والشعر . ويجد الباحث في كتب الادب والتاريخ كلمة (كُتّاب) ، ويرجع بها مؤلفو هذه الكتب ، الى اوائل القرن الثامن للميلاد ، اي المدة الاخيرة لبني أمية . ويذكرون كذلك ، ما يدل على ظهور المعلم المحترف ، والمعلم المكتسب . ونجد ما يدل على ان ابناء الخاصة ، كانوا ينالون قسطاً لا بأس به من التعليم ، مع شيء من التهذيب والتربية ، يتناول النواحي الثلاث في الحياة - الناحية الروحية والعقلية والبدنية - ونجد أيضاً ، ما يدل على ان الناس إجمالاً ، كانوا يعنون بتعليم ابنائهم ، وتهذيبهم ، وتربيتهم ، عناية كافية . فوجود (الكُتّاب) و (المؤدب) ، وذكر الاجرة ، يدل على امرين الاول: رغبة الناس في التعلم ، واستعدادهم لدفع المال في هذا السبيل ، والثاني: ظهور الرغبة في طلب العلم الدنيوي ، لما يعود عليهم من المكاسب الدنيوية بسببه . وفي هذا ما يدل على اتساع نطاق التعليم ، في عهد بني امية ، عما كان عليه في زمن الرسول والخلفاء . وذلك طبيعي ... لان حياة العرب في خارج الجزيرة ، كانت حياة مدنية تتطلب القراءة والكتابة ... ولان بني امية ناصرُوا السيادة العربية دون السيادة الاسلامية ، فكان لا بد لهم من الاتجاه الى الدنيا ، اكثر منهم الى الدين .

التعليم في العهد العربي :

ومن مظاهر التقدم في التعليم ، وضع قواعد الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وظهور طبقة من الناس ، اتخذت تعليم الصبيان

عملاً لها .. وكان من نتائج إشار بنى أمية للعنصرية العربية ، ما نشأ عن ذلك من فرق سياسية ودينية ، مختلفة في مثلها وغاياتها ، وما دخل على العرب من آراء ، جاءتهم عن طريق الروم والعجم ...

والواقع ان نشوء الخط العربي ، أمر غامض في التاريخ ، ولكن الشائع عند كتابهم ، ان الخط الذي عرف في الحجاز ، قبل ظهور الاسلام ، منقول عن اهل الحيرة والانبار ، ويرجع بأصله الى الخط المسند ، ومن هذا الخط الحجازي ، نشأ الخط الكوفي بعد الاسلام ، وهو يمتاز عن الحجازي ، بتجويد شكله وهندسة حروفه . ومن هنا كان الخط الحجازي يستعمل في الكتابة العادية ، والكوفي في الكتابة الزخرفية . واشهر الذين كتبوا في صدر الاسلام اربعة ، هم : زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وهم الذين كتبوا المصاحف لعثمان ، وكانت الكتابة بلا تنقيط ولا شكل ، الى ان وضع ابو الاسود الدؤلي ، العلامات للشكل ، والى ان وضعت بأمر الحجاج نقط الإعجام .. والشائع ان ذلك تم في خلافة عبد الملك بن مروان . ولا عجب ان يكون للحجاج يد في ذلك ، فقد اشتغل بتعليم الصبيان ، ورأى صعوبة عدم التنقيط ، للعلم والمتعلم على السواء ، كما لا عجب ان يكون لابي الاسود الدؤلي ، يد في وضع الشكل ، لما لهذا من علاقة بالنحو وهو من اصحابه واعلامه ..

وجاء بعد تحسين الكتابة او الخط ، ضبط الكلام العربي ، بوضع القواعد له . والمعروف ان ابا الاسود الدؤلي بدأ ذلك ، ويقال انه تعلمه من علي بن ابي طالب ، وكان ذلك بالبصرة ، ثم ظهر مثله في الكوفة . وحركة درس قواعد اللغة هذه ، هي اصل المذهبين المشهورين في النحو ، مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين .

والثابت ان ضبط الخط العربي ، ووضع القواعد للغة العربية يعد من اهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في تاريخ الاسلام . فهذا سهل مهمة المعلم والمتعلم ،

ونشط حركة التدوين واعان على النقل والتأليف . ولا يخفي ان وجود الكتابة ، هو اساس كل نظام للتعليم ، بخلاف التربية التي لا ضرورة لازمة للكتابة فيها ..

اما اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، فهو ايضاً من اهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في هذا الدور .. ولقد جاء العرب الى الشام والعراق ومصر ، فأبقوا الناس على ما هم عليه . وبلغ بهم التسامح ، ان جعلوا سجلات دولتهم ، بأيدي كتاب من الروم والكلدان والقبط ، يكتبونها بلغة البلد ، وبحسب ما تعودوه في زمن سادتهم السابقين . واستمر العرب على هذه السياسة ، الى زمن عبد الملك ابن مروان ، فأمر ان تكون لغة دواوين الدولة ، باللغة العربية دون سواها . وكان لهذا التغيير سببين الاول : تنفيذ سياسة بني امية العربية باعلاء امر العرب ورفع شأن لغتهم ... والثاني: اتساع نطاق الدولة ، واتخاذها صورة مدنية ، لا غني فيها عن الكتابة بلغة الملك .

اما المظهر الثالث من مظاهر التقدم ، فهو وجود طبقة من معلمي الصبيان . وقد ذهب بعض الباحثين ، الى ان معظم المعلمين في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي . ويقولون ان سبب ذلك ، انشغال العرب بالحرب ونشر الاسلام ، واحتقارهم المهر والحرف ، ولكن اطلاق هذا الرأي او الحكم ليس من التاريخ في شيء ...

فليس من شك ان عدداً من الذين اشتغلوا بتعليم الصبيان في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي غير العرب ، وبعضهم كانوا من النصارى او اليهود العرب . ولكن عمل هؤلاء ، كان يقتصر على الناحية المدنية ، اي تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وقليل من الشعر والاعخبار . اما التربية والثقيف والتهذيب ، فكانت كلها موكولة الى القراء - قراء القرآن الكريم .. وهذه هي الناحية الدينية للتربية والتعليم في هذا العهد . وهذا التمييز بين الطبقتين من المشتغلين بالتعليم والتهذيب ، يفسر التضارب بين آراء المؤلفين الكبار في

المعلم . فالنوادير التي يذكرها الجاحظ عن المعلمين ، لا يمكن ان تكون موجهة
لناس كانوا يعلمون القرآن الكريم . واقرب الى الصواب والمنطق ، ان نقول ،
ان الناس كانوا يتجرأون بمثل ذلك على المعلمين من الموالي .
وتذكر كتب الادب والتاريخ ، اسماء رجال كبار ، اشتغلوا
بتعليم الصبيان ، منهم حاكم العراق الحجاج بن يوسف ، والكاتب الشهير عبد
الحميد الكاتب ، والراوية القاريء ابو عمرو بن العلاء ، فهذه الطبقة من المعلمين ،
هي التي يصفها ابن خلدون في كلامه عن المعلمين بقوله عن اهل الانساب والعصبية :
« انهم لا ينطبق عليهم ، ما كان الناس يتناقفونه عن حتم المعلم وقلة عقله ، ويدل
على ذلك ، ان الحجاج ، وهو قائد كبير ، قد عير بانه كان يوماً معلماً ، اي
من هذه الطبقة الموصوفة بتلك الصفات .. »

اما مظاهر الاضطراب في التربية في هذا الدور ، فاولها ما نشأ عن سياسة
الدولة .. فقد كانت وسائل التربية والتعليم في الجاهلية ، تنحصر في الشعر ،
والاخبار ، والعرف البدوي في السلوك ، والحروب ، والايام . وتكاد تكون
وسائل التربية والتعليم ، في زمن الرسول والخلفاء الراشدين ، تنحصر ايضاً في
القران الكريم ، والقدوة بالرسول والصحابة ، والشعر والاخبار . اما في عهد
بني امية ، فتكاد تكون محصورة في اخبار الجاهلية واشعارها ، والعرف العربي
في السلوك ، والقران الكريم .. اي ان بني امية ، رجعوا بالتربية الى الجاهلية
في كثير من مثلها ووسائلها ...

وكان من نتائج السياسة التي سار عليها بنو امية ، ان نشأت احزاب اخرى ،
دينية وسياسية ، تسعى لتثبيت 'مثل الاسلام' ، واذكر من هذه الاحزاب
القراء ، والزهاد ، والخواارج .

واستمر كثير من الصحابة والتابعين ، حفظة القران الكريم والحديث
الشريف ، يعلمون الناس ويهدبونهم . وظهرت طبقة من الزهاد ، همهم الابتعاد

عن الدنيا ، ودرس القران ، وتأويل معناه ونشره . وقامت فرقة الحوارج ،
ولها مباديء دينية وسياسية ، تنشرها بالتعليم تارة ، وبالسيف تارة اخرى .
فكثرت الاحزاب والفرق ، وزادت في اضطراب طرق التربية والتعليم ومثلها
في زمن بني امية .

وكانت غايات التربية والتعليم اولاً لا تتعدى المقدرة على القراءة والكتابة ،
ومعرفة الشعر وال اخبار .. ويروى عن عبد الملك بن مروان انه كان يتردد في
تولية ابنه (الوليد) بعده ، لانه كان كثير اللحن ضعيفاً في النحو .

وثانياً : ركوب الخيل ، والرماية ، والسباحة ، ولهذا كانوا يرسلون ابناء
الخلفاء الى الصحراء ، ليتعودوا حياة القوة والشدة ، والنطق باللسان العربي
الصحيح ، كما فعل معاوية بابنه يزيد وكما فعل غيره بعده .

وثالثاً : معرفة الحلال والحرام ، حسب العرف الجاهلي والعرف الاسلامي .

وقد تمّ في زمن بني امية امران مهمان من حيث البحث في التربية والتعليم ،
وهما ادخال الشكل والتنقيط في الكتابة ، وجعل اللغة العربية دون غيرها
لغة الدولة ، وقد ساعد هذا حركة التدوين والنقل والتأليف ، التي اينعت في
زمن بني العباس ، ولكنه لا يصح ان نعزو ظهورها كلها الى الدور العباسي .
لان المشهور ان شيئاً من التدوين قد تمّ في زمن بني امية ، وان الناس كانوا
يبحثون في اخبار العرب ، وان ابن (شرية) كان هم ان يلبس قصص الجاهلية ،
حلة جديدة ، يرويها في المجالس ، وان طبقة من المسلمين ، كان لا يلتقي الواحد
منهم بالآخر ، دون ان يسأله رواية حديث عن رسول الله ﷺ . فالنشاط
الذي يلاحظه الباحث ، في اول عهد بني العباس ، له مقدمات بدأت في عهد
بني امية ..

ومن نتائج اصلاح الخط العربي واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، ان بدأ
النشاط في درس القرآن الكريم والحديث واللسان العربي وذلك في ايام عبد

الملك بن مروان وعامله الحجاج على العراق ، فقد اشتهر جامع البصرة بدروسه ومحاضرات علمائه، ففيه كانت تقام حلقات البحث والمناظرة والدرس، الى هذه الحلقات تعود كثير من الفرق الدينية في اصولها . . فمجالس الحسن البصري فيه مشهورة ، وكذلك كان الشأن في جامع الكوفة ، وقد بدأت الحركة الادبية والعلمية في هذين البلدين قبل غيرها من البلاد الاسلامية الاخرى، ومن غريب امرها انها كما شاركتا في الثورات السياسية والمنازعات الحزبية ، شاركتا ايضاً في النهضة العلمية ، ونشر المعرفة . .

المرأة العربية في هذا العهد :

ولقد نعمت المرأة في الاسلام بقسط وافر من الحرية، وفي عهد الراشدين اختلط النساء بالرجال ، وكن يسمعن خطب الخلفاء والمحاضرات الدينية التي كان يلقيها الامام علي بن ابي طالب وعبدالله بن عباس في المسجد ، وكان العرب قبل الاسلام يتزوجون باكثر من واحدة ، فلما جاء الاسلام نظم الزواج ، ورفع من شأن المرأة ، وحرّم الوأد ، وجعل للمرأة حظاً مقررأ في الارث ، واباح الزواج باكثر من واحدة الى اربع . . شرط ان يعدل الزوج بينهن، ولا يفضل واحدة من زوجاته على الاخرى .

ولقد اباح الاسلام الزواج باكثر من واحدة لقلة عدد الرجال واشتراكهم في الحروب والغزوات المختلفة ، وحتى لا تترك الارامل والبنات اللاتي لم يتزوجن عالة على المجتمع ، فتفسد الاخلاق ويقل النسل . .

ولا ادلّ على ذلك من ان بيت رسول الله كان يأوي اليه اكثر من عشر من النساء ، تزوج رسول الله اكثرهن بعد مقتل ازواجهن في الحرب ، او لغايات سياسية عالية من تألف قلوب آباءهن الى الاسلام ، ونضرب الامثال على ذلك انه لما هرب بعض المسلمين الى الحبشة فراراً من اذى اهل مكة ، توفي احد المسلمين فيها ، فكتب رسول الله الى النجاشي ليكتب عقد زواجه على

الارملة زوجة المسلم المتوفي حتى لا تبقى عالة على المجتمع ، حفظاً منه لمقامها ،
وتعزيزاً لمزلتها ، واكثر المؤرخين يشكون كثيراً في كون رسول الله
قد عاش مع كل ازواجه عيشة الزوج ، بل ان بعض المستشرقين يعتقدون ان
زواج محمد من خديجة كان زواجاً سياسياً واجتماعياً وزواج رحمة وحنان ، لا
زواج شهوة وشغف .

وعمل الاسلام على الغاء الرق - عن النساء ايضاً - فيجعل مصدره الوحيد
اسرى الحرب المشروعة التي يعلنها المسلمون على غيرهم ، وكان الرق الى ذلك
يختلف من حيث معاملة الرقيق والرأفة به في الاسلام عن غيره عند الامم
الاخري ..

وحرّم رسول الله النخاسة حتى لا يحرم الاباء من ابنائهم ، وأمر ان يطعم
الارقاء رجالا ونساء ويكسون بما يأكله ويكتسي به اسياهم، وواحي بحسن
معاملتهم ، كما سمح لهم ان يفتدوا انفسهم ، وشجّع العتق واعتبره من أكرم
الفضائل والاعمال التي يتقرب بها المرء الى ربه فكان الارقاء في الاسلام كافراد
الاسرة الواحدة .

وانجحت قوى المرأة في صدر الاسلام الى العمل كالرجل في سبيل العلم
والحرب ونشر الدين ، فزاوول النساء صناعة الادب والشعر ، كما زاوولوا صناعة
الحرب والقتال ، ومنهن عائشة زوج رسول الله ، فقد كانت ذات عقل راجح،
ودهاء وقوة ، حتى رأست حزباً سياسياً كبيراً ، وحاربت علياً ، ورويت
احاديث كثيرة عنها .. وقصدها طلاب العلم من مختلف الاقطار ليفيدوا من
معارفها وعلمها .

وهناك عائشة بنت طلحة بن عبيدالله احد الصحابة ، كانت مفرطة الجمال
تقيم في المدينة ، ولها عقل ورأي وعلم واسع باخبار العرب وايامها وفي مطالع
الكواكب واحوالها ، وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها

وكبر نفسها ، وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها ، وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ، ويدخل عليها الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، واحد لماشطتها ، وآخر لحازنتها ، وآخر لكل من كبار اتباعها ، اما موكبها الخاص فكان مؤلفاً من (٣٠٠) راحلة عليها القباب والهوادج .

وكان قد تزوجها مصعب بن الزبير الذي مات قتيلاً في المعركة التي جرت بينه وبين عبد الملك بن مروان .

وكانت سكيئة بنت الحسين بن علي معاصرة عائشة بنت طلحة في المدينة ، سيدة كريمة .. فاضلة عالمة تجالس الاجلّة من قريش ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذناً عاماً ، حتى تنصّ الدار بهم ، فتأمر لهم بالطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الاسئلة في الشعر والادب ، وتنتقد اقوالهم وتجيزهم ، وتفضل البعض منهم على البعض الآخر ، فكان قصرها والحالة هذه ندوة ادبية كهذه النوادي الادبية المعاصرة التي اشتهرت في اوروبا في القرن التاسع عشر ..

وحديث اسماء بنت ابي بكر ام عبدالله بن الزبير لما حاصره الحجاج في مكة ، وقطع الامل من الرجاء ، وجاء اليها يسألها رأيها ، فامرته بان يقاتل حتى الموت شريفاً كما عاش شريفاً . يصور المرأة العربية في هذا العصر أجمل تصوير واجله ..

المرأة في العصر الاموي :

فلما كان عصر بني امية ، وزاد الترف ، وتعلق بالاخلاق شيء من الفساد فاخذ الشعراء يشيرون بالنساء ، ويكثرون من التغزل بهن ، ويرتصدونهن في مكة يوم الموسم حتى قال احد الشعراء :

ياحبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحننا عند استلام الحجر الاسود
فلما سمع عامل مكة هذا الشعر ، وكان خالد القسري ، أمر بالتفريق بين
الرجال والنساء وكانوا قبلاً لا يفرقون بينها أبداً .

واخذ الشعراء في الوقت نفسه ينظرون الى المرأة نظرة خاصة ..
كانت المرأة تشارك الرجل قبلاً في طلب العلم والحرب ، وقاد بعضهم الجيوش
في ايام الخوارج ، فلما كان عهد امية ، اخذ الشعراء بعد الانغماس في الترف
ينظرون الى النساء نظرة فيها الكثير من الانوثة ، واخذو يعتبرون الاساءة
ليها وحرهبها جنابة عظيمة منكرة ، وقال شاعرهم يعبر عن افكارهم هذه :
'كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول

وفي الوقت الذي لم يكن الغرب يعرف شيئاً عن الشعر النسائي الغرامي ،
وصل هذا الفن في الحجاز خاصة الى اقصى درجاته في ايام عمر بن ابي ربيعة
وكثير وجميل وغيرهم من الشعراء ..

الحياة في مكة والمدينة :

وهنا لا بد من الاشارة الى الحياة الخاصة المرفهة التي يجيهاها اهل المدينة
ومكة لانها تصور الاسباب التي ساعدت على بروز هذا الشعر النسائي الرائع
في المراكز المقدسة في الاسلام دون غيرها من البلاد والامصار ..

فقد وجهت الحياة الهادئة البعيدة عن السياسة التي كان يجيهاها سكان المدينة
بعد تقلص النفوذ السياسي عن بلدتهم ، وانتقال العاصمة الى دمشق .. اهل المدينة
الى درس الحديث والقرآن ، فاصبحت المدينة مع الايام مركز الدراسات في
الحديث خصوصاً في عهد انس بن مالك (٧٠٩-٧١١ مات) وعبدالله بن عمر بن
الخطاب المتوفي سنة ٦٩٣ م . أما مكة فاشتهرت بابن عباس المتوفي سنة ٦٨٨ ،

وغيره من العلماء والاعلام ..

وبما لاشك فيه أن كثيراً من الناس الذين ذهبوا الى المدينة ومكة ليعيشوا فيها كانوا يفضلون اعتزال الحياة المضطربة القلقة ، والحربيات الشديدة ، التي كانت تمجّ في العراق ودمشق وغيرها من امصار الامبراطورية العربية ، كما انقطع اليها من سكانها من قطع امله من النجاح السياسي ، فاخذ نفسه الى حياة الدعة والرفاهية ، وساعده على ذلك المال الذي جمعه من الفتوح العظيمة ، والعطاء المقرر الذي كان يتناوله من بيت المال ، لكونه من اولاد المهاجرين او الانصار ، كما يجب ان لا تنسى ان خلفاء بني امية كانوا في الوقت نفسه لا يتأخرون عن اضعاف العطاء لبعض ابناء المهاجرين والانصار صرفاً لهم عن السياسة والتفكير في السياسة .

وبانقطاع الناس عن التفكير السياسي ، وتكاثر المال بين ايديهم وازدياد العبيد والخدم والجواري عندهم ، قامت القصور الجميلة ، والبساتين النضرة حول الكعبة والمدينة ، واخذ الناس في ألوان من التسلية لتمضية الوقت كان اولها ظهور الغناء والموسيقى ، وقول الشعر والتشبيب بالنساء اللاتي كن يردن مكة وقت الحج ، اذ اصبح الحج الى مكة يخلق في الحجاز جواً يمائل الجو الذي كان يخلقه سوق عكاظ في الجاهلية ، من حيث صدور الناس اليه وازدياد التجارة والاخذ والعطاء فيه ، وانشاد الشعراء لشعرهم ما كان الى هذا من سبيل ..

وقد تبع كل هذا ظهور المغنيات (القيان) ، بعد ظهور المغنين ، وباستفحال الغناء والطرب والموسيقى في الحجاز ، اخذ يقصد الحجاز كل انسان فيه هوى الى الغناء والموسيقى ، كما استقر في الحجاز في الواقع اكبر الموسيقيين وأعظم المغنين .

شرف المرأة العربية :

ومع تكاثر النساء ، وتعدد وسائل اللهو ، وظهور كل اسباب الاغراء ، واتخاذ الخصيان في قصر الخلافة ايام سليمان بن عبد الملك ، وكان اتخاذهم أول مظهر من مظاهر الفساد في البلاد الاموي (١)

فان المرأة العربية رغم ذلك ، حرصت على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التي درجت عليها ايام الجاهلية ، فلا تعجب اذا فخر الاباء ببناتهن وكانوا في العهد الجاهلي يعملون لدقنهن احياء خوفاً من العار يلحق بهم ... اذا غزاهم غاز فاستلب بناتهم منهم - فكان الرجل لا يتحرج عن ان يكتسى باسم ابنته ، او زوجته او اخته ، فيناديه اصحابه بابي ليلي او ابي بئينة .

الشعراء والنساء :

راول من تجراً من الشعراء القرشيين على التشبيب بالنساء ابن ابي عتيق ابن حفيد ابي بكر الصديق ، وكان من اهل الطهارة والعفاف ، وانما كان يتشعب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن ابي ربيعة القرشي وكان لا يمدح إلا النساء ، ومن سمع شعره ظنه من اجراً الناس على فاحشة ، وهو لم يحل ازاره على حرام - على قول الجاحظ ، وبما اعترف هو في اخر ايامه -..

وفعل مثلها كثير من شعراء قريش حتى ان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شذب بعاتكة بنت معاوية وهو خليفة ، فغضب يزيد بن معاوية ، وطلب من ابيه ان يقتله ، فاحتال معاوية على عبدالرحمن لما وفد عليه الى دمشق وقال له :

(١) يقول المستشرق فون كرامر : ويرجع اتخاذ الحرم الى عهد الوليد الثاني الذي ادخل كثيراً من العادات البيزنطية في البلاط الاموي .. واتخذ الخصيان في السراي ، وكان الاغريق اول من سن هذه السنة السيئة ، وقد اتفقد الجاحظ هذه المادة التي انتشرت ايضاً في القرن الثالث اتقاداً مرأ ...

- ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك .

فقال الشاعر : في اي شيء ؟

فقال معاوية : في مدحك اختها وتركك اياها .

فراح الشاعر يمدح ابنة معاوية الثانية ، فلما عرف الناس بذلك ضحكوا لان معاوية لم ينجب غير فتاة واحدة ..

وشبب ابو دهب ايضاً بابنة معاوية ، فعامله معاوية باللين وقطع لسانه بالعتاء وزوجه حالاً ، فعلم الناس ان تشبيهه كان هواء في هواء .

واما الشاعر الذي ذهب ضحيه تشبيهه بنساء الخلفاء فهو وضاح اليمى ، وكان يشبب بامرأة الوليد بن عبد الملك بن مروان ام البنين ، فهم به فمعه ابنه عبد العزيز مخافة ان يظن الناس الظنون ، فامسك عنه على غيظ وحنق حتى بلغه انه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز فقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدما اخت الخليفة والخليفة بعلمها

فرحت قوايلها بها وتباشرت وكذاك كانوا في المسرة اهلها

فاشدد غيظه ، وقال : اما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نساتنا واخواننا ولا له عنا مذهب ؟

ثم امر به فأحضر ، وامر بيثر فحضرت ودفنه فيها حياً ..

ومن اشتهر ايضاً بالتعرض للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر (الاخوص) ، كان يشبب بنساء ذوات اخطار من اهل المدينة .. فشكوه الى سليمان بن عبد الملك ، فامر بالقبض عليه ، وجلده ونفاه .

وظل الخلفاء الامويون واول خلفاء العباسيين يشددون على من يشبب من الشعراء بالنساء حتى تطورت الايام ، وزاد الترف ، واستقرت الحضارة ،

وخفت الغيرة بين الناس .

وعلى ذكر ام البنين امرأة الوليد نقول انها اشتهرت في عصرها بالبلاغة وقوة الحججة ، وقصتها مع الحجاج بن يوسف حاكم العراقيين .. وهو من هو من حيث الفصاحة والبيان حين زجرته وأُنبته على اعماله، معروفة مشهورة ، فما استطاع ان يرد كلمة ، او يأتي بحجة معها ..

وهي الى هذا واحدة من عشرات من نساء العرب اللواتي اشتهرن في هذا العهد ، وبلغن مبلغ الرجال في العلم والفصاحة والادب وطلب العلم ...

البحر المتوسط

وسيطرة الاسطول العربي عليه

خطو البحر المتوسط :

لن يكون كتابنا هذا تاماً إلا اذا عرضنا للسياسة البحرية التي اتبعتها الدولة الاموية في البحر الابيض المتوسط وما كان من اثرها وشأنها وخطرها في مقبلات الايام ..

فقد ظل البحر الابيض المتوسط مركز الحضارة والتجارة ، منذ كان للانسان حضارة وتجارة ، الى ان نازعه المحيط الاطلسي هذا المركز ، واحتلّ المقام الاول في تجارة العالم ، وكان البحر المتوسط الهدف الاكبر لجميع الامم ، التي بسطت سيطرتها على سواحله ، ولم تستطع أمة منها ، تثبيت اقدامها على هذه السواحل ، اذا هي عجزت عن امتلاك تلك السيادة .. فقد مَلَكَ الفُرس يوماً الساحل الممتد من القسطنطينية حتى حدود مصر ، ولكن سيادة اليونانيين البحرية قضت على نفوذهم ، فلم ترسخ اقدامهم على ذلك الساحل . وهو ما جرى للاشوريين والحثيين ، فلم يثبت بُنيانهم أمام اعاصير الزمن ، لانه بنيان لم تؤيدهُ السيادة البحرية .. ولا الاساطيل الضارية . وكان المصريون ، وهم في أوج عظمتهم ، سادة البحر المتوسط والبحر

الاجهر . ثم انتقلت هذه السيادة الى اليونانيين ، وبها تشرروا ثقافتهم ومدنيتهم من اقصى الشرق الى صِقْلِيَّة وجبل طارق . وآلت هذه السيادة بعدهم ، حيناً من الدهر ، الى الفينيقيين ، حتى ظهرت عليهم روما ، ثم بيزنطة ، ومن الروم انتقلت سيادة البحر الى العرب ، وظلت في ايديهم الى ما بعد الحروب الصليبية ، ثم أورثوها المماليك في مصر ، والاتراك العثمانيين في الدولة العثمانية ، وقد ضمنت هذه السيادة للعرب ، توطيد اقدامهم في البلاد التي فتحوها على السواحل ..

ولما اجتاحت العرب الشام ومصر ، ورثوا في هذين القطرين ، مراكز تجارية ، ودور صناعة للسفن عظيمة ..

فقد كانت الاسكندرية مثلاً اغنى مدينة في العالم في ذلك العهد ، وكانت قاعدة بحرية عظيمة للروم ، وكانت لهم قواعد اخرى في قيسارية والقنازيم وغيرها . وقد ادرك العرب أهمية السيادة البحرية ، عندما نزل الروم الى الاسكندرية ، وكانت في ايدي العرب مدة ثلاث سنوات ، كما لمسوا أهمية التجارة في البحر المتوسط ، ورأوا ما يحول دونها من الصعوبات والاططار ، ما دام الاسطول الرومي واقفاً لهم بالمرصاد ، يقطع عليهم الطرق البحرية ، ويتهددهم بالويل والشر . وكان الامر كذلك ، بعد ان احتل العرب قرطاجنة ، وعاد الروم فانتزعوها منهم . وقد أيقن العرب من كل ذلك ، ان لا سلامة لهم في الاقطار التي اكتسبوها ، إلا اذا تسنى لهم التغلب على اسطول الروم وطرده من البحر .

ومن المؤكد ان شرف انشاء التواة الاولى للاسطول العربي الاول ، وكسب أول معركة بحرية فيه يعود الى معاوية بن ابي سفيان ، وكان وقتئذ اميراً للشام ، والى عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، امير مصر . وكان معاوية اول من فكر في اقتحام البحر ، فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ، وقال

له في جملة ما كتب :

«ان الواقف على ساحل البحر في اقليم حمص ، يسمع صياح الديكة في اقرب الجزر الى الساحل الشامي ، وهي (بريد الجزر) التي كانت لا تزال في ايدي الروم ، وهم منها يقدرون ان يغيروا على الشام ..»
وكان الخليفة يوجس خيفة من البحر ، فخشى ان لا يدرك العرب فيه النجاح الذي حالهم في المعارك البرية ، لانهم لم يألفوه ولا عرفوه ولا خبروه . ويقال انه استشار عمرو بن العاص في ذلك وسأله ان يصف له البحر ، فقال عمرو في وصفه : «

«انه البحر ، سماء وماء ، الراكب فيه ، دود على عود ، فالخارج منه مولود ، والداخل اليه مفقود» ..

فابى الخليفة ان يأذن لمعاوية في ركوب البحر . وبقيت هذه الرغبة في نفس معاوية ، يتحين الفرص لتحقيقها ، حتى كان عهد عثمان بن عفان ، فعرض الامر عليه ، فوافق عثمان ، على ان يختير الناس في ركوب البحر ، وان لا يؤخذوا اليه قسراً .. وتم لمعاوية ما اراد ، وبني اسطوله ، وقام بواسطته بمجملات صغيرة كثيرة على شواطئ الروم ، كان اشهرها فتح قبرص سنة ٦٥٤ . وكان عبدالله بن ابي السرح من رأي معاوية في اهمية السيادة البحرية ، وكانت الحملة الاولى على قبرص بقيادة ابن سرح نفسه ، واشترك فيها اسطول الشام واسطول مصر .. وفي هذه الحملة لم يمكث العرب طويلاً في قبرص ، بل صالحوا اهلها ، على ان يؤدوا للعرب جزية مقدارها سبعة الاف دينار كل سنة ، وللروم مثلها ، وان يندروا المسلمين بكل تعد للروم عليهم ، وان ينزل العرب على اهل الجزيرة كلما وقعت حرب بينهم وبين الروم . غير ان الروم لم يعبأوا بشيء من كل هذه الشروط ، وعادوا فاستردوا الجزيرة ، ولم يعد العرب اليها ويمتلكوها إلا في القرن التاسع .

معركة السواري :

واخذ العرب بعد حملتهم الاولى على قبرص ، يحاولون بسط سيادتهم على

البحر المتوسط . وقد تمّ لهم ذلك بعد هذه الحملة بربيع قرن ، واصبحت لهم
السيادة التي ارادوها . وقد شجعهم هذا على ارسال اسطول ضخم ، تبلغ سفنه
الالف ، الى القسطنطينية لحصارها ، وكانت اهم معركة مهدت لهم كل هذا ،
المعركة المعروفة بذات السواري ، التي حدثت بعد فتح قبرص بقليل ، على عهد
امبراطور البيزنطيين في ذلك الوقت ... قسطنطين الثاني ابن هرقل .

وقد اطلق عليها هذا الاسم .. إما لكثرة السفن واختلاطها بعضها ببعض
اثناء القتال ، او لكثرة ما غرق من سفن الروم فيها ، وبقاء (سواري) هذه
السفن ظاهرة فوق سطح الماء ، او لانها وقعت تجاه ساحل الاناضول ، حيث
تغطي الاشجار الكثيفة ، سفوح الجبال القريبة من مكان المعركة ، فتظهر
على اهل الجزيرة ، كما وقعت حرب بينهم وبين الروم ..

وكان للعرب في هذه المعركة ، اسطولهم المصري واسطولهم الشامي ، وقد
تمكنوا من بنائها وتجهيزها بسرعة ، بفضل القواعد البحرية التي انتزعوها
من الروم ، ويفضل مهرة العمال من سكان مصر والشام ، الذين عملوا باخلاص
في بناء هذه السفن وتجهيزها وخدمتها ، وكانوا يجارثها ، في حين ان العرب لم
يكونوا فيها الا جنوداً محاربين . وكان نجاحهم انهم استطاعوا ان يحوّلوا المعركة
(في البحر) الى معركة برية . وذلك انهم اقتربوا بسفنهم حتى حاذت سفن
الروم ، ثم ربطوا هذه بتلك ربطاً محكماً بالجبال ، وشرعوا في القتال على
ظهور تلك السفن ، التي اصبحت ميداناً ، واخذ الفريقان ينساجران بعضها
بعضاً بالسيوف والحرايب . ولم تلبث المعركة ان اصبحت على هذه الصورة ،
مجزرة هائلة ، سالت فيها الدماء غزيرة ، حتى صبغت وجه البحر ، وحتى
اصبح البحر لكثرة ما غرق فيه من السفن ، اشبه بغابة احترقت اشجارها ..
وكان الاسطول الرومي يقوده الامبراطور ، وقد نجا بنفسه مشحناً بالجراح ،
بعد ان فقد اسطوله ورجاله .

كانت هذه المعركة نصراً مبيناً للعرب ، تشبه نصرهم في اليرموك .. ففي اليرموك ، احرز العرب نصرهم الاول على الروم في البر ، وفي هذه المعركة احرزوا نصرهم الاول في البحر . وبين المراكبتين نحو عشرين سنة .. غير ان خالد بن الوليد ، بطل اليرموك ، عرف كيف يستثمر نصره الى اقصى الحدود ، بينما لم يوفق (ابن سرح) الى مثل ذلك ، وليس يعود اللوم على هذا القائد الباسل ، فاتح برقة وطرابلس وقبرص ، وانما سببه في نظرنا الفتنة التي ثارت على الخليفة عثمان ابن عفان ، وانتهت بقتله ، وآلت الى انقسام الامة ، والى الحروب الاهلية التي نشبت بين احزابها .. وقد كان (عليّ) في الحجاز ، وعائشة في العراق ، ومعاوية في الشام ، يتنازعون جميعاً السيادة والسلطان ، فاخرت هذه الحوادث المؤسسة ، فتوح العرب البحرية ، ولم يعودوا اليها إلا بعد ان استتب الامر لمعاوية ، فعاد الى ما انقطع منها ، وهاجم الروم في البحر ، وارسل الى القسطنطينية خلال سنة ٦٦٩ ميلادية اسطولاً فيه ابنه يزيد ، وجيشاً برياً بقيادة سفيان بن عوف ، على ان تلتقي القوتان امام اسوار العاصمة الحصينة .

حصار القسطنطينية :

ووصلت القوتان الى اسوار عاصمة الروم في ربيع تلك السنة ، وضربتا عليها الحصار . وتوفي في اثناء هذا الحصار ابو ايوب الانصاري ، حامل راية النبي ﷺ . وكان ابو ايوب هذا ، اول من نزل النبي في داره في المدينة ، يوم هاجر اليها من مكة . وقد توفي ودفن تحت اسوار القسطنطينية ، وبقي قبره مزاراً للنصارى في بلاد الروم . ثم بنى عليه الاتراك العثمانيون جامعاً ، كان يتقلد فيه سلاطينهم سيوف الخلافة ..

وجهد معاوية في اواخر ايامه ، حملة بحرية قوية ، قهرت الاسطول الرومي ، وهزمته وردته الى بحر مرمرة . ثم حاصرت عاصمة البيزنطيين حصاراً دام سبع سنين ، وكان اطول حصار عرفه التاريخ استطاع العرب في اثنائه احتلال رودس

وكريت . ولم يتوقفوا عن متابعة فتوحهم إلا بعد وفاة معاوية وقيام الخلافات والفتن ، التي ظلت تفتك وتعبث في البلاد ، الى ان ولي الخلافة عبد الملك ابن مروان . وفي عهد ابنه سليمان ، عاد العرب فقاموا بحملة جديدة على عاصمة الروم ، وكانت آخر حملاتهم عليها .. وباحتلال العرب صقلية في القرن التاسع ، وبسط سيادتهم على اسبانيا ، اصبح البحر المتوسط جميعه في قبضتهم ، فاتخذوا في سواحل ايطاليا ، مراكز تجارية خطيرة، واحتكروا تجارة البحر من شرقه الى غربه .

جزر البحر المتوسط :

وتقول المصادر الاجنبية في هذا الصدد ، انه بعد ان انشأ العرب اساطيلهم في ثغور الشام ومصر ، تطلعوا الى الجزر البيزنطية في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، وهي قبرص وكريت (اقريطش) ورودس ، وكانت كلها من القواعد البحرية الكبرى للاساطيل البيزنطية ، وكان معاوية اول من جهز غارة على قبرص سنة ٢٨ هجرية ٦٤٩ م في عهد عثمان ، ويقول (البلاذري) ان عثمان لم يكن راضياً عن هذه الغزوة ... وقد تمت الغارة ونجحت ونزل العرب الى رودس وكريت ثم جلوا عنها .

وفي العقد السادس للهجرة استولى العرب على جزيرة في بحر مرمره وجعلوها قاعدة بحرية لهم وبذلك استطاعوا ان يدبروا رحي حرب طاحنة برأ وبجرأ ضد البيزنطيين ، مدة سبع سنوات ، على مقربة من القسطنطينية التي كانت نفسها على وشك السقوط في يد العرب حينئذ .

وتاريخ العرب في جزيرة (كريت) المعروفة لدى مؤرخي العرب وجغرافيينهم باسم اقريطش ، تاريخ عظيم الامة ... فقد حاول الغزاة قديماً فتحها عدة مرات وفي سنة ٥١ هجرية الموافقة سنة ٦٨١ ميلادية .. فتحها عرب الشام واحتلوها مدة قصيرة ، ثم تركوها ولم تدخل ثانياً في مدار التاريخ الاسلامي ، الا بعد ذلك بزم من طويل ...

انتهى الكتاب

فهرس الكتاب

	<u>الصفحة</u>	<u>الفصل</u>
هذا الكتاب	٧	
ظهور بني مروان	٩	١
اتفاق الآراء في دمشق	٢١	٢
الاتفاق في الجابية	٣٢	٣
مروان بن الحكم	٤٥	٤
عبدالله بن الزبير	٦١	٥
ابن الزبير يعلن استقلاله	٧٢	٦
عبدالله بن الزبير	٨٠	٧
عبد الملك بن مروان	١٠٠	٨
الحجاج بن يوسف	١٢٢	٩
سياسة الحجاج في الحجاز والمراق	١٣٤	١٠
الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان	١٤٤	١١
الحجاج والخوارج	١٦١	١٢
الفضاء على الخوارج	١٧٥	١٣
اخبار الخوارج وجرأتهم في سبيل عقيدتهم	١٨٤	١٤
تعالم الخوارج ومذاهبهم	١٩٥	١٥

	<u>الصفحة</u>	<u>الفصل</u>
الاضطرابات الداخلية	٢٠٢	١٦
عبد الملك والحجاج	٢١٩	١٧
ايام عبد الملك الاخيرية	٢٤٣	١٨
العراق مركز الثقل	٢٥٨	١٩
مشكلة الموالي	٢٦٧	٢٠
التعليم الحر في الدولة الاموية	٢٨٥	٢١
البحر الابيض المتوسط وسيطرة	٣٠٢	٢٢
الاسطول العربي عليه		

مصادر الكتاب

- | | |
|--|---------------------------|
| الكامل في التاريخ | ١ - ابن الاثير |
| تاريخ يعقوبي | ٢ - احمد بن ابي يعقوب |
| كتاب الحراج | ٣ - ابو يوسف |
| النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم .. | ٤ - المقرئزي |
| فتوح الشام | ٥ - الواقدي |
| معجم البلدان | ٦ - ياقوت |
| مروج الذهب ومعادن الجوهر | ٧ - المسعودي |
| الاحكام السلطانية | ٨ - الماوردي |
| الكامل | ٩ - المبرد (ابو العباس) |
| البدابة والنهاية | ١٠ - ابن كثير |
| الامامة والسياسة | ١١ - ابن قتيبة |
| المعارف | ١٢ - ابن قتيبة |
| المختصر في اخبار البشر | ١٣ - ابو الفداء |
| شذرات الذهب في اخبار من ذهب | ١٤ - ابن العماد |

- ١٥ - ابن عساكر تهذيب التاريخ الكبير
١٦ - ابن عبد ربه العقد الفريد
١٧ - ابو جعفر بن جرير الطبري تاريخ الامم والملوك
١٨ - ابن طباطبا الفخري في الاداب السلطانية
والدول الاسلامية
١٩ - الشهرستاني الملل والنحل
٢٠ - ابن سعد الطبقات الكبرى
٢١ - الدينوري الاخبار الطوال
٢٢ - ابن خلكان وفيات الاعيان
٢٣ - ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر .
والمقدمة
٢٤ - ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة
٢٥ - الجاحظ رسائل الجاحظ
٢٦ - البيان والتبيين
٢٧ - البلاذري فتوح البلدان
٢٨ - الاصفهاني كتاب الاغاني
٢٩ - احمد امين فجر الاسلام
٣٠ - طه حسين علي وبنوه
٣١ - جورجى زيدان تاريخ التمدن الاسلامي
٣٢ - حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي
٣٣ - الحضري تاريخ الامم الاسلامية
٣٤ - الدكتور سهر القلماوي ادب الخوارج في العصر الاموي
٣٥ - شكري فيصل المجتمعات الاسلامية في القرن
الاول الهجري
٣٦ - الدكتور عبدالعزيز الدوري مقدمة في تاريخ صدر الاسلام

الاسلام والحضارة العربية	٣٧ - محمد كرد علي
الادارة الاسلامية في عز العرب	٣٨ - » »
ابو بكر	٣٩ - محمد حسين هيكل
الفاروق عمر	٤٠ - » »
الوسيلة الادبية	٤١ - المرصفي

وكذلك أفدنا من كتب كثيرة غابت عنا اسمائها ، وأسماء مؤلفيها ..
كما أفدنا كثيراً من مؤلفات المستشرقين كتوماس أرنولد مؤلف كتاب
الخلافة .

ويروكلمان مؤلف : تاريخ الشعوب الاسلامية .
و (اوغناس غولدتسبير) صاحب : العقيدة والتشريع في الاسلام .
وديمويين المستشرق الفرنسي مؤلف : النظم الاسلامية .
(هواري) : مؤلف تاريخ العرب .
(روفلدسن) : صاحب كتاب عقيدة الشيعة ..
(امير علي) : مؤلف كتاب مختصر تاريخ العرب ، وكتاب الخلفاء ..
(غيب) الانكليزي : مؤلف كتاب الآداب العربية .
(فون كرم) الالماني صاحب كتاب : الشرق تحت حكم الخلفاء
والمستشرق موير صاحب كتاب : الخلافة وظهورها وتأخرها وانهارها ..
ونيكلسون صاحب كتاب : التاريخ الادبي للعرب ..
(وهوزن) مؤلف كتاب : المملكة المملكية العربية وسقوطها ..
وغيرها من الكتب الكثيرة ، والمصادر العامة امثال دائرة المعارف
البريطانية ، ودائرة المعارف الاسلامية ، والدراسات الخاصة ، التي سنحاول
تعداد مصادرها في كتابنا المقبل « الايام الاخيرة للدولة الاموية » .

للمؤلف

خالد بن الوليد (٣ طبعات)
 العراق الجديد
 دار احياء الكتب العربية (القاهرة)
 علي وعائشة
 السيامة والخلافة عند الشيعة
 الشيعة الاولى في الاسلام
 لجنة النشر للجامعيين - مصر
 الدهماء الثلاثة
 مطبوعات مختلفة
 مواقف مؤثرة في تاريخ محمد
 المذاهب الاجتماعية عند العرب
 الجمعيات السرية في الاسلام
 رايات الاسلام « فتوحات العراق »
 الفتوح العربية في سورية
 الخوارج في الاسلام (الطبعة الثانية)
 الحضارة العربية الاموية
 ابطال العرب
 محمد وعصره
 كفاحي تأليف : (ادولف هتلر)
 محاكمة المارشال بتان
 السيامة عند العرب

مطبوعات المكتبة الاهلية - بيروت

هرون الرشيد
 تيمورلنك
 فيصل الاول
 عبد الكريم بطل الريف
 سيد الجزيرة العربية
 البحث عن الله
 الحسين بن علي
 محمد النبي العربي
 ماذا يجب ان تعرف عن محمد
 والاسلام ؟
 محمد واقوال المستشرقين في رسالته .
 فاطمة بنت محمد
 ابو بكر الصديق (طبعة ثانية)
 عمر بن الخطاب
 عثمان بن عفان
 علي بن ابي طالب
 معاوية بن ابي سفيان
 يزيد بن معاوية
 الحجاج بن يوسف

- الثورة العربية الفلسطينية ١٩٤٨ .
 جهاد فلسطين العربية ١٩٣٦
 تاريخ سورية ولبنان «جزءان» .
 اليقظة العربية
 تركيا الجديدة
 دولة الادب والبيان
 رجال الجمهورية « لبنان »
 عشرون سنة بعد الحرب
 العرب « مجموعة في تاريخ العرب »
 هتلر في ساعاته الاخيرة
 لما غضبت دمشق وثار لبنان
 الصراع بين اميركا وروسيا
 كانوا ماوكا
 اسرار هتلر
 ماذا يريد ستالين ؟
 الجاسوسية في سوريا ولبنان
 حرب الصاعقة
 هتلر في بولونيا
 عنتر بن شداد (٣ مجلدات)
 كتبت في اساب جديد
- عنتر بن شداد (مجلد واحد)
 النور الاخضر
 الحرب العالمية الاولى (مجلدان
 كبيرات)
 النار في الجزائر ..
 الحرب العالمية الاولى طبعة جديدة
 ١٩١٤-١٩١٨ في (ثلاثة مجلدات) .
 الحرب العالمية الثالثة ١٩٣٩-
 ١٩٤٥ في ثلاثة مجلدات .
 الهوى والشباب في عهد الرشيد
 ابو نواس في مبادئه
 غراميات هتلر
 الروح السوفياتية في الادب الروسي
 الحديث
 الفجر العربي ألفه كارانجيا الصحفي
 الهندي ونقله الى العربية (المؤلف)
 فجر ام ظلام تأليف كارانجيا .
 نهاية امرائيل

ترجمت معظم الكتب التاريخية الى الفارسية والاوربية في
 الباكستان ..

كما نفذت كل هذه الكتب إلا اقلها ، وهي التي طبعت مؤخراً ، ولا
 يزيد عددها عن عشرة كتب على ابعد تقدير ..

سلسلة روايات تاريخ الاسلام

فتاة اليرموك
فرسان الصحراء
جريمة في المسجد
دماء على الرمال
غادة العراق

وهناك ما يزيد على اربعمائة رواية من الروايات الادبية والبوليسية
وقصص المفامرات والبطولة صار ترجمة اكثرها وتاليف البعض الاخر
طبعت اكثر من مرة واحدة ونفدت جميعها ولم يبق منها الا اقلها في
طبعتها الجديدة .. وقد اغفلنا عن ذكرها . لصعوبة استقصائها
وحصرها ..

منشورات المكتبة الاهلية

يصدر قوياً للمؤلف

الأيامُ الأخيرة

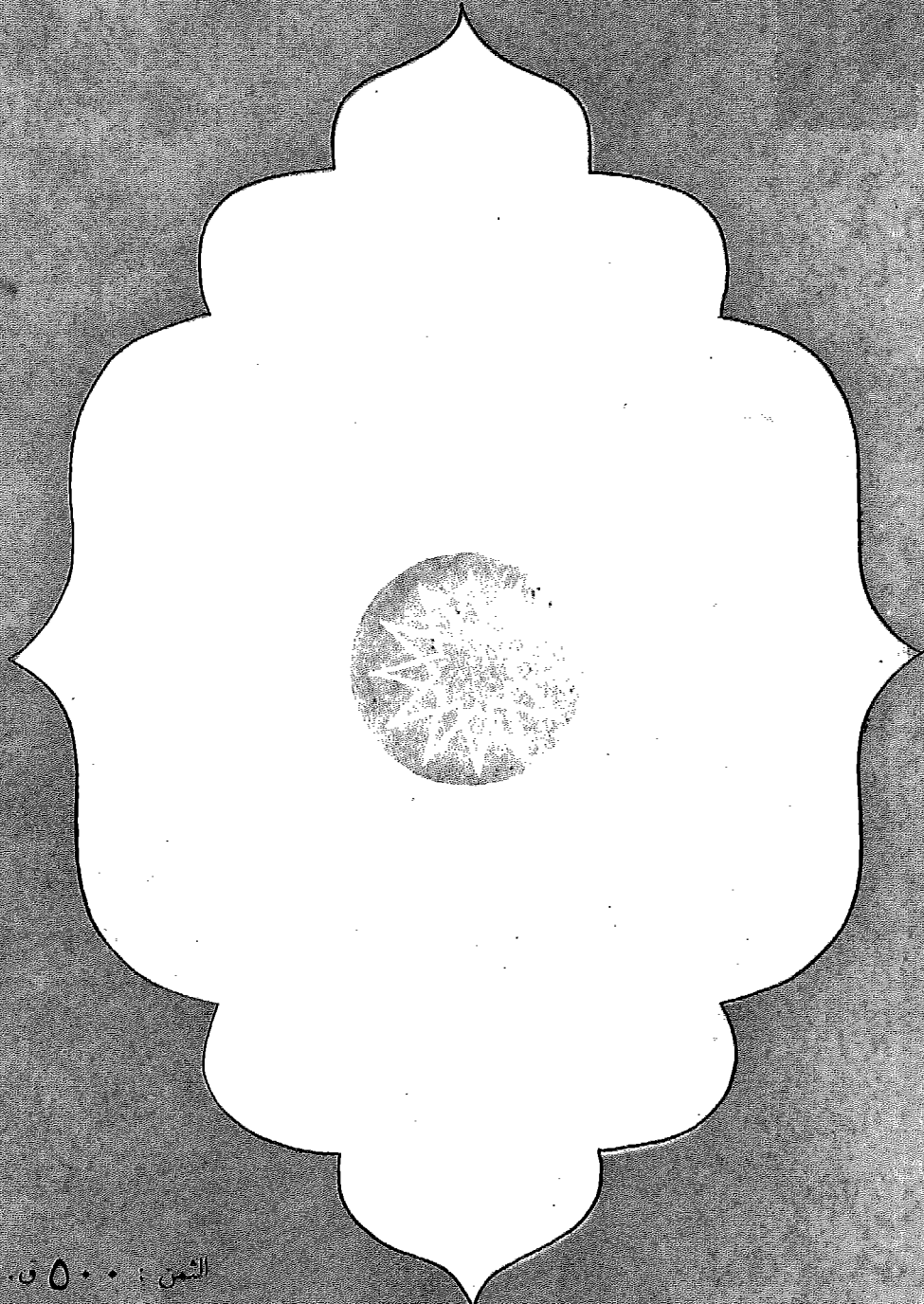
للدولة الأموية

وهو الكتاب الثامن من موسوعة

تاريخ العرب والاسلام



مطبعة قسنطينة - شارع بشار بن خوري - بناية قطاع - تلفون: ٢٧٥٢٢



الشمع : ٥٠٠ ق. ل.
٦٠٠ ق. س.

منشورات المكتبة الإسلامية - بيروت